

بنسالم حَمِيش^{٣١}

الراوي والمتجرده

رواية

الدار المصرية اللبنانية

بنسالم جَمِيش^٤

الراوي والمتجرده

رواية

الدار المصرية اللبنانية



الراوي والمتجردة

رواية

حميش، بنسالم.
الراوي والمتجردة: رواية / بنسالم حميش
- ط2- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2016.
272 ص؛ 20 سم-
تدمك: 6 - 075 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 2016/ 15784

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ذو القعدة 1437 هـ - أغسطس 2016م

الطبعة الثانية: 2016م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي
مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس
منه، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن
كتلي مسبق من الدار.

الراوي والمتجردة

رواية

بتسام حيش

الدار المصرية اللبنانية

إلى نون هاء

«يلزم أن تلعب الثقافة دورًا بالغ الأهمية

في أعمال الكاتب».

فرجينيا وولف، محاضرة، مايو 1940.

«رَجُلٌ في المعرفة الموسوعية، وأخرى في السُّحْرِ أو بالتدقيق، ومن دون مجاز، في هذا السُّحْرِ المتعاطف الذي يكْمُن في الانتقال بالفكر إلى باطن إنسان».

مارجريت يورسنار، مذكرات أدريان.

«الأدب - هذا القران بين الفنِّ والفكر، هذا الإنجاز الذي لا يأتي لتلويث الواقع - يبدو لي كغاية يجب أن تصبَّو إليها كل جهود الكائن البشري، إذا كان حقًا بشريًا، وليس مجرد نموِّ حيوانيِّ عشوائيِّ حشويِّ».

فرناندو بيسووا، كتاب اللآ طمأنينة.

هكذا تكلم الراوي

[...] و«حين يُشار بالأصبع إلى القمر، يقول مثل صيني، لا ينظر الغبيّ إلا إلى الأصبع». سؤال: والذي يشيخ بنظره عنهما معًا، مَنْ يكون؟ وهل فعله ناتج عن فطنة وبصيرة أم يا ترى عن شيءٍ آخر؟

ومهما يكن الأمر، فهذا الحال أمسي حالي، لكن لا حاجة بي إلى إدامة التفكير فيه بتحويله إلى شأنٍ مقيم أو مادةٍ أحرك حولها اهتمامي وأقلامي، لا سيما وأني منذ مُدَّة جعلت وكدي في تنكير أناي، ما قدرت، وتعليق الكلام فيه أو عنه، عساني أستفيق ذات صباح غريبًا عنه، أي وقد سُفيثُ منه واسترحت. وأعلم أن المهمة شائكةٌ شاقة، تستوجب تمارين في فطم النفس عن عاداتٍ وزوائدٍ شتّى، كما في الميل إلى التقليل من العلائق مع الأغيار في أفق تصرّم أغلبها فتلاشيها. ولو لم أعرف، أيام مخالطاتي ونهضاتي، بكوني الصبور على المشاق، لكنّ استوعرتها وقعدت دونها.

«أن نحيا معناه أن نكون لأمدٍ مديدٍ مرضى». هذا قولُ سقراط الذي أنكره نيتشة وتآباه، هو المريض مدى الحياة. وحيال سيول الأحكام ونقائضها، كل نفس بما تمثلت وجرت رهينة. وعليه، الحياة الحرة المسؤولة، في ظني وتقديري، انتقال من تشوق إلى تشوق، وإلا فهي عبثٌ وملالة، بل عبءٌ على النفس ثقيل، يجذب إلى قفرٍ مريرٍ الرتابة التي شبَّهها حكماء بنصف العدم.

خطتي تشوقي؟

أن أتفرغ للأجود والأجدي، مخلصًا من وجوهٍ وأحداث طوقت كاهلي حقًا وأرهقتني جدًّا. والغاية: أن أخلق كائنات تقف من الواقعي والافتراضي موقفَ بينَ بين، أو في هيئة الكيان المتمازج المركب؛ كائنات تشاركنا في الأدمية والأفعال الاعتيادية، لكنها، كما نحن، تختلف وتتمايز في الأعراض والسلوكيات؛ معها، أنا الحبلُ الناظمُ الممدود إليها، الذي لولاه لا نسج ولا سرد، لا وصل ولا وصال؛ كائنات أنفثُ فيها الحياة وأحركها في مأويها وفضاءاتها الأخرى، كما طيَّ مساعيها في حلبات الوجود المرتج ومصطدمات المنازع والأهواء، معرضةً لضربات القدر القاسيات أو لطوالع السعد والاستبشار، إما تناوبًا وإما اطرادًا.

مطلقةٌ إذن هي حيرتي في رسم منحنيات عيش تلکم الكائنات ومصائرهما، متقاطعةً متلاقية تارات ومتوازية متجاوزة أطوارًا. ومن خلف ستار يتراوح نسجه بين السميک والشفيف، أراها ولا تراني، أدركها ولا تُدركني، أتخيلها

متى شئت أو حلا لي، بينما هي لا تحسني ولا تحيط بي، وغير ذلك من مقامات الإيجاب والسلب، ومدارج الممكن والمحال. هذا، ولا شيء يمنعها من أن تسأل عني وتتمنى لقائي قصد قضاء أغراض وحاجات؛ أما أن تخرج يوماً من تدبيرتي، أنا الراوي، شاهرةً عليّ شكواها وعصيانها، وربما عصيها وأسلحة بيضاء أو رصاصية، فهذا وأوغل منه لو حدث لكان من صميم المعجزات، وهيئات هيات! لكني في المقابل لا أستبعدُ بروز بطلية استثنائية أسلمها مقاليد الرواية عن نفسها بنفسها، أو قل إنها وقد بغلت من مسلكها ذروته، ومن وعيها أعظمه، باتت تتكلم فيّ، على غرار ما يقر بإمكانه لسانيون أكفاء، ويشهدُ له مبدعون أفاض.

وتلك الكائنات لن أقول، على الوجه الأعم، إني ربُّها إلا مجازياً، أي كما نقول ربَّ أسرة أو شركة أو فكرة لا أقل ولا أكثر، وفوق هذا حاشا حاشا... إني أعرفُ الناس بحجمي وحدودي. فما أناني عن الزعم بنسب لي، ولو كخيطة عنكبوت، إلى القائلين بالحلول في الذات الإلهية أو الاتحاد بها! أما لو ادعى مخاطبة الله بصيغة قلتُ له وقال لي، أو وأوقفني في كذا وكيت وقال لي، كما كان دأبُ بعض أكابر الصوفية والولاية، كرابعة العدوية والحلاج والنفري، إذن لأقام قومُ الدنيا من حولي ولم يقعدوها، وقالوا: اجترحت هذا التجديف والتشهير ابتغاء الخلف والشهرة، فليس علينا إلا مقاضاتك والدعاء عليك.

وجه التحدي القائم أمامي كسور أو عقبة كأداء يثوي في كون النفس جوهراً لطيفاً، هي، كما عرّفها القدماء: «أول لجسم طبعي آلي من جهة ما يدرك الأمور الكليات ويفعل الأفعال الفكرية». وهي حين لا تكون النفس المطمئنة، تضحو إذن أمارة بالسوء، متقلبة الأحوال والمزاج، وذلك بسبب أبحرتها الرديئة؛ ثم إذا أمست لوامة فذلك لأن رفعة أصلها تنشد الرجعى، ولكونها، كما خاطبنا ابن سينا في شأنها مطلع قصيدته الشهيرة: «نزلت عليك من المقام الأرفع / ورقاء ذات تعزُّز وتمنع»؛ فيكون عليّ إذن أن أطفها وأمدحها، وإن نفرت أن أروضها بل أغلظ لها النهي والأمر. وهكذا أمسيتُ كلما رأيتها تارن وتبأبى إلا ومسكت بناصيتها وتلابيها، كيما أضبط مزاجها الانفلاتي المنتطع، فأعيد لها لينة القناة، مرتاحة إليّ، طائعة رائمة في ظل جنوحى إلى تاجيح تشوقي فإنجاح خطتي تلك.

ربُّ مُستقص يسألني بضمير الغائب أو غيره عن وضعي المدني والوظيفي وهلمَّ جرّاً. حالئذ أبادر إلى جعل المستقصي في قفص الاتهام بالفضول الزائد عن حدّه المنقلب إلى غيّه، وباقتفاء ما لا حق له في علمه، والسلام... وموقفى لن يتغير قيد أنملة، وكيفما كان عمر السائل وشكله، وسواءً ذكرًا برز لي أم أنثى. وهاته للتأكيد لن أستثنيها ولو حية تجلت، إذ تعرت، في

أحسن تقويم، وأبدع صورة، وأنور بهاء؛ فكلّ السبل إليّ بالغوابة والإغراء أو بالتحبّب والتقرب، ومن أيّ جهة تبدت، ستجدني بعون طاقتي الذاتية درعًا واقياً وحصناً حصيناً، وإلا فدونيّ الخطة، صرحها إبانئذ ينهار، وقوامها يغدو أضغاث أحلام، لا سمح الله ولا سمحت، فأفبق لا ريب من هذا كما من كابوس، محطّم المفاصل والأعصاب، خائب الخاطر معكّره، مزموماً، مصاباً بجراح في الذهن والجسم صعبة الاندمال والبرء، لا سمح الله ولا سمحت.

وجه تحدّ آخر: الخوض في إنجاز خطتي قد يراه مفترّون مدعيّاً التشبّه بالإله من حيث اقتداره المتجدّد المطلق، إذ يكفيه هو الجبار المتعالي أن يقول للشيء كُن فيكون، وهذا أمر مستحيل على أيّ ابن أنثى مثلي وُلد في رحمها من صلصال كالفخار، ولو كان عبقرّيّ الفكر والملكات. وعليه، فليس بالتشمير على الساعدين وشدّ أحزمة العزم وحدها أحقق المراد وأنال البغية، بل بإجراء تمارين ورياضات، شأنها شأن الأحوال والمقامات عند المتصوفة، أو المنافسات والتصفيات في الألعاب الأولمبية. وعليّ أن أحصل في ذلك ما استطعته ولويث عليه، فأسير قُدماً، وإن رويداً رويداً، إلى طور التطهر من البراثن والمنغصات والأكدار، ومن هاته شخصت أسوأها وأعتاها، وفي إيرادها جوّزت لِنفسي أحياناً التثنية، لا كي أكون جانوس ذا الوجهين، بل لأبعد ما استطعتُ أناي، أو أمرّ من بعضه إلى بعض؛ وما ليس كالربّ الروماني ضبطته هو على النحو التالي:

~ احتواء دماغك، يا هذا، لذكريات كأبخرة متكلسة تعود إلى الطفو المباغت متى شاءت أو متى أحيثها أخرى حديثة، فلا ينفع فيها إعمال النسيان الإرادي. ولو سردت عيناتٍ منها لطال بنا المسار حلقاتٍ متوالدة ما بين سجو ليالٍ وانبلاج صباحات. وهذا ما لا يتسع له الحيز ولا الوقت الداهم، بل ما لا ترتضيه أنت وقد وعدت بلجم نفسك والزهد في سيرتها والرواية عنها، هذا فضلاً عن استحالة الفعل السيرذاتي كما ذهبت، ولو عوّضت الحقيقة والصدق فيه بالكذب الأبيض العذب، فأتت خيوطه تشدُّ حبكة النسيج وأزره...

~ ظلّم الظلام حين تتزلّ الرؤى المنامية القاهرة عليك، وكيف الفكاك من شركها وإحكام قبضتها، سيما إذا واطأت، يا هذا، غلبتها عليك وعبثها العنيف بك. وفيها ومعها كم وقائع وأحداثٍ ترد عليك صورها بشحناتها الدرامية وإيلامها الممضّ! وكم شخوص حسبت ما بينك وبينهم تصرّم وباد، يزورونك للتنيب في أحوالك وفليها، لآل للمؤازرة والمواساة، بل للنكايّة والتشفي، حتى إذا ما وجدوك يوماً معتلاً تغامزوا ملياً وتهامسوا، إلى أن تطردهم من حولك يقظتُك المفزوعة وهيعتك الضاجة. والعجب العجيب أن يبرز لك في النوم أولئك أو بعضهم بوجوهٍ نافرة وعيون محمرة ونيوبٍ مكشّرة، فتجادلهم

في كونك حيًّا لا تحجبهم عنك رفاتك ولو من وراء تراب. فيا لهول المشهد!
وأهول منه وأنكى تباريهم في نقض ادعائك برفس بقاياك وإطلاق قهقهاتٍ
حوالك حادة ملعلة.

طامة!

طامة نزل عليَّ خبرها كالصاعقة، فخلخل مخِّي وكياني. والخبر ورد عليَّ
هاتفياً من رقم مقنع بصوت أنثوي، تفيد صاحبه أنها في التاريخ كذا والظرف
كذا نقلت إليَّ عن غير قصد وسبق إصرار فيروس الإيدز الذي تبين لها بعد
فترة مضت على خلطتنا أنها تحمله، ونصحتني بالإمساك عن فعل ما قد
تكون فعلت هي بي، ثم نهتني، قبل أن تغلق الخط، عن اقتفاء أثرها؛ إذ إنها
تنوي الرحيل إلى بلد بعيد للانتحار إن لم تشفَ فيه أو تخف.

هلُعْ هلُعْ!

استبدَّ بي وكان كاسح التغلغل، شديد الوطاء والتنعيص. عبثًا حاولت التهدئة،
ثم ببقية وعيي المترسبة أجهدت ذاكرتي لاسترجاع مسلسل علاقاتي
الجنسية الأخيرة وظروفها، فلم يبرز في حومة الاحتمال الأرجح إلا علاقة
عابرة في أحد الفنادق الإشبيلية، جرت منذ مدة تناهز شهرين، وخلالها قد
يكون العازل الوقائي تمزق من دون أن أشعر. أما الشريكة في الفعل ذاك،
وهي من بني جلدي الشقيات التائهاث في مدن أوربية، فكانت جارتني في
قاعة سينما عمومية، شاهدنا فيها فيلم «الرجل الفيل» (إيفنت مان)
للمخرج دافيد لينش، يحكي قصة طبيب جراح بلندن في 1884 اكتشف شابًا
مشوه الخلقة شبيهًا بفيل صغير، فصاحب معاناته الممضة في وسط اهتم به
إما من باب الهزاء والسخرية أو نظرًا لحساسيته الرقيقة وذكائه اللافت...
وكانت المرأة إبان العرض تبكي في صمت من شدة التأثر بالمشاهد وتمسح
دموعها بكفيها. تسلمت مني شاكرة بكية مناشف، فيما عدوى البكاء انتقلت
إليَّ لكن لينة خفيفة. خارج السينما في مطعم دعوتها إليه تعارفنا، ثم في
منزلها حول مواضع شتى تحدثنا، تبوأها «الرجل الفيل» الذي بكت عليه
مجددًا في حضني، ثم كان ما كان مما أنا حتى الآن أتذكره طيَّ مجمله
وتفاصيله.

أسبوع بالغ القتامة والارتجاج قضيته سجين الدار والانهار. في بدايته، سارت
بي الظنون كلَّ مسلك، منها أن المرأة قد تكون للرجال عدوة، تُكُنُّ لهم
عظيم البغض والكراهية، فلم تجد من حيلة لريِّ مشاعرها العدائية إلا في
نقل جرثومتها القاتلة إليهم؛ وما البكاء الخفيض في قاعة السينما سوى

طعمة للإيقاع بمن هو مثلي يفرط في إحسان النية والظن، فلا يحترز ولا يحتاط. أسبوع التهمت خلاله كثيرًا من المقالات عن المرض اللعين في الموسوعات الورقية والإلكترونية، وكنت أُغلق بالتي تنفي العدوى أو تقلل من شأنها، مُمْتِنًا النفس بها ما قدرت. لكن في بقية الأسبوع وما تلاه اشتد عليَّ الأمر، ولا حاجة إلى وصفه يومًا بيوم، عدا أن أوجزه في كلمات رئيسة، هي من عناوين الإدمان على التفكير القسري في أعراض المرض المتربص بي ولم تحلُّ بعد: انهزام نظامي الحماي ومناعتي المكتسبة، الهزال والسقم، تدهور وظائف الجسم الحيوية، فظاعة الانكسارات النفسية البليغة، معاينة الموت قادمًا لا ريب فيه، أرقُّ على أرق ونوم إن تيسر شيءٌ منه فمعجونيًا بالمطبات وأدهى منها وأمرُّ الكوابيس.

آه من الكوابيس!

آخر حلقة منها تبدت لي ليلة أمس. فقد رأيت تلك المرأة، مُعديتي، ماثلة يتقبضها رجالٌ ثلاثةٌ شداد، وهي تسترحمني صارخةً نائحة، تفيض عيناها بدمع غزيرٍ أسود. ناشدتُ الرجال أن يخلوا سبيلها، فأجابني أضخمهم: جئناك بها كي نخيرك بين أنجع الطرق لإعدامها، هي الخطر الأدهم على الرجال، فإما بقذفة مدفعية مدمرة تبيدها عن آخرها. وقال الثاني: وإما بسفك دمها وتجفيفه من الشرايين والعروق؛ وقال الثالث: وإما بإدخال سفاويد حامية في ثقبها السبع، تليها طلقات رصاصية صامتة على أطراف جسمها الحساسة. وأردف الأضخم: إن كانت لك طريقة أخرى أمضى وأقسى اذكرها ننفذها لك، كان نهدم وجه الجانية بالمطرقة والمثقاب... استنكرت كلام الصناديد، ورددتُ عليهم وقد استجمعت جراتي وقواي: أنا ما رفعت دعوى ضدها أبدًا، ولا حاجة لي بموتها... ثم استنفقت مذعورًا على وقع جلجلة في السماء، أحدثت لنوافذي وأبوابي قلقلةً وصفييرًا... ومثيل هذه اليقظة حدث لي كرةً أخرى، لكن بعد أن ارتطم جسم المرأة نفسها بجسمي وكان قوة من علوِّ شاهق حطته عليَّ.

منتصفَ الأسبوع الثاني: بدأت أعافُ فراشي ولبسي وحتى نفسي. فصاح بي صائح لعله ضميري الباطن: قُم يا هذا للطهارة وتحسين السمِّ والهندام... قم واسعِّ كيما تستبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وتستقرَّ على موقف لربما يكون الأصح والأصوب...

ظللت أترقب من الصائح المزيد. وإذ لا مزيد هتفتُ ملءً جنجرتي: حيَّ على التقصي ودرك الحقيقة: فإما سوءٌ مقيم يليه بعدَ مدة هلاكٌ مبين؛ وإما قطعٌ للشك باليقين فنفضٌ للهواجس والوساوس ينجم عنه الخلاص المرتجى...

بادرت إلى مكالمة طبيب أعرفه طالبًا مشورته في حالتي لكن منسوبة لمجهول. سرد الأعراض كبيرها وصغيرها فلم أجد فيها ما يعنيني، لكنه أشار بضرورة إجراء تحاليل الدم للمزيد من التيقن وتحصيل الطمأنينة. وكان هذا ما فعلت متحوظًا، وبه تجلت سلامتي من أيّ فيروسٍ قاهرٍ خبيث.

طامة!

لكنها أقل من الأولى حدة وخطورة...

عند متم كل سنة اعتدت إجراء «تشيك أب» على صحتي البدنية، من باب أن الوقاية خير من العلاج. لكن فحوص هذا العام طلبتُ أن تشمل دماغي، بحثًا عن أسباب سهوات نسيانية عندي تمس بشكل متقطع وأحيانًا متباعد أشياء وحركات، كالموبايل والنظارة والساعة أو أسماء، ومع الكتابة بعض النقط على الحروف، وسوى ذلك. فمن طبيب لاهٍ لعوب استهجن الأمر وذكّرني بقول الشاعر «وما سمى الإنسان إلا لنسيه»، وبأن كل ابن آدم كجده الأول ينسى، ثم أوصاني بحمد الله على أنني لا أنسى على وجه الإطلاق كحال المصاب بالألزهايمر، كما أنني لا أنسى وضع النقط المنوية حيث حلل الشرع؛ ومن طبيب آخر نصحتني بإجراء تمارين تذكيرية مكثفة خلال اليوم بالاستظهار والترديد، وحين أعلمته أن حافظتي لا بأس بها، بل إنها جيدة، قال إن الأمر لا يتعلق بالأوعية القديمة بل بجديدها، وأخذ لي موعدًا مع طبيبة نورو-جراحة، قصدها حاملة تقرير فحوص بالأشعة معمقة وصفائحها، فأخضعتني لخمسة اختبارات اتخذت أحيانًا طابعًا بهلوانيًا في مرفقي الألفاظ والأرقام، بحيث يكون عليّ في هاته حلّ عمليات ذهنية معروفة ثم تذكر تلك مفردة أو مركبة، والطبيبة في كل ذلك طالبة أو أمرّة.

لحسن حظي أن جماع الاختبارات انتهى إلى نتائج غير مقلقة، ولو لأجل نُصحتُ أن لا أفكر فيه، أي أن أنساه إراديًا. واتفق طبيبان، واحد متخصص والثاني عام، على أن الحل الأنجع في حالتي يكون في إدامة تشغيل ملكات دماغي بدءًا بالذاكرة، وذلك بالقراءة والحفظ المكثفين؛ أما قصة إراحة الدماغ بإحلال الفراغ فيه، فما هي من منظورهما سوى خرافة، مؤداها تهاون النورونات والانتهاة بإضعافها وبوارها.

طامة!

لكنها أقل من السابقتين حدة وخطورة!

- هل تزوجت؟

سرحت بذهني في تذكر امرأة رسامة، عشنا بين بيتينا ومرسمها سنة،
نتراقب ونتواصل في أفق القران إن تم الوفاق والوثام، قران يعوضني عن
آخر مع امرأة فقدتها مبكرًا بعد معاناة ممضة مع المرض الخبيث.

لوحات صفية (أو صوفيا) عبارة عن تشكيل زيتي يعرض أغلبه أجسامًا أنثوية
تكسوها الفنانة من شعر الرأس إلى أخصم القدم بخيوط سوداء وبيضاء،
دائرية أو حلزونية؛ والبعض الآخر تخلع عليه رداءات بالغة الرقة والشفافية.
وكلها، سواء منها الفردية أو الجماعية، يتبدى العريُّ فيها عند النظر جليًّا لا
لبس فيه، عدا في أكثر الأطراف حميمة. أما ممارستها التشكيلية الأخرى،
وهي عندها هامشية، فتنصبُّ على أشياء الطبيعة الميتة ذات الصور
الهندسية المكورة، كالتفاح والتين والبرقوق والبصل وغيرها، أو البيضاوية
كالبطيخ الأصفر والأحمر و«البادنجال»...

من وجهة نظري النقدية أو قل ذاتقتي الفنية، لم أكن مقتنعا برسوم صوفيا
ولا بأسلوبها المفضل، ليس لسبب أخلاقي صرف، تنفيه هي مسبقًا وتهجنه
باسم حرية الإبداع المطلقة التي هي عندها من أقدس المقدسات، لا بل إنه
ميلني إلى التحفظ وحتى النفور، ومنشؤه شعوري الحاد بهيمنة الرتبة على
تلك الرسوم وافتقادها لعنصرَي الحيوية والتنوع. أما أن أصارح صاحبها
بملي النفس من أعمالها وتعب عينيَّ منها، فهذا ما قد يفسد حتمًا للود
قضية، ويعرّض العلاقة بيننا للضمور فالانقطاع. ودرءًا لهذا المآل، كم كنت
أمالي وأداري، وأنفق بلاغة في التهذئة والتفريخ، سيما وأني أشعر أن باطن
الخليلة بصدوع ما مليء، فألبي رغبتها في عنونة لوحاتها بتسميات تعجبها
وتطرب لها، منها مثلًا بعد الترجمة: المتبرجات، المحتشدات، المضطجعات،
المزاحمات، المقتحمت، الهاتفات، الثائرات، الطليقات، النائمات،
الحالمات... وذات مرة أرادت تسمية إحدى لوحاتها العطرات، فاقترحت
عليها رشّها بالعطر قبيل العرض وخلصه خلاله، فهللت للفكرة وصاحت:
«جينيال». كما أنني كنت لا أبخل عليها بكلمات تحبُّ وتودُّ تفيد طلبَ وصل
وجهي بمحياها الوضيء، وأنفاسي بأنفاسها المنعشة الزكية، لعلنا نولج معًا
وصالنا في ملذات الجدة والتجديد.

مساعي الحميدة لدى بعض أرباب قاعات العرض كانت تنجح إلى حدٍّ ما، أما
عزوف الزائرين عن شراء المعروضات، فلا حيلة لي ولا طاقة لتبديده أو
حتى تهوينه، ولو بمقتنياتي منها، أنا زبون صوفيا الوحيد. وفي المحصلة، بعد
كل عرض أسهر على كوكتيله وزينته، تمسي العارضة فريسة اكتئاب شديد،
لا يسعني كلامي الملاطف في تليينه والتخفيف عنها من وطأته. حالئذ
أترجاها أن تجمل بي وتؤجلني إلى يوم تكون فيه الأبرش والأبهى. وهذا اليوم

المرتجى - والوعتاه! - لم يبدُ ولم يُقبل. فما هي إلا مديّة تهاجر حتى دعنتني إلى إعلان ثقيل يفيد ترسيم القطيعة. ولو كنت فظًا غليظ القلب لما استجبت.

في اليوم المحدد قابلتها في بيتها، مصطنعًا ابتسامات عريضة. بوجه متعب، منقبض القسمات، ولسان يغلب عليه السكر أنبأتني أنني بروفتها الفاسدة، رجل ككل الرجال الطغاة المستبدين، وأنها تهجرني لا إلى رجل آخر، كما أكدت، بل إلى امرأة مثلها! ثم شرعت تهذي وتشاققني في أمور توافه وأخرى نسيتهما، فما كان مني إلا أن قمت وانسحبت من دون التّبسِ بنت شفة، عملاً بالحديث المأثور «رفقا بالقوارير». وفي مأواي تربعت على «الكنبي»، ارتويت من شرابي المفضل ودخنت سيجاري الأثير احتفاءً بفكاكي من صوفيا واستعادة حريتي وقدرتي على التنفس ملءً صدري وحواسي، خارجَ مرسمها الملوث جوّه بدخان سجائرها ورائحة أصباغها، بعيدًا عن تهمها لي بتقاعسي عن تسويق ما تسميه إبداعاتها. وبين الفينة والأخرى طفقت تداهمني صورتها وقصة شعرها الذكورية ولوحاتها الأثوية، وكذلك جعلتها عن هجري إلى امرأة مثلها...

الآن أعترف: إنني أمامها، هي عديمة الصدر، كنت دومًا قاب أصبعين من مساءلتها: أين يا أنستي نسييتِ نهديكِ؟

الآن أعترف: دائمًا كنت أراها بقصة شعرها القصيرة تلك، فأقول لا بأس ولا حرج لو لم تكن أفكارها كذلك بل أقصر. لهذا السبب الأخير، مرارًا فكرت في النكص عنها، وبالتي هي أحسن أهجرها. وكيف لا أفعل - فضلًا عمّا ذكرت - وسكوتها نفسه عن الكلام مكرهة قد كان يعقبه أُنّاثٌ وزفرات وآهات تتمترس بها خلف خدعها وخرافاتنا الذاتية، أو تدخل بها لغة الرمز والإشارات، وحتى لغة الصُّمِّ البُكم.

تنبّهت أو نبهني صوتي الباطني: أنت الآن تغتاب وتلمز صاحبك المنتهية عشرتك معها، فخير لك أن تمزق اعترافيك... مزّقتهما.

- هل تزوجت؟ كم مرة يلزمني الإعادة؟

أجبت:

- مش شغلك..

ألحت الصحافية في طلب الجواب.

رددت عليها بنبرة حادة:

- لا رغبة لي في الكلام... ما فيش فايده...

- هذا تكبر منك لا يُعقل!

- بل هذا مثل في التواضع ضربته لك، فافهمي.

دست حوائجها في حقيبتها وانصرفت غاضبة خابطة.

المرأة بالمرأة تُذكر، سألتني إعلامية أخرى بلهجة الاحتجاج لِمَ بالكاد تخلو كتاباتي من وصف الطبيعة بما تحفل به من جماد ونبات وحيوان. جوابي: ما لأجده معترضًا لطريقي بناديني أن أهبَّ إليه، لا آخذه على عاتقي إلا اضطرارًا، والبقية، وهي الأوفر، أتركها لمن في حومات الكتاب يخلخلهم بياض الصفحات وبرههم...

وعن سؤال آخر: والحب وآهاته وسهاده وأشجانه وآلامه وآماله ورسائله وهلم جرًا، ماذا عنه؟ وفي هذه المسألة لا أدري كيف أن قريحتي فاضت فأثيت بجواب مطول لم يبقَ منه في ذاكرتي إلا ما يلي: ينسحب جوابي ذاك على هذا، مع وجود الفارق... لكن ما دام الحب لم يتسلط عليَّ ويجعلني ويُنطقني كما لو أنني أول المحبين، فإني واضعٌ بيني وبينه ستائر التهادن والسلامة.

بعد مرور أقل من سنة، علمت من مصدر موثوق، بعد رجوعي من سفرة، أن صوفيا انتحرت شنقًا في مرسما حذاء لوحة غير مكتملة، ودُفنت في طنجة مدينة ولادتها. ذكرتني طريقة إنهاء حياتها والتي اختارها الفنان بول سيزان لنفسه، وكنت ذات يوم حدثتها عرضًا عنه بعد أن تعرفتُ على حياته بفضل اهتمامي بروايات إميل زولا صديقه.

وكم تعجبت لقدرتها على التقليد والمحاكاة حتى آخر رمق!

من باب توارد الخواطر، تذكرت بغتة حالة كنت وقتها حزنت لها. فهذا صديق قديم، اختفى تمامًا أو ربما مات بعد أن ترك لي رسالة مرعبة، يكفيني منها إيراد مقطع واحد فقط: قالت له خليلته أو خليلته، لا أدري: عشرتك تخنقني وتفسد الأوكسجين في حصتي من الهواء، أجاها: فلنفترق... ردت: لا فائدة. حتى وأنا بعيدة عنك، طيفك يلاحقني ويضرب بي. سأل: وإذن ما العمل؟ أجابت: الانتظار. أن نفوض أمرنا إلى الزمن حتى يفعل فعله فينا ويقلص

أملنا في الحياة ويطوبنا. قال: هكذا إذن؟ ردت: نعم... هكذا إلى أن يُصاب أحدا بما يُقعد أو يُميت. ثم استفسر: وقبل ذاك؟ أجابت: أن يصبر أحدا على الآخر حتى يقتله الصبر... علق الصديق مقاطعًا: بل أقتل الصبر وعلاقنا معًا، عوض الاستماتة في تلاعنا وتقاذفنا ملء حنجرتنا وما ملكت أيدينا.

والآن، ما العمل يا هذا؟

كثيرون في وضعك يؤثرون التمدد والاسترخاء، بعضهم على فرش وثيرة وأجسام طيبة منعمة ووسط ملذات شتى؛ وبعضهم على دوغمائيات وعقائد راسخة مريحة. وأنت تنأى بنفسك عنهم جميعًا. لكن ما العمل؟

ارتجّ السؤال مرارًا في صدري وخاطري.

«إذا لم تعلم أين تذهب، فتذكر من أين أتيت». عملاً بهذا المثل الإفريقي، وأيضًا بنصيحة الطبيب المسوقة أعلاه، القاضية بتمرين الذاكرة على الاشتغال والتصدي لما يتقوَّب نسيانية يتهددها. وفي هذا، لا ينتظرنَّ أحدٌ مني أن أتحدث عن أناي طولًا وعرضًا وعمقًا. وفعلاً، كما قد أكون قلته ذات كَرَّة، ما الجدوى من إتعابكم بالتعرف عليّ، سيما وأني أرغب في إبطال فتائل الكلام المتضخم المتناسل، الذي قد يفضي بي إلى ما لا تُحمد عُقباه وأتأذى به: أن أتخبَّط في أناي ذاك، وأعرضه على عيون السهو أو العمى مفصلاً، مشحونًا بالمعاناة والتداعيات والذكريات، وهلم جرًّا.

أمثالي كثيرٌ؛ لذا فمن السخف استيقافكم بدعوتي إلى المحادثة عني، متبجحًا أن هذا هو كل ما يهمني. قول - وحق ما تعبدون - لا أعبت منه ولا أتفهه! ومن سبق أن سألني عني وحاول التسرب إلى حدائقي السرية، سألته هل هو مؤمن، فإن صمت صمتٌ مثله وانتهى الأمر، وإن ردَّ بالإيجاب، ذكرته بالآية {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء...}، ثم طلبت منه البقية، فإن جاء بها دعوته إلى الاعتبار، وإن عجز عنها أتممت {إن تُبدَ لكم تسوؤكم} ثم صرفته.

لكن تحملوا مني هذا الاستثناء الوجيز الذي خلسته بين هلالين غليظين أحشوه، وهو عبارة عن أسئلة طوقني بها صحافي ثقيل الظل بشع الخلقة، فلم يكن بدُّ من أن أجيبه مكرهًا للتحرر منه، وبدوري أستاذكم وأستسمحكم بإلقاء أجوتي عليكم عساني منها أتخلص:

1- الصفة التي أحببها أكثر هي إجمالاً: الكرم السخيُّ الخفيُّ، وعند الرجل: المروءة والجرأة العارفة، وعند المرأة: الذكاء الجميل. / 2- أهم خاصياتي: بذل الجهد. / 3- الفكرة التي لديَّ عن السعادة: الصحة البدنية والذهنية. / 4- الفكرة التي لديَّ عن الشقاء: البؤس المعنوي. / 5- العيب الذي أرى أنه يُغتفر: السذاجة. / 6- العيب الذي أكره أكثر: العبودية المرغوبة. / 7- اهتمامي المفضَّل: القراءة والمشاهدة. / 8- الشخص الذي أبغضه: جورج والكر بوش. / 9- شعرائي المفضلون: امرؤ القيس، المتنبي، المعري، محمود درويش، سان جون بيرس، ريني شار... / 10- كتابي المفضلون: أبو حيان التوحيدي، طه حسين، فلوير... / 11- بطلي المفضل: عنتره وسبرتكوس. / 12- بطلتي المفضلة: عائشة أم المؤمنين. / 13- زهرتي المفضلة: الجُلنار. / 14- لوني المفضل: الأكل المخصَّب بالأحمر والأبيض. / 15- صحتي المفضل: السمك وأحياناً لحم الدجاج والفراخ أو المخ.

بعد ترك الاستطراد ذاك قيد قوسيه، هأنذا إذن كائنًا أروم التحرر الذاتي ما استطعت، وإن بدرتُ مني جُمل تعريفية أخرى، فلن تكون سوى من عفوِ خاطر وزيفه وفتلاتِ اللسان وتيهه، أو من فيض ما أعجز عن احتوائه بالستر والطمس...

هأنذا إذن منوط بمهمة التذكر والتفكير الكثيفين للحؤول دون غلبة النسيان عليَّ أو ركونِ خلاياي الدماغية إلى الخمول فالعطالة. صرت في ضيعتي أخص للمهمة بعض أطراف النهار ومن الليل أكثره، أتصيد الكلمات ملء أنفاسي، أضع ما منها ينطلي على أشياء أو يؤاخي أحاسيسٍ وانطباعات، ويكون عليَّ في المسك بها أن أسابق إلماعها البرقي؛ فحينًا أنجح وأحيانًا أرسب دونها، فأظل كآني علي شفا جرفٍ هار، أنتظر ما قد يجيء أو لا يجيء. وإن قسطًا من الليل أحجزه للنوم جلبًا لرؤى أبتغيها، وأكاد أقول أبرمجها بالتركيز الذهني، خدمةً لخطتي ومراميتها. ألسنٌ، ككثير من الأحياء، أقضي ثلث نصيبي من الحياة في النوم، فلا أقل من أن أنظر في هذا الثلث، وأقيم لمنسوبه وزنًا ولمجرباته ودلالاته عينًا.

يا ليلُ يا ليل!

كم مدحوك وفيك تغزلوا شعراً ونثرًا وغناءً! وقال بعض كبار شيوخنا: أحلى النكاح نكاح الليل. أما أنا فعلى عتبة كلِّ ليل، مقمرًا كان أم لا، لا يسعني سوى الدعاء لي باستحقاق القسم الإلهي (والليل إذا سجا)، فيلهمني من الكلم ما لا صنو له إلا في لحظات الانخفاف وال جذب، أو في تجليات الواردات والتأويل المقذوفة في الرأس والصدر.

يا ليلُ! يا ليلُ!

لكنْ للاضطلاع بالمهمة على وجهٍ أستحسنه وأرتضيه، لا مناص لي من إخضاع ذاتي لعملياتٍ واسعةِ النطاقٍ والعمق، تتغيا تطهيرها وتخليصها من فتوقٍ وعقائيل بقت عالقة بها علوق الغرائيات أو الجراثيم القواضم؛ وإلا فلا تكوثرَ (أي كاترسييس، يقول النفسانيون)، ولا تأهيل جسميَّ وروحيَّ، ولا استعدادَ ولا اقتدار. فتوقٌ وعقائيل ما زالت تُحدث لي حالاتٍ إرهاب، إذا خفت حينًا غلبت أحيانًا، وكانت لأطباء فيها قراءات، دلّنتني على أنها فيما يخصني تجانب الصحة وعين الصواب. وهؤلاء المطببون، الذين يزنون وقتهم بالترج والتأثيل المالي، ما كان يسعني أن أحشرهم في سجلٍ آخر غير سجلهم المعلم بالتعريفات والكودات ووصفات دوائية جاهزة.

أما سِجِّلِي أنا - وهو من صلب سجلنا التاريخي نحن الناس- معتلٌّ من جهة ماضينا الاستعماري المتحوّل في عهدنا هذا إلى هيجمونيا أخطبوطية تسعى إلى إحكام قبضتها على العالمين، كما على المجال الذهنيِّ والمعنوي وهو الأخطر، وهذا من خلال: تعويضِ ذاكرةِ المستتبّعين بذاكرةِ الأقوى؛ تهجين شخصيتهم بتأجيج الشعور لديهم بالدونية والفجاجة؛ تعويدهم على الإيحاء الذاتي بأن هوياتهم ولغاتهم عُملات بخسة أو قاصرة... وبهذه الإجراءات الحجرية الضاغطة وأخرى عملت إيديولوجيا الاحتلال المكشوفة بالأمس، وما زالت اليوم تعمل وإن باليات مؤدلجة متسترة ومتطورة أو أنها، إن شئنا استعمال صورة مجازية، تدير سياسة هيمنية بيد من حديد في قفاز من حرير. وفي هذا السياق يكتب سارتر في تقديمه الشيق لكتاب فرانز فانون معذبو الأرض: «إن العنف الاستعماري لا يريد إخضاع هؤلاء البشر المستعبدين فحسب، وإنما يحاول أيضًا تجريدهم من إنسانيتهم. إنه لن يدخر جهدًا من أجل أن يقضي على تقاليدهم، وأن يحلّ لغتنا محل لغتهم، ومن أجل أن يهدم ثقافتهم دون أن يعطيهم ثقافتنا، وبالتالي فإننا نرهقهم تعبًا».

صدق الفيلسوف الوجودي الألمعي، وضدا على تيارات معاكسةٍ عاتية. نعم، كما ختم، إن العنف الهيمني أرهقنا تعبًا وما زال...

كنت من قبل في فصل الخريف تحديدًا أصاب بإعياء متفاوت الحدة والمدة، فأحسه وأدركه لما أن ينقل عليّ حمل رأسي فيكون عليّ دعْمُهُ، متى اضطرت، إلى راحتيّ إن جلست، أو إلى وسادات إن تمددت. أنصح بعطلة أريح فيها دماغي. أخذ بالنصيحة. لكنّ مخي تظل خلاياه تعمل كدأبها دومًا، وحتى في غطساتي المائية أو النومية، كما في مشيبي وتسكعاتي. ويحصل

لي عندئذ أن أرفع عقيرتي إلى السماء صائحًا: يا خالقي من نطفة أمشاج،
إليك السؤال والمشتكى، فحقف ويسر.

أما تعبي اليوم حتى الإرهاق، فإنه من صنفي وصلب مغايرين، أحسه وألحظه
عند آخرين من الوعاة في بلادي. متعبون نحن من شدة وطء القطب الغربي
المستفرد والأقوى، حيث لا نبرز تحت ظلاله الكاسحة كذوات ومرجعيات
مؤسسة، بل، في الغالب الأعم، كمستهلكين أوفياء لسلعه ومنتوجاته،
وأدهى منه كمواضيع للاستخبار والبحث لا غير. وحاضرًا، تحت التأثيرات
المتضافرة للعولمة والفكر الأحادي، حتى هذا التوجّه أخذ يميل أكثر فأكثر
إلى أن يكون انتقائيًا، وظيفيًا ومنفعيًا، أي منشغلًا أساسًا بحقول الاستراتيجية
الحيو - سياسية والنفط والأصولية أو التطرف الديني.

«جريح دومًا، يقول إميل شيبرون، هو كبرياء إنسان متحدر من ثقافة
صغيرة». وأوغر جرحًا وأنكى هو كبرياء إنسان ينتمي إلى ثقافة كانت حتى
الأمس القريب عظيمة، وغدت اليوم عرضة للتخفيض والتبخيس، وهذا تحت
مرآصد الهيجمونيا الغالبة المزدرية، والمدججة بأعتى الأسلحة برًا وبحرًا وفي
الأجواء، وبأقهرها في مجالات الهيمنة الذهنية والمعنوية.

والأدهى والأمرُّ أيضًا أن تجد فئات من عرب الاسم المدجنين يطبّعون
الهيمنية ويذهبون إلى حد اعتبار التبعية في ظل العولمة قصة متجاوزة وغير
ذات مضمون، بيد أننا نستقرئ بالنظر الفكري والتجربة عكس ذلك تمامًا؛ إذ
إن الهيجمونيا سارية ولو على نحو ماكر متخفٍّ، ولكنها في إواليات الكبح
والحجر والتهميش بالغة الإجراءات محكمتها، لا يعنى عن إدراكها إلا من
مهروا في سلوكيات الانخداع والخنوع، وفي عرض كرامتهم للدوس،
وهويتهم للإيهان والنهش.

ولي على ما قدمته أدلة وقرائن سقتها في مدونتي، ووافقني عليها قراء
نابهن، منهم واحد عززها بتعليق هذا نصه: أفدت وأجدت، يا أخي، لما
سجلت: «من مظاهر الهيمنية المقنّعة المختلة لنذكر أيضًا على سبيل
المثال فقط: النمو اللا متكافئ واختلال علاقات القوى وعبارات التبادل على
كل الصعد وفي كل المناحي، كما بين الهويات والثقافات واللغات؛ ازدواجية
المواقف والمعايير التي ترفعها البلدان القوية، سرًا أو جهرا، إلى سدة
السياسة المتبعة أمام قضايا ومعضلات مجمل بلدان الجنوب، وعلى رأسها
القضية الفلسطينية»، انتهى قولك. أرجو أن تتقبل هذه الإضافة: لا مرأ أن
أمين معلوف مثلًا تمثل البعد التراجيدي لتلك المظاهر، وغيرها كثير، إلا أنه
في كتابه الهويات القاتلة لم يُبرز بما يكفي من الإظهار شقّ الهويات القتيلة

أو الجريحة، لا سيما وأنه في لحظةٍ صحوٍ نيرةٍ تساءل: «كيف لا ينشأ لدينا شعور بأننا نعيش في عالمٍ يملكه الآخرون ونخضع لقواعده المملة من لدن هؤلاء، عالمٍ حيث لا نكون إلا كالأيتام والغرباء والدخلاء والمنبوذين؟». وتبيانًا لهذا الوضع، كما لا شك تعلم، يدلي إدوارد سعيد بملاحظةٍ دالةٍ مفادها أن عموم القراء الأمريكيين لا يعرفون من التراث العربي كله إلا نصَّ النبي لجبران خليل جبران، المكتوب أصلاً بالإنجليزية. ولعل ما يغني عن الخوض في ضرب الأمثلة، التي يحيط بها أيضًا علمك الواسع، هو خطاب نجيب محفوظ إلى الأكاديمية السويدية ولجنة نوبل بمناسبة فوزه بجائزتها، فمما جاء فيه: «سادتي... أخبرني مندوب جريدة أجنبية في القاهرة بأنه في لحظة إعلان اسمي مقرويًا بالجائزة ساد الصمت وتساءل الكثيرون عمَّن أكون، فاسمحوا لي أن أقدم لكم نفسي بالموضوعية التي تتيحها الطبيعة البشرية».

وكان جوابي للمراسل: «شكرًا على تعقيبك ومعلوماتك المفيدة الدالة، وهي غيض من فيض. فمنطق الأقوى المهيم يربدنا منغمرين في مغموريةٍ معتمةٍ كاسحة. ووالله لقد عرفت من لم يطبقوا ضغوط هذا الوضع، فبعضهم انفجرت أحزانهم الموجعة بين سكرات متصلة وتلهيات صماءٍ مستميتة، وعرفت أيضًا شاعرًا ذا حساسية مرهفة اغتم لذلك كله وسواه، فكان ينزل إلى وديان موحشة ويطلق العنان لصرخات متواترةٍ جريحة، حتى إنني صحت به يومًا: أعرض عمًا أنت فيه يا هذا، واتقَّ العقل فيما لا يُعقل ولا يُقبل... وظل على حالته تلك حتى اختفى تمامًا وطال اختفاؤه ولم يُعثر له على أثر؛ فمن قائل إنه ذهب للجهاد في خطوط النيران المستعرة، لكن من دون تحديد الوجهة؛ ومن قائل لقد افترسته حيوانات ضارية ما بين أدغالٍ وصحاري نائية، وغير ذلك من الروايات الغريبة... وتحضرني بالمناسبة، مع وجود الفارق ولا شك، خاطرة لا أذكر الآن صاحبها، وهي: «ليس الموت بشيء ذي بال، لكن أن تعيش مهزومًا مغمورًا فهو بمثابة الموت الحقيقي، مقسَّطًا أو فجائيًا». وخلا الحالات الفردية، أفلا نظرت في وضع رجال من علية القوم، منهم محمد علي والي مصر (الألباني الأصل) الذي من باب المعاناة والتجربة تحت طغيان الإنجليز تخصيصًا سجل ما مفاده أن ممثلي قوى الغرب لا يريدون أن نشبههم بل أن نطيعهم؛ وكتب أيضًا: «إنني لست من دينهم، ولكني إنسان مثلهم وأريد أن أعامل إنسانيًا». انتهى ردِّي.

والجدير بالإضافة أن محمد علي هو الذي أوفد رفاعة رافع الطهطاوي إلى فرنسا، كدأبه في إرسال بعثات إلى بلدان أوروبية أخرى لمعرفة أسباب تقدم العلوم فيها. ولنذكر أيضًا، إن نفعت الذكرى، بحالتي سلطان المغرب محمد الثالث والوزير الأول الإيراني محمد مصدق وما قاسياه من محن وشدائد،

الأول مع فرنسا التي أجهضت مشروعه الإصلاحي التحديثي، والثاني مع وكالة المخابرات الأمريكية التي تأمرت على حكمه وأسقطته. وليس علينا جميعًا أن ننسى فظائع الاستعمار الفرنسي، خصوصًا في الجزائر، بحيث كان عبارة عن حركة إبادة لهويتها وثقافتها، تنصدها مذبحه سطيح الرهبة في حق جماهير من الناس خرجوا في مظاهرة سلمية للاحتفال بانتصار الحلفاء على ألمانيا النازية، وكان لمجنديهم فيه دور ناجع، وكذلك لمطالبة فرنسا بالوفاء لعهد القاضي بتخويل الجزائر استقلالها ما إن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، إلا أنها أخلت بالعهد، ثم امتنعت سلطاتها حتى اليوم عن تقديم أي اعتذار عن جرائم استعمارها الاستيطاني وفضائعه.

أتذكر إذن مع أقليات المتذكرين ذلك كله، وسواه أكثر وأفجع، منه على سبيل المثال لا الحصر: خلق دولة إسرائيل باغتصاب أرض الفلسطينيين وتشريدهم؛ العدوان الثلاثي على مصر إثر إقدام الزعيم جمال عبد الناصر على تأميم قناة السويس؛ اغتيال باتريس لومومبا بإيعاز من دول غربية للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها الاقتصادية في الكونغو كينشاسا وإقليمه كانتكا الغني بالثروات المعدنية، إلخ. والذين بنوا تقدمهم وقوتهم ورفاهتهم على نهب خيرات بلدان الجنوب واستغلالها ما زالوا حتى اليوم يأمرؤن الأحياء فيها جميعهم أن ينسوا تاريخ الاستعمار المعتم ويطووا صفحات أهواله طيًّا... لا، ليس عليّ - كمثّل الوعاة - أن أطيع الأمر وأمثل. قُدواتي الكبرى قضى أغلبهم، وهم رجال شداد، أحلامهم كالجبال، كانوا يشعلون الشموع ويحاربون الظلم والظلام: مهاتما غاندي، فرانز فانون، نلسون مانديلا، إيمي سيرز، عبد الكريم الخطابي، الأمير عبد القادر، المهدي بنبركة، وسواهم.

لا ثم لا للنسيان!

وللحيلولة دونه، شرعت أقرأ آثار أولئك الأعلام وغيرهم، أتسربل بأنوارها، أعيد شحذ ذهني وحواسي، وبها أجدد تحرري ويقظات وعيي.

ولا ثم لا لهذا الهوس المتزايد الذي بات يقضي بأن نتجرد من كلِّ ما نحن وما لنا، وذلك قبل الوقوف أمام الآخر القوي المزدان بكل ما كان وما يريد أن يكون. إنه هوس يطبع سلوكيات كل المنحليين المهزومين، أو الساعين حتى من بيننا إلى إتلاف قدراتنا الذاتية على إدهاش العالم والإسهام في تنويره. لذا، فمثلاً في ميدان عزيز علي: لن أصدق ميلان كنديرا - عكس ما يفعله كثير منا - حين زعم: «ليس للروائي أن يكشف حسابه لأيّ كان، إلا لسرفنتس». ومعنى هذا أن الحجر الأساس لجنس الرواية تمّ وضعه أو ربّما،

وبالتالي عالميًا في القرن السادس عشر مع رواية دون كيخوتي لذلك الروائي الإسباني الكبير. إن هذه المركزية الأوربية في هذا الشأن المخصوص (كما في غيره) بدت لي مبكرًا مبالغًا فيها، بل جائزة في حق ثقافات أخرى كثيرة غير غربية، ومنها الثقافة العربية.

لذا خدمةً لخطتي ولرغبتني في أن لا أكون عيلاً على الآخر المتغلب الأقوى، بثُّ أستحضر ما استطعت من المرويات في تضاعيف كتب الحوليات والأخبار الطوال وقصص السير والملاحم (عنترة، سيف بن ذي يزن، الظاهر بيبرس، تغريبة بني هلال)، علاوة على ألف ليلة وكييلة ودمنة وكتاب الأغاني، وغير ذلك كثير. وبالتالي، عليّ بتمثل أقوى تلك النصوص معنيًا وأجملها مبنًى، واضعًا إياها في سجل يفوق مستوى الإرهاصات والتلمسات الروائية، ويقرب من بروز مفهوم الروائي - الكاتب ورسوخ الرواية كمشروع قصدي وجنسي واعي بذاته وهويته، منتجٍ لعمله وأساليبه وشكوله.

وعليه، لن أكون قرين كتاب يقطعون دابر الصلة بالتراث المحصل الحي، باسم حدائث هشة مهزوزة، هي والعدمية السائبة على حدٍّ سواء، أو يذهبون إلى تعليل منزعهم بمقولة «المعيش» ويرفعونها شعارًا ودرقة، بيد أن التراث، أدبًا وتصوفًا وحتى فكرًا، إن هو إلا خزان المعيش بامتياز، وبالتالي فليس لأحد وصاية أو منوبول على المعيش، يخول له حصره في بوتقة الحاضر الآني، وتصريف الكتابة هوسًا وسيرًا ذاتوية.

وعلى أي حال، إليّ بالتخييل ما استطعت إليه سبيلًا، ساعيًا إليّ تضيق الفجوة أو مدّ الجسر بينه وبين الواقع، وبين الحدث والممكن. كما أنني أجوِّز لنفسي اللجوء إلى نوع من الكذب أصرفه لا بنية الإضرار والتشهير بغيري أو قلب الحقائق رأسًا على عقب، وإنما للتغلب على تعذر الخبر وعجزني عنه، أو قصد ذر الملح في مروياتي وتشويق قرائي (إن وجدوا). وأنا ممن يرون أن الكذب في الكتابات الإبداعية يتلون بالبياض ويفقد شحنته الأخلاقية الكابحة ليمسي هو أيضًا للتخييل والابتكار مرادفًا، والقصد: توخي إنجاز قيمتي الجمال والمتعة عبر إبداع الصور والمجازات والاستعارات والتشبيهات، وغيرها من وجوه البلاغة والبيان. ولذلك قيل «أعذب الشعر أكذبه»، وذهب الشاعر الفرنسي بول فاليري إلى الترخيص للمبدع بـ «اغتصاب التاريخ، شريطة أن يُنسله أطفالًا جُملاء». ولولا ملح الكذب بهذا الشرط وتلك المعاني لما حلق في ذرى الخيال الخلاق هومر الراوية الملحمي وهيرودوت ذو اللقبين: «أبو التاريخ» و«الكذاب»، وكذلك إلى حدٍّ ما ابن بطوطة رحالة العرب الإغرابي بامتياز، وماركو بولو الذي نعته معاصروه بصاحب المليون كذبة. نُفَعنا بهم وبغيرهم من بناء فنون الرواية

والسرد وسادة الإلهام والوهب، وهم لكذلك عند مَنْ هم مثلي في زمرة المريرين، وقبل هذا وذاك من المتأسين بالآية في سورة يوسف: ﴿تَحَنُّنٌ فَكُفُّ عَليْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَافِينَ﴾، وكذلك بالحديث النبوي: «ما من شيءٍ لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار».

والآن الآن وقد بدا لي أني تحررت ما استطعت من المنغصات والعقابيل، الآن الآن وليس غداً، عليّ بتدشين انطلاقتي إلى كائناتي طيَّ سرودي ومروياتي. شمريت على ساعدي. شربت قهوة التيقظ وطرد النعاس، أتبعثها بما تيسر من سوائلي الأثيرة، كيما أشخذ الميل إلى الحركة والتوهج. أخذت بين الفينة والأخرى أرش وجهي ورأسي كله بمزهرية حتى أفرغتها. ذرعت فضائي خطوات، مرة عجلي خابطة ومرة متأنيةً وثيدة. غلبت هاته على تلك ممدداً زمنها وصيغتها، لكن لا شيء...

لكن لا شيء!

لا نفسُ بدت ولا وجهٌ ولا طيف. بين مشي ووقوع خطر لي أن أقبض هذا اللا شيء من نواصيه أو صفائره وذيوله، وإذ تبينتُ أني أشخصه وأنقض ما هو عليه، ملت كل الميل إلى المجسمات الحية، المتحركة، الناطقة، المتواجدة، المتعالقة سلباً أو إيجاباً...

لا شيء!

هناك فلاسفة قالوا إن اللا شيء أو العدم، من كثر ما شعر الناس به وانشغلوا وتحدثوا فقد أوجدوه، وذهب كبيرهم مارتن هيدغر إلى افتتاح تفكيره بالسؤال: «لماذا الوجود بدل العدم؟». تباعدتُ عن ذلك ما قدرت، فقممت في وثبة حاملاً مقصاً قطعتم به شريطاً وهمياً، ثم هرعت إلى حديقتي وشرعت بالتهيؤ والترئيب أطوي مساحتها مشياً أو ركضاً، والريح قويةً تهب، فأحجم عن سبها لأنها، حسب حديث نبوي، من رُوح الله؛ وفي هبوبها عرضت ذاكرتي المعجمية للامتحان كيما تُعز أو تُهان. وهكذا، أنا عشير الكلمات وعاشقها، صحت عفو الخاطر بما منها جناسية عن لي: الفأر الفائز، الثور الثائر، البقرة المبقورة، النهد المتنهد، الشرفة الشريفة، القلوب المقلوبة، الرؤوس المرؤوسة، الأسباب السائبة، السكينة المسكونة...

بغته عمّت سكينه عادت معها الريح أدراجها، واعتكر الليل أكثر، فزدت في طيشي حلقة أمجد فيها أحد حروفي المفضلة في هذا الفصل الربيعي الذي أنا فيه، وهو الحاء الوارد سبع مرات في عنوان إحدى كتاباتي. هتفت بصوت

خفيض حتى لا أوقظ الخدم: كل الحروف حبيباتي، لكن لسبب طقسي ذكرته فإن أحبها إليّ الآن: حاء الحب والحياة، حاء الحرية الحاوية، حاء حواء والحسن والحياء، حاء الحرث والحق والحس والحوار، حاء الحبر والخلم والجلم والحيرة والحكمة، حاء الحميمة والحلاوة والحديث، حاء الحرير والحنان والحفاوة...

لم يوقفني عن الاستمرار إلا صوت الحارس يسألني إن كنت أطلبه في شيء. صرفته مطمئناً وعدت إلى بيتي، فيما صوت آخر ألفته يقول قبل اختفائه: لا شك أنك بقيت دون عقبة وزيادة، فانتشل أشواكك الأخرى وتحرر أكثر... أنظر الآن إلى وجهة مشرقك، فلعل وعسى...

وجهة مشرقي!

صحّ الصوت وصدق مولاه!

رجعت بي الذكرى إلى أيام خلت كان التراسل فيها، الخطي أو المرقون، سنة جارية في التواصل الحبي، الذي لا يفسد الاختلاف فيه للودّ قضية. كنت وقتذاك ثالث اثنين تتحاور في شجون وقضايا شتى، أغلبها سياسي أو أدبي. أخرجت بالمناسبة من إحدى جواريري ملقاً يحوي رسالتين للصديقين عدنان الجعفري وعلي عمور، وأخرى لي في موضوع العلاقات المغربية - المشرقية، وتخصيصاً منها الثقافية، أقتطف الآن عصاراتها.

كتب الأول بعد التحميد والتسليم:

هأنذا معك، يا أخي، بين فئات الوعاة، نرى بلاد المغرب قد عانت في الماضي ولا تزال من استهجان مشاركةٍ كثيرٍ، ومن عقدة تفوّق هؤلاء تجاههم، عبّر عنها الصاحب ابن عباد حين أطلع على العقد الفريد لابن عبد ربه وقال قولته التي سارت بها الركبان: «هذه بضاعتنا رُدت إلينا». ولا يفيد في شيء أن نجادل في هذا الحكم ونبطله لكونه صادراً عن كاتب ضعيف الجودة، قليل الباع، وزير جائر متسلط، صوره أبو حيان التوحيدي أبلغ تصوير وأوفاه في مؤلفه مثالب الوزيرين، وكان قد ذاق الأمرين من عنفه وجبروته إبان حكم البويهيين... صحّ أنه لا يفيد ذلك ولا يجدي؛ إذ إن غاية ابن عبد ربه من وضع كتابه بقيت حبراً على ورق، وهي إظهار أن بلاد المغرب، على قاصيته، له من العلم والأدب نصيب معتبر، بل إن صورة المغاربة، ولو بعد ذلك العهد، ظلت في المشرق تتسم بالاستنقاص والإهمال. وحتى مؤرخوه فقد وصفوه كأرض بدعٍ وضلالات.

المغرب أو المغرب؟ بلاد مغيب شمس المشرق. والشمس هنا ليست بالمعنى الحقيقي فحسب، وإنما بالمعنى المجازي كذلك، وعليه يكون القطر الذي تشحب فيه ثقافة المهدي العربي وأشعته وتضمرب بفعل المغيرة البشرية وبُعد الشقة... قطر لا يأخذ من التاريخ العربي الإخباري، المنجذب إلى المشرق، سوى حيزٍ يتيم أو ذليلي. إنه، كما نظر إليه مؤلف شرقي، يستشهد به المؤرخ السوري - المصري ابن فضل الله العمري: «من الإقليم الثالث صاحب سفك الدماء والحسد والحقد والغل وما يتبع ذلك». إنه إذن، كما سماه مع آخرين: «كمُّ اللباس».

في اتجاه مغاير جذريًا، عن هذا المغرب من أدناه إلى أقصاه سعى ابن خلدون، لحسن حظنا، إلى الكتابة عنه بقصد إبراز فروقه وتثبيت ذاكرته، ناقدًا المشرقيين ومتجاوزًا أدبيات الحوليين والرواية الانطباعية العجلى. ثم جاء كتابه الموسوعي الأشمل حاملًا لعنوان دالّ عريض ينص فيه على مصطلحي العرب والبربر...

وجاءت رسالة الصديق الثاني بهذا العنوان: وللشكاوى تاريخ!

أليس أقوى دليل، يا أخي، على اختلال عبارات التبادل بين المغرب والمشرق وتحيف هذا على ذاك يقوم في صك الشكاوى المتظلمة المعبر عنها من طرف أعلام وأقطاب مغاربة وأندلسيين من العهد الوسيط. فمن القرن السادس الهجري، هذا ابن بسام السنطوري، وليد سانتورين البرتغالية، يروم ردّ الاعتبار إلى عطاءات الأندلسيين والمغاربة المتميزة في مجالات شتى من آداب وعلوم، وذلك في كتابه الموسوم الذخيرة في ذكر محاسن الجزيرة؛ وهذا معاصره أبو الوليد بن رشد يقرُّ بفكرة وحدة العقل البشري، ومفادها أن العقل النظري كطاقة تحصيل وإدراك واحد لكل البشر، ولو اختلف في انتهاج سبله وأساليبه؛ وهذا في القرن الموالي الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، سقى الله أيامه ونعمه بالجنيتين، يذهب في «رسالة الانتصار» إلى عقد مقارنة جريئة بين الجناحين المغربي والمشرقي، حفظت منها: «فالحمد لله الذي جعل فتح المغرب فتح أسرار، فلا تُفتضُّ أبكار الأسرار إلا عندنا، ثم تطلع عليكم في مشرقكم تبيات قد فرضن عدتهن، فنكحتموهن بأفق المشرق، فتساوينا في لذة النكاح وفرننا نحن بلذة الافتضاض». أما ابن خلدون فإنه في هذا المقام أيضًا يكتب ما حفظت: «ويعتقد المشاركة التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية وبتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كَيْسهم في العلوم والصنائع [...] وليس ذلك بصحيح». وهؤلاء الأعلام لا يابهون لبلاد ماتاهم حين تكون بلاد موئلهم ومستقرهم عرضة للاستخفاف والإيهان.

أما في زماننا فقد ظل صنو تلك التظلمات ساريًا، كما نجده عند التونسي محمد الحليوي في رسائله إلى أبي القاسم الشابي، وعند علال الفاسي أيضًا، وبرزت القضية أكثر مع عبد الله كنون في مؤلفه النبوغ المغربي في الأدب العربي. وقصده من وضعه، كما يعلن عنه بكلمات لا أُتِين منها ولا أجلى: «ولعلي أرفع الضيم عن بلادي وأثبت مركزها في حظيرة العلم والأدب، على ما هو عليه مركزها في السياسة والحرب أو أعظم». إلا أن واضع الكتاب لم يبلغ القصد المراد ويجن الثمار المرجوة. وكيف له ذلك وإخوتنا في المشرق إجمالًا غير طالبين ولا مطلعين على بضاعات المغاربة المعاصرين وإنتاجاتهم، كان الواحد منهم يردد خفتًا مع صاحب ابن عباد قوله الواردة أعلاه، أو مع المتنبي «أنا الطائر المحكي والآخر الصدى». وإن اجترح بعضهم ذلك فبخصوص النزر اليسير، وبأذهان لاهية وعيون مستنيمة؛ أما إن تكّرم بعضهم بالحديث أو الكتابة عن شيء منها، فمسلكهم في الأمر الاختزال والابتسار، وربما بتحبير كلمات ثناءٍ وتقريظٍ معلبةٍ جاهزة، تصلح لأيّ كتابٍ صدر ومن حيثما ورد وأقبل... هذا وإنّ شخصيات منهم ما زالوا يسمون المغرب مراکش، ولا يتوقفون في إخفاء جهلهم بتاريخه ورجالاته...

ثم جاء سؤال الصاحبين إليّ بلسان واحد، يحثني على الادلاء بدلوي في الأمر. فبعد أن أيدتهما فيما ذهبا إليه أجبت بما يلي:

أمام مثل تلك المواقف الاستنقاصية والإهمالية بإزاء حاملي المعرفة والآداب من المغاربة، وما خفي منها أدهى وأوغل، كانت صورة يغمراسن بن زيان كثيرًا ما تحضرني، وهو مؤسس دولة بني عبد الواد أوائل القرن الثامن بالمغرب الأوسط، وهم زناتيون من بني عمومة المرينيين. وقد عُرف هذا الأمير بحكمته الحسية وحنكته السياسية، مكنتاه من استرجاع عاصمة ملكه تلمسان من الحفصي أبي زكريا يحيى، وذلك بتلبية شرطه القاضي بذكر اسمه على المنابر. فقال قولًا بليغًا يذكّرنا حقًا بعقلية الرعيل الإسلامي الأول؛ إذ إنه يُفرغ الدلالة من مدلولها ويردها إلى عراء وفقر دالها: «تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا»، كما أورده ابن خلدون مؤكدًا أن يغمراسن قال كلمته بلسانه البربري، ولم يُحفظ نصها الأصلي. أستحضر إذن ذلك الوجه النير، فأكيّف قوله لموضوعنا المحوري، متمغربًا بل متمزغًا أي نازلًا إلى عمق البلاد، وما أدراك ما العمق! وبدوري أقول: تلك أعواد مشاركة الزهو والاستكبار ينشرون عليها ما شاءوا. وعليّ أنا إزائهم بالتححر من أيّ تزلفٍ وأي اتباعيةٍ فجةٍ رعناء.

بعد اطلاعي على الملف ذاك، الذي لم تلحقه - لحسن حظي- أيادي الإتلاف، استطارني فرح كأني تخلصت من عبءٍ ثقيل. وضاعفه ما استطعت رفعه من تحديات سقتها أعلاه. لكنني سرعان ما ملت إلى لجم فرحي وحشره في حيزه المعقول، وذلك لكوني لم أنل بعد من التهيؤ والتشذر ما أطمح إليه وأرتضيه، ألا وهو الانتهاء بعالمي إلى نصٍّ لا صنوّ له؛ وأقول هذا لا من باب الغرور أو جنون العظمة، بل بحافز القصد والنية لا غير. وصيخ بي جوانبًا: ألا فاجعل ظاهر نصك كباطنه وتضمينه كتشكيله، طردًا وعكسًا، حتى إذا بلغت فيه درجة من التلاحم والرتق فائقة الجودة، عالية الشأن، أقدم عليه قراء، بعضهم من الاستثنائيين الساهرين له وعليه - وهم قلة - وبعضهم من العابرين الساهين المستنمين، وهم الكثرة. واللغة حاضنة هويتك وقطبها، إذا أوصيتك بها خيرًا، أنت خصيصًا، أكون نفلت ولغوت...

وكيف لا أصدقُ الصوت فيما قاله وفي اللغة، لغة الضاد، التي جعلت همي واهتمامي، منذ نعومة أظفاري، في تملكها على نحو سياديٍّ طليق. فهذه اللغة لو قُيِّض لها أن تموت (كما ماتت قبلها الفينيقية والكلدانية والآشورية والآرامية وورثتها السريانية) لكان لها ذلك على أيدي الأتراك والمغول، والقوى الكولونيالية الحديثة؛ كما أن هذه اللغة، خارج مكان ولادتها، صارت ملكًا لأكثر من ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة، ولها في العالم والمحافل الدولية وضع اعتباري مثنّى. والسر في مقاومتها واجتيازها امتحانات البقاء والارتقاء العسيرة لا يكمن في بنياتها الذاتية فحسب، وإنما تأسيسًا فيما أنتج بها وأبدع طوال قرون من تراث متعدد الآداب والفنون والعلوم، ومن لدن أقوام هم، عدا العرب والعرب المسيحيين والأقباط، الفرس والترک والترکمان والأكراد وبربر المغرب والأندلس؛ ولهؤلاء في ذلك شأن وشأو، ولهم فيه أقطاب وأئمة ثقات. فهل يحق لي أو لأي أحد غيري من البربر أن يسبّ الأسيلاف أو يخونهم لما أنجزوه لذلك التراث، هذا مع أنهم إجمالًا لم يكونوا خُلصَ الدّم والنسب؟ وهل من أحد فعل مثل هذا عند الأقوام الآخرين؟

إنما ليس من الصواب أن أخفي ما يحدث لي أحيانًا مع العربية من مشادات ذهنية، تبلغ أحيانًا درجاتٍ من الجدية والصدام عاليةً عسيرة، كما في استثناءات كتابة الهمزة وجواز الوجهين وفي الأضداد. فكم من جمل أشطبها ما إن أراها مشحونة بالفاظ أمجها أو عفى عليها الزمن، منها أن أكتب مثلًا: اخلوق، الرمس، الجمام، الديجوج والديجور، لو ترما، ركب الوعاء وذلك عوض ليت، القبر، الليل المظلم، لا سيما، أذنب؛ أما التعابير التي جرى بعضها مجرى الأمثال وأتحفظ عليها، فمنها: القشة التي قصمت ظهر البعير، جنت على أهلها براقش، عاد بخف حنين، تركته تغنيه الجرادتان... لكن عند

الضرورة القاهرة أتصفُ باللين والسماحة، فأترك بعض الكلمات الغربية تتسرب إلى نصي، وأختار من الأمثال ما يروقني ويشفي الغلة، منها: لا يعدم خابط ورقًا، لا حياة لمن تنادي، لا حياة لمن يضاجع الخوف، ويلُّ للشجيِّ من الخليِّ، وغير ذلك.

بعيد اجتياز حلقات السعي إلى التحرر من العقبات والعقائيل أضفت إليها حلقة أحسبها الأخيرة، وهي حلقة الأغيار من صنف الذين لا يسعدون ولا يهدأ لهم بال إلا بتصرف الشرور في أبشع صورها وأعنفها. سيرتهم بالمساءات والطعون الظلامية زاخرة وبالغل والضعينة. معهم ومع أشباههم المتمرسين في تحريك المياه العكرة، من دروعي لاتقاء ضرباتهم السافرة، وأغلبها خفية، هذا البيت للمتنبي: «وأنَّ المشير عليك في بضلة / فالحرُّ ممتحنٌ بأولاد الزنى»، وهذه الحكمة للسكندري: «لا تصحب من لا تنهضك حاله»...

أما الشعور بدنو وضع النص الناجم عن حمل واختمار عسيرين، فأعرفه في سيلان كلمات على لساني شآبيب، كاللمع والواردات؛ وهذا ما تبقي منها بعد أن سابقتُ برقها وحبرته: حيال علو الجليد وانتكاس الشמוש، حيال اندلاع القُرِّ والفتور بين النفوس، ليس لي يا خالق العناصر الأربعة، ليس لي ما أعطيه إلا بقايا من مكامني اليانعة، أو من أكمام دفتي خافقة متنطعة...

ذاك ذاك ووالله لقد رأيت رأي العين ما حلمت به من بعد ذات يوم، وهو:

~ رأيت شفيتين لاحمتين شيفتين تبرزان ملءً حسنهما في وجه فاتن وضيء، تحركهما تارة قراءة كتاب أنيق، وطورًا امتصاص سيجارة رقيقة، دخانها أرق، بيعت من علقت عيناه به على دوار لطيف أو طمانينة عجبية... مع كثر الأيام نسيتُ الوجه والكتاب، إلا الشفتين اللتين ظلتا في فترات ما من الفصول البهية تطلان عليّ أو تدنوان. وفي مرة رأيتهما، فيما يرى النائم، ترفرفان قريبًا من وجهي، ثم تتحولان إلى نهدي يمدُّ حلمته للرضع. وإني استجبت فرضعت - كم رضعت! - ولا لوم على الحالم الطائش المتهافت.

~ أن تُعجب بوجه جميلة تستسلم لنوم خفيف أو عميق، أيُّ متعة هاته للعينين وكل الحواس!

هل جاء المخاض الإلهامي واتسعت الرؤيا؟

هل أنادي: حيَّ حيَّ على القصِّ، حيَّ حيَّ على النصِّ؟

السؤال والنداء في فمي وصدري ترجرجا، ولا مجيب، لا مجيب... راودت نفسي بأقصى الوداعة واللين، همستُ لها: هلمي بنا يا أطف جوهري إلى القصّ فالنصّ، هلمي. وإذ لا استجابة ولو بعد طول ترقّب وترصّد، عنّي لي أن أوكّل لخاطري أمر وصف حال احتباسي وجفافي، فسمعتني أبتّ كلماتٍ متقطّعة قصارًا: والسّماء وما بناها وزينتها، إنّ من الدقائق والمطايا، ومن اللّمع والخفايا، ما إنّ أدنو من جماها، حتى يُضرب على صماخي، فأبقى وحيدًا أبرططُ كالأبله المخمور، أو أصيحُ السمع لجنّيات البحور، يصقّرن كثيرًا، ويولولن للطعن في رضوخي...

ودارت أيام جدباء موحشة، جعلتُ خلالها كفايتي في أداء أفعال حياتية ضرورية، أضفتُ إليها فعلي القراءة والرياضة البدنية. وذات فجرٍ مطلّ، ناجاني ذلكم الصوت الخفي قائلاً: في زاوية صخرية أو غابوية، لا لغطٍ فيها ولا التباس، اجلسْ كما تشاء، واضعًا رأسك مُدّدًا خارج أسوار الدّبّ والدّحاس، ثمّ فكر مليًا في دوائر الزمان على الخلائق، حتى إذا لويت على معنى دقيق، وسرّ حقيق، حرّره على ورقٍ صقيل، بقلم رقيق. وإن لم تستطع، فاجهر بما في صدرك يمور، بين كهفٍ بصمته يفيض، وغابٍ بالشجر لا بالناس حفيّل، ثم انتظر ما قد يأتي...

على ذينك الموثلين ومثيليهما في ضيعتي، ترددت مستحلّيًا الإقامة وطعم الخلوة. والآن، من محاولة إلى أخرى، الحقّ أقول: صدق الصوت وصار صداه يصدح في صدري صافياً مترنماً، إلى أن تصرّم وانقطع ما إن أخذ الغمّ ينكشف، والفتوق تفل وتلتئم، والسطور والجمل تجمل بي، مبشرةً بليتها ونمائها النوعي المطرد، ولا قوة إلا بي وبما أريد، وباقتداري على إيقاظ همتي وشحد خاطري وتشغيل مقدراتي ما بدا لي منها وما بطن...

حيّ على القصّ،

حيّ على النصّ،

حيّ على الرواية...

فتاة ثلاثونية تقريبًا، في غاية النحول، لا تكاد تُلاحظ إلا إذا من الأعماق تنهدت أو سعلت. وما أكثر ما كانت تنهد وأحيانًا تسعل! وكالفراشة هي، تهفو إلى نورٍ، وحدّها بالذهن تدركه ولا بالبصر تراه.

في حياة رقية بين شغلها بطنجة، كمنظفة الغرف في فندق راقٍ، وبين أعمالها في مسكن بحي شعبي مع أمها العجوز الضريرة، كل العوامل والظروف السالبة كانت من التكالب والحدة بحيث ترشحها للإحباط القاسي فالانطفاء المهل أو الفجائي.

مع الناس، على قلة من تضطر إلى رؤيتهم، أو حتى مع نفسها، بات الكلام يُتبعها، بل أحيانًا يلسعها لسعًا، فكيف السبيل إلى جعل الصمت سلسًا بليغًا، لا ضاجًا ولا ثقيلًا؛ صمتٍ ذي حصص تتلوها أخرى من صلبه وصميمه، شبيهة بمِنوعاتٍ صادرةٍ عن لغة الصمِّ البكم أو مرتادي أعماق البحار؟

إنما مشكلتها الشائكة الأشرس كانت تثوي في لمزٍ وطنزٍ شريباتٍ لئيماتٍ خبيثاتٍ، كنَّ يقلن لها بالفاظ متنوعة والسَّمُّ واحد: لو وُجدت مباراة ميس موند الدمامة، لنلت التتويج فيها أو لوصلت، على الأقل، إلى التصفيات النهائية.

كيانها المتعب لا تزيده صورتها إلا هشاشة واضطرابًا، تغذيها مرأتها ومرايا مقر عملها، وفيها ترصد وتحصي عيوبها كامنة في الوجه، لكن دون الصدر والقد؛ تجاعيد على الجبين؛ شعرٌ مجعدٌ شائك، نادرٌ في صفيحة صلعاء؛ أنفٌ بالغ النتوء، معوجُّ الشكل، غلط العظم، منفرط المنخارين، هو والاتساق ضدان، إذ يصيب العينين بضيق في الحيز ملحوظ، وكذلك يفعل بالفم؛ أنفٌ ورثته عن أبيها الذي لم تأسف لموته منذ عقد، مخلقًا وراءه فقرًا مدققًا وصورًا عن عنفه وعربدات كحوليته.

لكنَّ العجيب حقًا والجميل عند هذي الفتاة المهانة، السيئة الحظ والتقويم، أنها دأبت على إظهار عدم اكتراثها لما طمستها به الطبيعة والطبخات الجينية القاهرة، فتغالب ما استطاعت الشعور بالنقص والقنوط.

سمرتها التي تحسبها بعض زميلاتنا سوادًا، كانت تتأسى لقبولها براءة عبد الحليم حافظ «يا سمر يا سمراني»، تنصت إليها أثناء فراغها وتُردها جهراً أو همساً وقت اشتغالها. هذه كانت حيلتها للتخفيف عن نفسها المرهقة؛ ولها

أيضًا في ذلك حيلٌ أخرى، منها أنها أمهست مع كثر الأيام تضربُ قدرَ الإمكان عن مقابلة المرايا حيثما وُجدت، وتغطي رأسها وتضع أحيانًا في الخارج نقابًا أبيض من عادة الشماليات المحافظات التلثم به. نقاب هو عندها لمن سألها بمثابة واقٍ طبيٍّ ضد التلوث؛ أما نظرات الآخرين إليها، عجلى أو مشفقة، فلم يكن لها بدٌّ من تحملها حين لا تستطيع تجنبها.

الصلاة كانت قرّة عينها. من دون تبجح ولا مباهاة تؤذيها، بحكم الضرورة، مجتمعة قبل نومها، وتُتبعها بحزمة من الأدعية. كما كانت كلما وسوس لها الشيطان بتعجبه من صلواتها لمن خلقها شوهاء، إلا وصدته بالنوافل والتراويح خاسنًا متعثرًا.

مَن لا يحيِّي في هذه الأنتى العزباء شجاعته الفائقة وصبرها الجميل، مَن لا يُعجب بتحملها لمأسٍ ومحنٍ شتى، فهو إما غبيٌّ لكيع أو عنصريٌّ لئيم، بل هو هذا وذاك أو أكثر.

نادرةُ الحدوثِ هي المعجزات!

بعالمها لم تكن تربط رقية إلا أغنية «أنا عايزة معجزة» لوردة الجزائرية. لكن الأقدار وربما قراناتٌ فلكية غيبية أبت إلا أن تنعم عليها بكرامةٍ عظمية ما حلمت بها أبدًا في النوم ولا في اليقظة، كرامة نزلت لحسن الحظ بدايةً عطلتها السنوية. ففي لقاء دعاها إليه طبيب جراح عرض عليها إخضاعها لعمليات تجميلية يسدّد فاتورتها محسنٌ يفضل عدم الكشف عن هويته. فقبلت شاكرة ممتنة، وكيف لا تقبل؟ وبعد فحوص وتحليلات مختبرية كانت عبارة عن «تشيك أب»، ها هي الميمونة الطالع تخضع لعملية جراحية على الأنف؛ وها هي بعدَ مدة تتلقى على مدى أيام حُققًا سائلة لتلين تجاعيد جبينها وتقوية نسيج شعرها، متبوعة بحصص الدلك والترطيب.

ويوم حل موعد تخليص المرّمة من ضمادة أنفها، عملت مجملّة على تزيين قسماتها بماكياج لطيف لإخفاء ما بقي من أثر الرضوض، ولكحل عينيها وتوريد خديها وجلد محياها. ولما حان وقت إطلاعها على وجهها الجديد، أغمضت جفنيها خوفًا من تلقي صدمة التغيير، ثم بتشجيع من المساعدين فتحتهما راميةً المرآة، فأجهشت للتو بالبكاء من فرط الذهول والبهجة، وانقصت على يد مصلحها تقبلها، وعانقت مَن حضر من طاقمه، فهناؤها جميعًا مصفقين.

القسم على أن لا تسأل أو تبحث عن المحسن إليها أدته ويدها على المصحف أمام الطبيب في مكتبه. وقبل أن تعيد تقيله على كتفه تعبيرًا عن

عرفانها وامتنانها، تسلمت منه ظرفًا قال إنه من المحسن ذاته، ثم أذن لها بالانصراف وهي في غاية الدهش والانفعال.

في الطريق إلى مأواها تزيّت مجددًا بنقابها، وهرولت مكبّة على وجهها، يستخفها الفرح، ويمور ذهنها بأسئلةٍ وخواطرٍ شتى. وفي البيت، والنهار دان من العصر، ألفت أمها خيرة قانتةً مصلية، فتوضأت وصلت خلفها، ثم أنصتت إلى دعائها المعتاد أن يسهل الله لابنتها البارة في شاب من أولاد الناس، يتزوجها حتى ترى بنور قلبها أحفادها قبل وفاتها. وبعد ذلك تغدت البنت مع والدتها راضية مرضية، متجنبة أيّ احتكاك لها بوجهها قد يجعلها تسمع منها: فين أنفك يا رقية؟

«نعم، أين أنفي الدميم وتجاعيدي وشعري المجدد؟ رمّمتني يا أكرم الناس وأحسن ترميمي». بهذا تناجي المرممة المجلّة نفسها صبح مساءً، وهي تلعب مع مراتها لعبة الظهور والتواري، سواءً اختلت في غرفتها أو آنست أمها. المرأة متوسطة الحجم، صقيلة ناصعة، لا يمكنها أن تكذب، خصوصًا في وضح الشمس أو تحت ضوء وهّاج. التحسن في خلقه الوجه بادٍ لا غبار عليه، قسماته أمست من التناسق والملاحة بحيث يتيح لها الظهور به سافرًا من دون أيّ خجلٍ أو تحرّج. هذي انطباعات وخواطر كانت تدور بخلدتها في البيت، كما حين تخرج على هيتها المعتادة للتسوق وقضاء أغراض أخرى. ومن باب التحوّط، وحتى إشعار آخر، لا تريد أن يلحظ أحد ما طرأ عليها من تغيير، وذلك ليس قبل أن تمتص مع الوقت حدث التصليح وتأنس به. حدث هائل إذن استبد بفكرها وحواسها، فألهاها عن الطرف الذي تسلمته من الطبيب. ولما تذكرته عرضًا وفتحته، فاجأها كثيرًا ما رأت فيه من أوراق مالية وافرة تتقدمها بطاقة مكتوب عليها بحرف الحاسوب «يحسن أن ترحلي إلى رباط الفتح حيث ينتظرك عمل في فندق فرح. وفقك الله وسدد مسعاك». فكاد يُغمى عليها من شدة الدهشة والحبور وهي تعيد القراءة مرّات، وتشهد النعم تغمرها مكلفة بفرصة تلبية رغبتها في الذهاب بتكوينها التعليمي إلى ما بعد الإجازة.

من حدث التصليح إلى حدث الجميل المسدى إليها من محسن جواد أقسمت ألا تسأل عنه وتبحث، لكنها رغم ذلك لن تفقد الأمل في أن يظهر لها يومًا ويشخص بنوره المشع، ولو لوقتٍ عابرٍ يعقبه الغياب والهجر. من دون إبطاء ولا تلكؤ بعثت إلى مدير فندق عملها رسالة استقالتها مشفوعة بعبارات الامتنان والشكر، ثم أخبرت أمها بقرار الرحيل، متعللة بكون جو طنجة لا يوافقها، فلقيت منها ترحيبًا معزّرًا بالمثل: تغيير المنازل فيه راحة...

قبل متم الأسبوع الجاري، تصدقت الراحلة بكل متاع بيتها على جمعية خيرية، إلا من حوائج شحنتها في شنطة كبيرة جرتها بيد ومسكت أمها بأخرى، فتوجهت معها بالتاكسي إلى محطة القطار للتوجه إلى الرباط. وهنا كشفت عن وجهها واكترت غرفة سفلية في فندق متواضع، ثم في صباح الغد قصدت فندق فرح حيث طلبت مديره، ففوجئت بحفاوة استقباله لها وإبائها أن الموصي بها خيرًا يريد التنستر على اسمه، ثم أطلعها على عملها كرئيسة للمنظفات براتب يفوق راتبها السالف بالضعف، ويضمن لها التغطية الصحية وكراء بيت في المدينة القديمة قريب من الفندق. أجزلت للمدير الشكر ووقعت عقد الشغل، يسري مفعوله بدايةً الأسبوع الموالي. وقبل أن يودعها كلف من يعرّفها على الطوابق وطاقم المضيفين والمنظفات...

في الأيام الخمسة التي تفصلها عن بدء عملها، تمكنت رقية بفضل شهادة عملها من كراء شقة واطئة صغيرة مؤثثة، وشراء عصا إلكترونية لأمها، تقيها من العثرات والسقطات أثناء حركاتها مشيًا، كما كان يحصل لها من قبل؛ ثم إنها فتحت حسابًا بنكيًا أودعته هبة المحسن الغائب. وفي كل هذا وسواه من المبادرات والإجراءات، كانت ميمونة الطالع تشعر أن طريقها ميسور وبالورد مفروش، فتتصدق بما تستطيع، وتجوّل أمها الفرحة في بعض أرجاء المدينة القريبة، وتذكر معها الله وتشكره كثيرًا.

في مساء الغد بعد أداء صلاة العشاء وجلوس البنت وأمها للاقتيات، خيم بينهما صمت من الصنف الذي يسبق الجهر بأشياء ينوء بها الصدر والخاطر. بادرت خيرة إلى وضع مصحف بين يدي ابنتها واستحلفتها على أن المال الذي تحوزه وتنفق منه مال حلال. استجابت المستحلّفة وأخذت تروي ما حدث لها خلال الشهور الماضية، وأقسمت تلقائيًا أنها لا تعرف أي شيء عن المحسن إليها ولم يسبق لها أن رآته أو كلمته. أمرتها الأم أن تقترب منها وتضع رأسها على حجرها. أطاعتها وسمعتها تقول وهي تتلمس وجهها:

- العمى أصابني على كبري والحمد لله... ما ريتك هذي سنين، لكن صورتك ثابتة في راسي... ببصيرتي شعرت بما جرى لك وأنت صادقة معي في كلامك.. وجهك أحبين مما كان، واللي وقف معك وحنّ عليك، يا ربّي زد في خيرو وخميرو وعلّي شانو وميزانو.. وانت يا بنتي الله يغطيك بالرضى والستر، وينور حياتك وطريقك، ويكون منك الزرع والرّبعة، ويجب لك رجل يساعدك ويحميك، ويعطيك الذرية الحسنة.. قومي دابا تنامي، راه غدا عندك شغل كثير...

كانت رقية تردد: يا ربّي آمين، وتذرف بين يدي أمها دموع التأثر والاستبشار.

في صباح اليوم التالي، استيقظت البنت باكراً، استحمت وتنظفت، مشطت شعرها، زينت وجهها بماكياج خفيف، ارتدت أجمل فساتينها، تناولت فطورها ثم غادرت البيت تتبعها أدعية أمها الحارة.

المسافة المؤدية إلى مقر عملها الجديد قطعها راجلة، سافرة المحيا، متنفسة ملء أنفها الجديد وصدرها الفاتن هواءً يوم ربيعيّ ريان، ترمقها في زحمة المارة عيون شباب جاّدين يقاسمونها الوجّه، وأخرى لبوهيميين وعاطلين، يقتلون الوقت على سطوح المقاهي أو مقاعد عمومية...

أيام قليلة كفت رقية لإحسان تدبير وظيفتها الجديدة وربط علاقات ودية مع مستخدمي الفندق عامة ومنظفات الغرف خاصة، اللائي هنّ تحت مسؤوليتها ويسموننها الرايسة المليحة، فلا تلجأ معهن إلى الأمر والنهر، وإنما تدفع بالتي هي أحسن، بالنصح والتحب، سيما وأنهن مثلها فقيرات، حاملات للباكوريا أو أقل، فيما هي تحمل الإجازة في الآداب؛ منظفات يقنعن بعمل يوفرنهن رزقاً جلاً وبصون كرامتهن. وكلهن يعلمن أن استقامتهن الخلقية رأسالهن وشرط بقائهن في الخدمة. وتذكرت رقية في هذا السياق مديرها السابق بطنجة وما عاناه مع مستخدمات جميلات زائعات، يهملن ارتداء الصدرية ويكثرن من المساحيق، فلم تكن تنفع معهن تحذيراته فيضطر إلى إعفائهن، ومن ثم أمسى يفضل عليهن المستقيمات النظيفات ولو كنّ دميمات، كما كان حالها. أما الآن وقد تحسنت خلقتها فإن حرصها على السلوك الحسن أضحي مضاعفاً، فلا اكرثت بأعين الرجال الرامقة، ولا بأساليب محترفي التحرش والغواية.

في الخارج، علاوة على شباب الزقزقات والتصويتات العابرة، لم يكن يزعجها حقاً إلا شاب وسيم، حسن الهندام، أخذ مرة ثم أخرى يمشي خلفها في الطريق الواصلة بين الفندق وبيتها، يغني بكلام الراب، وحين تلتفت إليه مستنكرة يتابع غناءه قائلاً: «أنا حمدان بن بلال، ما طالب غير الحلال. الحُبّ والحَبّ، والله يلاقينا في الصواب، يا مليحة الوجه وزينة القدّ والخصال...». تكتّم المتغرّل فيها ضحكها، تجدّ السير نحو مقصدها بعد أن تتخلص من تابعها برفع عقدة يدها في وجهه.

تجدد فعل الشاب مرات، وفي الأخيرة، ورقية تجوّل أمها في شوارع وقت اكتظاظها، شبك ذراعها بذراعها، وشرع بلغة الإشارات يعبر لها عن شغفه وتعلقه بها، فلم يسعها سوى تحمله وبذل جهدٍ للنظر إليه وفهمه، فيما الأم تسأل قلقة: واش معنا الغاشي؟ فتجيب البنت بالنفي وتطمئنّها. مروراً بحديقة حسان نعتها المسمى حمدان وأفاد بالإشارات أنه يكون هناك في

انتظارها غداً حوالي السادسة بعد الزوال، ثم حرر ذراعها وانصرف باعناً بشفتيه قبلات هوائية حارة.

في الغد قبيل حلول ساعة الموعد، تزينت رقية بلباسها التقليدي وبجباب، وزينت وجهها بماكياج خفيف، ثم قصدت الحديقة متأخرة ببعض الوقت للتعبير عن ترددتها واختبار صبر منتظرها الذي ما لبثت دعوته إلا لكي تنظر في مبتغاه ونواياه. وعن هذا وتلك سألته بعد السلام، فجاوبها، وهما يمشيان، بكونه إنما يريد تحسين دينه بالزواج على سنة الله ورسوله، لكن ليس قبل تحديد الحثيات وبعض التفاصيل؛ وإذ سألته عنها دعاها إلى مقهى الحديقة للكلام فيها. حول كأسى برتقال بادلها معلومات تعارفية عن الحالة المدنية والمهنية، فعلمت أنه أعزب، حاصل على إجازة، يشتغل مؤقتاً في شركة «تويوتا»، قطاع التسويق. لم تجرؤ على طلب ما يثبت معلوماته، سيما وأنه، وهو ينظر في آتاه الحاسبة، فاجأها بطلب الكشف عن راتبها الشهري حتى يضيفه إلى راتبه هو لتقدير طاقة الراتبين على مواجهة الإنفاقات ومستلزمات الحياة بالتساوي والمناصفة. كل شيء، قال، فيفتي فيفتي، حتى الذهاب إلى المقهى والمطعم والسينما فيفتي فيفتي. كانت على وشك الانسحاب لولا أنها أثرت مجارة الحيسوبي والوقوف على بيت قصيده. أعلنت له نصف أجرتها، ففغر فاه مندهشاً وكرر قائلاً: هذا لا يكفي... وقطعاً لأيّ استخبار آخر أوضحت أن راتبها الحلال يكفيها وليس لها دخل غيره. طلب منها رقم هاتفها فامتنعت، أدت ثمن مشروبها وهرولت في اتجاه منزلها، فلاحقها قائلاً: خليني أشوف وأفكر. لكن أكون معك صريح. الحُبُّ بلا الحَبِّ ما يصير. أزمة الزواج كايته ومتكاثره. سولي البنات إذا كنت غافله.. إيه وأنا الزوجة المستعملة يعني دوكازيون ما عنديش معها.. قولي رايك بلا شك عذراء؟

وبعد ذاك، لم تعد ترى أثراً لصاحب الحَبِّ لا الحُبِّ.. في طريق عودتها إلى البيت حدث أن استوقفتها شابة ادعت أنها عرفتتها في طنجة وقالت: سبحان الله! هل أنت رقية؟ لك قامتها وصدرها. وجهك وحده تحسن، وإلا الشبه مئة بالمئة... فأنكرت وردت قبل أن تعاود سيرها: وأنا أعرف واحدة تشبهك مئة وخمسين بالمئة...

بعد شهرين، من مال المحسن الفاضل اشترت رقية دراجة نارية ولأمها كرسياً جرازاً، فصارت تستعمل هذا في النزعات القصيرة والسكوتر في الأطول. وكم كانت خيرة تسعد بالركوب خلف ابنتها وخوذة الوقاية على رأسها، فتشتم الهواء ملء صدرها وهي تدعو للسائقة بخير دعاء. وكذلك كانت حالتها حين تذوق طعم الجولات في المدينة متربعة على كرسيتها

المريح، تدفعه بعناية فائقة وليدتها الصالحة. وذات مرة وهما في إحدى هذه الجولات دنا من البنت شاب الحَبِّ والحاسبة، فناوشها بكلمات يغميها سعد لمَجْرَد: مال حبيبي مالو/ علاش تغير حالو/البارح كان يبغيني/ ياكما شي حدُّ في بالو... فهشَّت الأمَّ عليه بعصاها وأمرته أن يزهب. وحين التفتت المعنية بالغزل وراءاً لمحت رجلاً ذا معطف وبريه يلوي على ذراع المتحرش ويبعده كأنه يقوده إلى مخفر شرطة. ومن وقتها لم تعد ترى له في توالي الأيام حسناً ولا أثراً.

وذات يوم خريفي ذي سماء غائمة وجو مضطرب، وقعت لرقية وأمها الراكبتين على السكوتر حادثة في الطريق الواصل بين الرباط وسلا، إذ لامستهما جانبياً سيارة من دون أن توقعهما أرضاً، فتوقف السائق فوراً وأجزل لهما الاعتذار عارضاً خدماته، وعدَّدها: إجراء فحوص طبية على أرجلهما، تعويضهما بما يريانه مناسباً، إصلاح الدراجة. طمأنته رقية على أن كل شيء بخير ولا حاجة لأي خدمة. لكنه ألح على الفحوص، سيما وقد لاحظ أن الأم ضريبة ومسنة، فأخذها معه في سيارته ولمَّا تخلع خوذةها، والتمس من البنت أن تتبعه، فكان لهما ذلك في مصحة حديثة. وحين تأكد الرجل من أن النتائج حسنة، أدى واجبات الفاتورة وعبر عن سعادته بسلامتهما، ثم تبادل مع رقية رقم هاتفها للتواصل إذا اقتضت الضرورة. وبعد ذاك قبَّل رأس الأم وانصرف.

لم يمض على تلك الحادثة أسبوع حتى هتف الرجل مستأذناً الآنسة في زيارة ودية، فقدم محملاً بباقة ورد وسلّة فواكه وعلب حلوى وشوكولاتة. جلس جنب العجوز يطعمها ببعض ما جاء به ويترجأها أن تدعوه له، فلَبَّت وما بخلت وما قصّرت، ثم طلبت منه اسمه وسنه وشغله، فأجاب: عدنان الهيثمي، خمسوني، من أب تركي وأم شامية، زوجتي الإيرانية توفيت منذ سنة ولم تلد، عملي جوّال وكاتب.. حدقت رقية في عيني الزائر الزرقاوين، سألته جاهشة بالبكاء: هل هو أنت؟ وضعت خيرة كفها على رأس الرجل وحكّت جلده قليلاً ثم قالت وفي فمها شوكولاتة: صيحي يا بنتي بالتسأل وعاوديه. فارتمت البنت بين ركبتيه مقبلة يديه، مرسلّة دموعاً حري، سائلة بصوت عال تارة ومتهدج طوراً فيما هو يداعب شعرها: أرجوك سيدي هل هو أنت؟ هل أنت هو؟ قام الرجل وانصرف على عجل وهو يحيي ويشير بسبابته أن لا.

مع تحسن الحالة المادية أخذت خيرة تعبر عن رغبات تسميها «شهوات آخر العمر»، يأتي على رأسها، عدا خرجات التنزه والترويج عن النفس والمذيع والتلفزيون، الذهاب إلى السينما. في أول مرة سمعت رقية هذه الرغبة

الجديدة نَدَّت عنها ضحكة سرعان ما خنقتها. وإرضاءً لأمها أقدمت على مصاحبته إلى إحدى القاعات وسط المدينة، متخذة كل الاحتياطات حتى لا يلحظ أحد أنها عمياء، كالتشفع بالهزيع الثاني من الليل، والتأخر في ولوج القاعة ومغادرتها قبل انتهاء الفيلم، الذي لم يكن يهمها اسمه ولا موضوعه ولا لغته. أثناء العرض كانت خيرة لا تفتر عن السؤال عما يجري في الشاشة ويُسمع من هرج ومرج، وبصير كلامها وشوشات حين تنهاها بنتها عنه، ثم أخذت تدعي أنها بسمعها وأنفها تفهم ما يحدث، فتتجاوب مع بعض اللقطات بالموافقة أو بالإعراض. وحصل مرة أن طالبت بالخروج لكونها لا تفهم لغة الفيلم، ومرة أخرى لأنها، كما قالت، اشتمت فيه شيئاً من قلة الحياء.

وفي مشاهدة تالية اشترطت رقية على أمها الالتزام بالصمت طوال عرض الشريط، فما كان من هاته إلا أن قالت متحدية: «شرط بشرط.. أعطيني ما أشغل به فمي وما تسمعي مني أي كلمة»، فكان لها ما أرادت، ولو أنها لم تمنع نفسها من الهمس بانزعاجها من الغاشين وهمسات بعض المتفرجين. وفعلاً، ما وصل منها مثنوياً في أذن رقية: «أنا حمدان.. والله ما عندي معك فراق حتى تقرري زواجنا... خذي وقتك كله... وهذي وريقة... خليتك أنت وأمك بخير»... أدركت رقية من نبرة صوت المنصرف أنه للشباب المتحرش بها منذ زمن ليس بالقصير، صاحب الشروط والآلة الحاسبة.

بادرت الأم بالوقوف مرددة: حتى السينما ما بقت قابلة للعشرة... نخرج... وأيدتها البنت قائلة: هذي المرة هي الأخيرة... نخرج.

في البيت تقوم رقية وأمها بأعمالهما الاعتيادية، ثم بين صلاة وأخري، تسأل خيرة عن قصة هذا الفيلم أو ذاك، تلفق لها ابنتها كلاماً لا علاقة له بأي فيلم، فتصدر عن السائلة عبارات الشتم والتعبير في حق السينما، وتزعم أنه في النوم وحتى في يقظتها ترى قصصاً أحسن وأفيد، هي التي تحكيها لجارتها أم هشوم وبنتها الطالق.

لرقية أيضاً نصيبها من الرؤى المنامية، تنسى معظمها أو لا تتذكر منها إلا أشتاتاً لا ناظم لها ولا معنى، إلا من واحدة توالى عليها مراراً وتكراراً، يُمثل فيها طيف من خلف ستار تتبين من صوته أنه لرجل يقول لها: زيدي يا أنت في طلب العلم ولا تقصري... وقد يكون الصوت فاه بكلمات آخر، غير أنها لا تعقل بعد الاستفاقة إلا نصيحته الأمرة. وما إن انقطع تبيده الطيفي حتى قطعت الشك باليقين أنه للإنسان الصفيّ الخيّر الكريم، المحسن إليها. فكيف لا تعمل بنصحه وتمثل لأمره، وفيهما، ولا ريب، خيرها وصلاحتها. أخبرت أمها بقرارها إتمام دراستها، فلقبت منها التشجيع والمباركة؛ والخبر

نفسه نقلته إلى مدير مقر عملها، فحظيت بما لم تتوقعه من تسهيلات سخية فائقة، كأنما هو حُفَّز إليها أو أمر بها. وما هي إلا أيام معدودة حتى أتمت كل الإجراءات الإدارية لتسجيل موضوع أطروحة الدكتوراه الوطنية في الإنسانيات، وهو «فلسفة الدين والأخلاق بين التوحيدي ومسكويه»، وكم تفانت في الدرس والبحث، تتراد المكتبات لاقتناء ما تطلبه من مراجع، والخزانات للاطلاع على ما لا تجده في الأولى. فكأنما قوة خفية تُحركها وتبث فيها قريحة التحصيل والكتابة، حتى إن أمها طفقت تشكو لها من غيابها عن المنزل خارج أوقات عملها، لكن سرعان ما كفت عن ذلك لما علمت منها السبب، فضمتها إليها داعية لها بكل خير. أما من جهة مدير الفندق، لا إنذار ولا معاقبة، لا عتاب أو مؤاخذه، بل إنها نالت ترقية، إذ عوض عملها المعتاد كلفت بالمراسلات الخارجية التي لم تكن تأخذ منها سوى بضع ساعات في الأسبوع. وترجت من المدير أن يوظف بدلها أخت جارتها فقبل. هذا وإنها ظلت حريصة على زيارة رفيقات الشغل في طوابقهن، تستخبر عن أحوالهن وتتبادل معهن أحاديث لطيفة في حدود ما يسمح به الوقت. وهنّ، علاوة على إطلاق لقب «المليحة» عليها، أضفن «القارية».

تمر الأيام، والمليحة القارئة تُسخر طاقتها وحيويتها كيما يمر الزمن لحسابها لا عليه. وضعها المالي لا بأس به، سيما وأنه كان ينمو بفوائد دفتر التوفير الذي فتحته من قبل بمال المحسن، مما يسر لها تشغيل فتاة من الحي للقيام بأعمال المنزل وإيناس الست خيرة. والفتاة يتيمة من أبيها وأختٌ لواحدة عاطلة تكبرها، وأمها خياطة أمست بالمناسبة صديقة البيت.

وظلت الأيام تتدافع كنهْر هادئ وديع. فبعد أن حصلت رقية على دبلومها المنشود بتفوق اجتازت مباراة ولوج التعليم العالي، فأصبحت أستاذة فيه تدرّس فلسفة الدين والمدارس الأخلاقية بكلية الإنسانيات؛ إلا أن حدثًا مؤلمًا أتى ليعكر صفو إنجازاتها ممثلًا في موت أمها المفاجئ ليلة يوم جمعة، فهبَّ أهل الحي جميعًا، نساءً ورجالًا وهياؤا للجنزة مراسيمها ومستلزماتها، وأمنوا للمتوفاة قبر دفنها. وعلى المنزل توافد أقاربها من طنجة، كما قدم مدير الفندق ومستخدموه للتعزية والمواساة، ومعهم المتحرش حمدان الذي دسَّ في راحتها بطاقة حين انصرافه. اهتبلت وقوفها وراء ستار، قرأت ما فيها: لك مهلة أسبوع لتقرير الزواج بي، وإلا ذهبت إلى العراق للجهاد في سبيل الله، وثمة النكاح مضمون مصون. محبك حمدان... ثم رجعت إلى معزبها، تُكلم ما استطاعت وتثني على القيمين والمساعدات. وحتى ليلة الترحم والأذكار فقد مرت في أيسر ظرف وأحسنه. وطوال بضعة أيام تلقت رقية هاتفياً أو في الكلية تعازي العميد وزملاء وموظفين، فكانت شاكرة لهم،

مظهرةً صبرها على فراق الأم وتقبلها مشيئة الله، مع أنها تعلم في قرارة نفسها أنه لولا مؤازرة الجيران والأهل لكان الخطب أشدَّ عليها وأمضَّ.

بعد مضي أسبوعين آثرت الأستاذة رقية الالتحاق بعملها التدريسي حارصة على تخصيص ساعات إضافية، تعويضًا عن أيام غيابها. وذات يوم، وهي تركن سيارتها المقتناة حديثًا، اعترض طريقها إلى الكلية امرأة ورجل، سلما عليها كما يجب، قدمت المرأة نفسها اسمًا ووظيفةً كأستاذة الفيزياء بكلية العلوم بالدار البيضاء، وقدمت مصاحبها اسمًا ووظيفة في القطاع البنكي. أبدت لهما سرورها بمعرفتهما، وسألتهما مبتسمة:

- هل من حاجة أقضيها؟

- من دون لف ودوران، أجابت السيدة، أخي هذا المهدي أرمل ولا ولد له، يريد الزواج من جديد، وأنا أشرت عليه بطلب يدك لما تمكنت من معرفته عنك كامرأة متخلقة وأستاذة متميزة.

خرج الرجل عن صمته، قال:

- يكون لي أعظم الشرف إن تفضلتِ يا آنسة وقبلت. نتبادل بطائقنا، ولك واسع النظر... معذرة. شغلناك عن عملك. أنا في انتظار ردك وأتمنى أن يكون بالإيجاب... تركناك بخير.

أسبوع أمضته رقية مفكرة في عرض الزواج من رجل سَمَّته يبدو حسنًا وكذلك هندامه، متعقل في كلامه وإشاراته، أقبل رفقة أخته، ولو لم يكن كئيسًا للقيها وحده وحدثها في الموضوع... وضعت ما بدا لها من محاسنه في الحسبان وكذلك عمرها المتأخم للأربعين ورغبتها المشروعة في التأهل والإنجاب، ومعهما واقع محظوظيتها واعتقادها أن القرآن كالدينا قسمة ونصيب. وإذن رُدُّها بالقبول مختمِرٌ جاهزٌ الآن، لكنها غلبت التريث في إعلانه حتى يبادر طالب يدها إلى مكالمتها، فيبرهن على حرصه وجديته. وفعلاً لم يمض أسبوع ثان حتى هتفت لها أخته - وفي هذا علامة أخرى على كياسته - فأبلغتها أن أخاها يدعوها إلى لقاء عشاء مساء غدٍ في مطعم موندريين، وحين شعرت الهاتفة بترددتها أردفت: فليكن العشاء عندي...

وكذلك كان.

في شقة أنيقة وسيدة، حظيت رقية من ربها عتيقة وأخيها باستقبال حميمي حار. وكانت المدعوة في أبهى صورة وأجمل هندام. وحول المائدة أخذت

تجيب بلطف عن أسئلتهما بخصوص عملها وشؤون أخرى، متجنباً الخوض في التفاصيل ومساءلتها إلا فيما ندر، فاستخلصت أن خاطبها، عدا وظيفته البنكية، يعمل أحياناً كخبير حسابي مع بعض الشركات، وأن عتيقة أرملة تنوي الاستقرار في بوسطن حيث يشتغل ابنها الأوحد. وذهب بهم الكلام تفاريق، حتى إذا انتهت الوجبة انتقل الثلاثي إلى الصالون لشرب الشاي والمرطبات. وهنا شغلت الست الداعية موسيقى هادئة خفيفة، ثم أكثرت من ارتياد الشرفة بدعوى وجوب انفرادها للتدخين. أما الرجل فقد ظل معتصماً برزائته واكتفى بالقول:

- يا للآ رقية، منذ أن توفيت زوجتي وأنا أطلب من الله أن يعوضني عنها، وأنت خير عوض حُسنًا وثقافة. لا أريد الانتظار أكثر. إذا رضيتِ نوثق زواجنا مطلع الأسبوع القادم، وبعده بقليل نقيم عرسًا خفيًا قبل سفر أختي.

سكتت الجليسة، فأقبلت الست عتيقة فرحةً مبتهجة وزغرذت ملء فيها ثم صاحت: السكوت علامة الرضى. والله يا ستي - خلاص الآن أنت مدام - لو لم تكوني تقية لفتحت الشامباين على شرفك وسقينا به فرحتنا بالخبر السعيد... قم أنت، قومي يا حبيبتى يقبلك اللي حيصير زوجك على سنة الله ورسوله... قومي أرجوك...

قامت المدعوة، اقترب منها المهدي، لاحظت أنها تكبره قامه، فتعانقا وتلاثما فيما الأخت تطلق زغاريد تُنهيها بالهتف: والبقية ليلة العرس، ثم تنهال على رقية بالبوس وكلمات المباركة والتهنئة قبل انصرافها مرفقة بأخيها.

تمَّ عقد الزواج في الموعد المحدد، وتلاه العرس كما أرادته العريسان خفيًا في منزله، أي بحضور عشرين مدعوًا أغلبهم من جهته، والباقي من جهة أهل العروسة وبعض الجيران.

مرت سنوات على خروج حمدان من بيت رقية على رؤوس قدميه، داخّ الذهن، لا يلوي إلا على ندم تسليمها بطاقة تخويف ومساومة، بيد أنه زارها معزياً، فلعن اندفاعه وتهوره. في شقته أخذ يعزي نفسه في فقدان التي علق بها قلبه، وتأبى الآن كرامته أن يبحث عنها ويعاود ملاحقتها والتشويش عليها. أرض الله واسعة، قال، وما يتعسّر نيله يحسن تركه. ووافق تبنيه هذا القرار توصله بإيميل ينبئه بقبول طلبه العمل في شركة للمنتوجات الجلدية بالدار البيضاء. سُرّ بالنبأ، والتمس من مخاطبه إمهاله أسبوعاً حتى يُعد رحيله.

لكن، في الشركة المذكورة، لم يُمض ثلاثة أشهر مكلّفاً بالاستقبال حتى تمّ إعفاؤه بدعوى تحرشه بالزبونات وغلغلة نظره فيهن. حاول في وجه نائبة المدير تبرئة ساحته من تهمةٍ تقلبُ رأساً على عقب سلوك الأدب والحفاوة وحسن الاستقبال، كما ينتويه ويتصوره ويمارسه، ويوصي به فنُّ الماركتينج؛ ومن وجهة نظره، إنْ بالغ فيه أحياناً فمن أجل تزيين وتسويق المنتوجات ومشتقاتها لا غير. لم تِلن قناة النائبة المستندة إلى شهادات ضده معززة من زميلته في مبسط الاستقبال، الأنسة خناثة. وهل كان للمتهم أن يستغرب موقف الزميلة وقد اعتذر مراراً على طلبها الزواج به ورفع ضيم العنوسة عنها. أراد في محاولة أخيرة استغفالتها بأن عرض عليها سحب شكايتها مقابل تلبية ما تريد، فأجابت: شهادة العَقْد أولاً، وإلا تبخّر الوعد وضاع منك الشغل... عَقّب قبل أن ينصرف: صح! الوظيفة أولاً وأخيراً، ولا شيء غيرها، هي المعبودة بعد الله، يا لالا خناثة...

قبل المسرّح عودته إلى عطالته، سيما وأن إجازته في الاجتماعيات تذكّره أنه يستحق أكثر من وظيفة مستقبل أو عون بسيط، قليل الاعتبار، ضعيف الدخل. ولحسن حظه أنه كان يحصل من أخيه البكر على مستحقّاته من عائدات أرض فلاحية ورثاها عن والديهما المتوفيين، هذا فضلاً عن مزاولته لأعمال عرضية صغيرة ومؤقتة تمنحه الحركة ولو بأقل بركة، وتعصمه عن الركون إلى شقته والإدمان على ارتياده شاشتي الكمبيوتر والتلفزيون، وأيضاً شاشات قاعات السينما حيث كان يعجبه الظلام واصطفاف الرؤوس وتوجه أعينها إلى قبلة واحدة.

مع دنو حمدان من اكتمال سنة عطالته الثالثة، لم يعد له برنامج يومي ثابت محدد، وإنما يترك نفسه تفعل ما تشاء وتهوى، مقلبةً الأفكار والاستيهامات،

حتى الملتبسة أو الطائشة منها، مجتنباً دهاليز القنوط والاضجار. ففي شقته بالمدينة القديمة المطلّة على البحر الأطلسي والميناء، كان في الغالب يصرف أوقات الصباح الأولى، بعد تناول فطور دسم، في التواصل مع شبكته الاجتماعية، يتبادل الأخبار الهامة والآراء ويسهم في التنادي إلى مظاهرات واعتصامات المعطلين، ثم يعرج على صفحته في فيسبوك، فيستطلع رسائل أصدقائه الافتراضيين وبيعت لهم بأخرى، ثم يختم بتويتر حيث يبت ما يسميه زقزقات، ولا ينسى قبل الخروج قراءة صفحات من كتاب ورقي حان موعد أخذه بقوة.

في الخارج، بحقية ظهرية وكاسكيت سوداء على شعره الكثيف ذي الضفيرة الخلفية، يرتاد المعطل رحاباً وفضاءات، وهي: المقهى حيث يلتقي بصديقه عبّو، النادل المتزوج وأبو أطفال، يدرّش معه وينكت، وينفق على ما يشربانه ويأكلانه؛ وبعد المقهى يجري جولات في بعض الشوارع الكبرى والحدائق، مروراً بالمدينة القديمة حيث يتفقد أحوال مَنْ يعرفهم؛ ثم تفضي به رجلاه إلى الكورنيش الحافل بالمارة وبالجالسين على الحيطان القصيرة والمقاعد العمومية. هنا يمكث تارة ويمشي الهوينا غدوّاً ورواحاً تارة، متنفساً ملء رئتيه هواء البحر المنعش، صارقاً نظره إلى العابرات السافرات، زاهدًا في المختلطين من الجنسين أو في اللائي بينه وبينهن حجاب.

حوالي الرابعة بعد الظهر، يغمر سيل الموظفين والعاملات أرصفة الكورنيش، عائدات إلى بيوتهن أو قاصدات عناوين أخرى. من على مصطبة أو مختلطاً بهن، لا يتوانى حمدان في رمق أجملهن أو تصويب نظره الشهواني إلى اللاهيات الغافلات المختلات، وحاشا أن تكون رقية من طينتهن. وبهذا يقنع ويكتفي ولا يتعداه، هامساً بقول شاعر مجهول: أبحث عن وجهٍ مفدّي، ظليل اللحظِ عديم الغمّ، عن وجهٍ لأنسيةٍ سريعة العطفِ والفهم، يأخذني إلى جنان الحبِّ والآه... وقد يكتفي أيضاً بإحدى زقزقاته: من ذكرٍ وأنثى تكون الحياة عند الوفاق أجدى وأحلى... فسلوك مفاتحة فتاة بسؤال عن الساعة أو مغازلتها بوشوشات وغمزات ذات معنى قد أدبر زمانه في عرفه وولى، والأخلاق العامة عن ذلك تنهى، والقانون يعاقب مقترفه إذا تمادى...

عن ذلك حدّث صاحبه عبّو مرة أخرى، وعمّا تلتقطه أذناه من كلمات بعضهن ساخرة أو نابية، فلم يسمع منه إلا الجواب نفسه بما مفاده: لاتقاء الانجاس المنوي وشر الأمراض التناسلية الخطيرة، الزواج هو الحل... حمدان الأصغر سنّاً من ناصحه يعلم كل هذا، لكنه يصر على أن مباحة الإناث، ولو من دون مباحتهن، هو ما يعطي الحياة رونقاً وطعمًا. لكن السبيل إليهن بالكلام

البليد والحيل البائخة لم يعد سالكًا. لذا قضى جزءًا من الليل مفكرًا في تقنيات جديدة مبتدعة، علها تدل لدى متلقياتها على ذكاء واضعها وجوده ذوقه.

في صباح الغد، قبيل التحاق الموظفين بعملهم، اختار حمدان الكورنيش ميدانًا لأولى تطبيقاته، التي كمنت في التزود بكمية منشورات من مكتب إشهار والتطوع لتوزيع بعضها على سائقي السيارات ومعظمها على المارة، خصوصًا منهم الراجلات. وكم خاب ظنه في المستهدفات من العملية، إذ كنَّ في الغالب يُعرضن عن أخذ المنشور الممدود إليهن، وقلة قليلة تتفضل بتناوله لإلقائه في أقرب سلة مهملات. عوضًا عن ذلك انتحل الخائب السعي دور صحافي مستجوب، فأخذ، باسم الحق في المعلومة، يمد مسجلته أو هاتفه المحمول إلى أفواه عابرات مختارات، يرتجل لهن أسئلة عن أزمة الزواج والتلوث البيئي وغلاء العقار والسكن، فلا يلقى إلا الصدود أو أجوبة تُرمى على عجل بغية التخلص من الكلام، وأخرى تنهاه عن التسكع وتحته على إيجاد شغل...

عودًا إلى بيته، سجّل المعطل على فيسبوك ما شاهده صباح اليوم من عبوس وكلوح على وجوه منقبضة، يدب أصحابها إلى تحصيل لقمة العيش، كما لو أنها أعز ما يُطلب ونهاية المبتغى، فرقن ما يلي: هموم بني قومي من العمق بحيث لا ينفع فيها الليلُ إذا تلاً، والصبحُ إذا تنفّس، والرضيغُ إذا تبسّم، والوردُ إذا غزا.

في الغد رأى حمدان أن الخير قد يكون في الورد، نظرًا لرمزيته المعتبرة عبر العصور وفي روضات المحبين وغيرها. فاشترى من سوقه ستَّ باقات، عرض بيعها على المارات بنصف ثمنها، فأبين شراءها لعدم حاجتهن إليها أو استخفافًا بها. قالت واحدة فأخرى: ما واثانا غير الورد... أش يخصك يا العريان؟ قال الورد يا مولاي... إلا من فتاة محجبة، كحيلّة العينين، كثيفة الحاجبين، مكفهرة خاطر، ترجته مستعطفة أن يهديها باقة تحملها إلى أمها المريضة في مستشفى. وما إن استجاب حتى سمعها تقول قبل انصرافها: «الله يجيب لي شاب بحالك يخطبني بالورد أو بلاش». ولما ابتعدت لمحها تعرض باقته على المارة وأصحاب السيارات. وتُعيد الظهر، تجنبًا لذبول بضاعته بين يديه، اضطر إلى توزيعها بالمجان على من كانت تعجبه خلقتهم، ولو أن في الأمر ما أثار استغراب بعضهن والشك في صحة الموزع العقلية.

اليأس اليأس!

إلا أن تجلّيه أو تخفّف منه ليلة ماجنة عند أحد أصحابه العُزْب، علال الأزهر، الخائض دومًا في سوق الأعمال والنساء. وقبل ذلك، تعوّد على مشاهدة فيلم غراميٍّ غنائيٍّ يختاره في إحدى القاعات. وكذلك كان.

بعد أسبوع أو أقل، خلال وجبة عشاء جمعت حمدان بعبو وبعض الأصدقاء المتزوجين، دار الحديث بينهم في أمور شتى، أهمها الحركات الاحتجاجية ووجوب المشاركة فيها؛ والزواج ومشاكله المتمثلة في تكاثر حاجيات الأطفال وتدني الأجور والقدرة الشرائية، ونصحوا الأعزب الأوحدهم بينهم، ومعهم عبّو، بالتريث في العقد علي واحدة حتى يعدّ العدة ويجد عملاً قارًا مريحًا. أصدقهم المنصوح القول بأن أظهر عزوفه عن زواج يكون على مرمى حجر من الطلاق، وعرّج بهم على الإخبار عن حركة 20 فبراير وتشتت أطرافها ووهن حيويتها وأنفاسها، ثم على التندر بأخبار بعض السياسيين والتكيت المفرج لهم. وفجأة برقت في ذهنه فكرة، فاستسمح الجمع في مغادرتهم، كيما يعود إلى مأواه ليدقق فيها النظر ويقتنع بجديتها وجدواها.

في ظهر الغد، ركب سيارة أجرة باتجاه مقر جمعية الرفق بالحيوان. هنا طلب من صديق له أن يتاعه كليين من الحجم الصغير، ملقّحين وفي صحة جيدة، يريد معهما اللعب والمؤانسة. لبّى الموظف طلبه لكن مجانًا بمقتضى قانون الجمعية، فجاء إليه بقفص يحوي كليين، واحد كانيش وآخر يوركشاي، بوتائقيهما وشيء من التغذية، وأخذ منه توقيع التسلم ووعدًا بالإحسان إليهما.

الشقة بفضل الحيوانين اكتست طابع الأنس المبشر بالإمتاع، ولو إلى حين. حررهما المحسن من القفص وتركهما يكتشفان المكان الجديد ويطمئنان إليه وإلى صاحبه، فيقلان من الارتباك والنباح؛ ثم أخذ يداعبهما ويلاعبهما ما إن انتهى من شؤونه الشخصية وإعداد طعامهما. ولما جنّ الليل فرش لهما في المطبخ ملاءة وحثهما على النوم. وقبل أن يحلّ نومه، اقتات بما تيسر مستطلعًا حاسوبه ثم قرأ على فراشه صفحات من كتاب.

وقت الاستيقاظ، لاحظ حمدان أن الكليين زركشا المحل هنا وهناك بالبول والغائط. كان عليه أن يطهرّ ويعطرّ البيت كله، وأن يقدم لهما فطورًا ويخدمهما بما يرضيهما ويحول دون إثارة أعصابهما فنباحهما...

الفكرة البارقة، ها هو ينجزها في الكورنيش منتصف النهار، يمد بيده الكليب يوركشاي الأشقر إلى العابرات والواقفات عارضًا عليهن شراءه بثمن

تفضيلي، فتنجمع حوله بعضهن، منصتات إلى مولاه وهو يصفه مادحًا، مبررًا مزاياه الحميدة كالوفاء والألفة والنقاء، وأيضًا قلة النباح إلا إذا استشعر غريبًا حول المنزل يترصد أو يتلصص. وفي حمى الكلام عن الحيوان الجميل، كم مرة لامست يدا العارض أيادي المداعبات المعجبات. لكن رويدًا رويدًا أخذ الجمع ينفصُّ عنه، عدا واحدة لا بأس بقدها ووسامتها، قبلت عرضه ومناقشته ثمن الكليب في مقهى مجاور حول مشروب حلال.

لم تدم الجلسة أكثر من عشر دقائق. موضوعها تم ختمه لصالح الجليسة. جنح البائع إلى مطاوعتها، معتبرًا أن الغاية المتوخاة هي ربط علاقة بها قد تكون مثمرة إذا كان لها ما بعدها. قيل شرطيتها: ثمن متواضع تدفع خمسه حالًا والبقية مقسطة على مدى شهرين، وتعللت بكون الكليب سيكلفها مصاريف البيطري والتغذية والتنظيف والكسوة المواتية. وما إن تم الاتفاق حتى سلمت صاحب الحيوان المبلغ المسبوق مع رقم محمولها، واستعجلت ذهابها بمقتناها، مدعية أن زوجها لو فاجأها جالسة مع غريب في هذه الهيئة لطلقها وجلد الجلisis مئة جلدة.

ساورت حمدان شكوك في صدق المرأة، وتأكدت له حين اكتشف أن رقم هاتفها مزيف، فقام ودفع للنادل ما عليه من الخمس المحضّل، ثم هام في الشوارع مكبًا على وجهه، لا يلتفت يمنة أو يسرة إلى الجنس اللطيف، ولو إلى المتبرجات والتممايحات. وبدا له لمغالبة حزنه أن يجري القرعة بين مشاهدة فيلم أو وهب نفسه لليلة ماجنة، فطلع وجه السعي الأول فألغاه وقصد منزل صديقه الأزهر، لكون سوابقه في شقته مع العاهرات كانت في الغالب سيئة، هذا فضلًا عن جيرانه هواة البص والسعاية.

كان فضل تيك الليلة على تحسين مزاجه بيئًا، إذ ظهر صباحًا في فضاء الكورنيش بحماسه المعهود، عارضًا الكانيش للبيع، وقد فضّل هذه المرة أن يجوب قارعة الطريق ومدارات توقف السيارات عند الضوء الأحمر. وهنا ما من سائقة بدت له إلا وأطلعها على بضاعته مبشور الوجه، متفوهًا بكلمات تزيين وترغيب، رغم مزاحمة متسولين وباعة باكيات كلينكس وأشياء أخرى...

طال انتظاره لمشتريه كريمة سوية لا تشبه الراجلات المختلات اللعوبات. وكاد تحت سخونة الشمس يذهب إلى حال سبيله لو لم تدعُ سائقة إلى الركوب للنظر في أمر عرضه بمكان من الطريق أهدأ وأريح. لبى الدعوة شاكرًا، ملاحظًا أن صاحبها تنتمي ولا شك إلى طبقة بورجوازية مترفة، يدل عليه سمتها ولباسها وحليها وماكياجها وعطرها. تحت ظل شجرة أوقفت

سيارتها وخرجت منها ففعل مرافقها مثلها. طمأنته على أنها لن تناقش الثمن، لكنها استغربت كون الكانيش لا ينيح، وهذا قد يشير في نظرها إلى مرض ما يعتوره، فنفى ذلك بكل حزم وأدب، مدعيًا أنه ربّي الكليب على عدم النبح من دون سبب، علاوة على أنه ولا شك منفعِل بجمالها وأناقتهَا. فتناولته مبتسمة، وفحصت أعضائه ومفاصله جيدًا، لكن ما إن رفعت يديها ناظرة إلى بطنه حتى تبوّل على وجهها وفستانها، فسارعت إلى التطويح به عرض الطريق حيث سحقتة عجلات، ثم ركبت سيارتها وانطلقت وملء فيها سبب فطيع للحيوان وصاحبه. بصعوبة جملة استطاع هذا جمع أشلاء الكليب في كيس ثم وضعه في أول قمامة صادفها أثناء رجوعه.

في مقهاه المعتاد، جلس لحظات يسترجع شريط اليوم والأمس، ويحكيه متقطعًا لصديقه عبّو المقبل الرائح، فسمع منه ما يجوز أن يزقزق به في الشبكة: حظنا من الحياة الهشاشة والهّم، والزواج ليس الحل... سأله عن رجل حول طاولته شباب يصيخون السمع إليه، أجابه أن ما التقطته أذناه يشي بكونه داعية، لربما يريد التحبيب والاستقطاب، فأبدى السائل تعجبه ثم أنصرف.

عودًا إلى مستقره، طهّر حمدان الفضاء من أثر الكلبين وروائحهما، وجلس يطالع صفحته على فيسبوك ويرد على بعض الرسائل، ثم انتقل إلى أقوال وردت عليه، فشد انتباهه مقطعان:

الأول: لماذا هذا الإعياء من الكلام مع الناس؟ أحسُّ مرارًا أنني أوثر بلع لسانتي على النبس بكلمة أو تركيب جملة. أشعر أحيانًا أنني كلما تكلمت قلّصت ما بيني وبين جثتي من مسافة.

والثاني: عجبًا كيف يمر سحاب أفراحنا لتتبدى آلامنا كنجوم لا يزيدُها الليلُ إلا سطوعًا وتألؤًا! لذا تلزمني السكرة حتى الثمالة لكي أظل واقفًا في رحاب الحياة.

تأمل الشبكي المقطعين، وناجى نفسه: الأول لربما أقول مثيله يومًا أو أقوى؛ والثاني، كان عليّ أن أكون صاحبه...

حين استيقظ في وقته المعتاد، كان لسانه ما زال رطبًا بذكر مأثورة عزيزة عليه: ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل! فهبّ من فراشه، وتناول فطوره الدّسم منصنًا إلى موسيقاه المفضلة المتراوحة بين النغم الناعم المنعش والنغم الصاحب المهيج، وبعدها تزيا بأحسن لباسه، تعطر قليلًا، قص لحيته كثيرًا وغير تسريحة شعره مستعينًا بدهن الجيل. ولما رضي على نفسه في

المرآة دلف إلى الخارج، فأجرى جولات تفقدية وأخرى استطلاعية، وختمها بالعروج على مكتب عروض أعمال للعاطلين، فوجدها كما عهدتها محدودة زمنيًا، موزعة مكانيًا على مدن صغرى أو نائية، متواضعة الدخل، وأخرى صعبة الشروط: التمكن من الإنجليزية، التوفر على شهادات في التجارة والمانجمنت والماركتينك، وما إلى ذلك...

تذكر موعد مظاهره للمعطلين، فسارع إلى اللحاق بها. وهنا صاح بالمطالب مع الصائحين مرعدًا مزبدًا، حتى إذا فرقتهم قوى التدخل السريع، جرى للاختفاء في فضائه المعتاد، الفاصل بين البرّ والبحر، العامر بالمطاعم والمقاهي والمتاجر، قبلة العابرين والجائلين والتائمين!

في ماكدونالد تناول وجبة سريعة، ثم اقتنى جرائد وطاقع جالسًا على مصطبة بعض موادها فعروضها المقتررة في سوق الشغل؛ ولم تلهه عنها إلا شابة حسناء مرتدية زيبها الرياضي، ترجمته بلطف، وهي تناوله هاتفها المحمول، أن يأخذ لها صورًا، فاستجاب مرحبًا وأطاع رغبتها في التقاط هيئتها من زوايا عدة. وبعدها استرجعت ألتها شاكرة واستأنفت سيرها، لكنه سرعان ما لحق بها وطلب منها مُلحًا أن تبادلته الخدمة نفسها، وغايته المضمرة إنما هي التعرف عليها والتمكن من محادثتها. سلمها هاتفه فلبت طلبه بحفاوة بالغة، وكانت آخر لقطة أخذت له تُظهره مغرّفًا نظره في البحر والأفق، ولما انتبه كانت الفتاة قد هربت بالموبايل جريًا، فلم يستطع اللحاق بها ولو أنه حاول.

أثناء عودته إلى قاعدته، بالغ الحزن على ما سُرق منه، وقّعت عيناه على التي ابتاعها كليبًا ولم تؤدّ ثمنه كاملًا. قصدتها فورًا وسلّم وذكر، إلا أن المرأة طالبته بثلاثمئة درهم مقابل ذهابها معه إلى بيته. ولما رفض لوت عليه، أنكرت الأمر بشدة وأخذت تصيح وتُشهد المارة على تحرشه بها، فيما هو يعتذر لها عن كونه شبّهها بأخرى، فلم تسمع وتهدا. إذّاك اغتتم تظاهرها بالإغماء، فانفلت من طوقها وهرب بأقصى ما تستطيعه ساقاه. وفي متمّ جريه أبصر تجمّعًا احتجاجيًا فانصهر فيه، وشارك في ترديد شعاراته بحماس وحدة، ولما سأل عن فحواه، علم قبيل الانصراف أنه لمستخدمي الميناء والصيادين.

قبيل منتصف اليوم التالي، وجد حمدان في صندوق بريده استدعاءً عاجلاً للحضور إلى مخفر الشرطة المركزي. ففكر في الأسباب فلم يجد أكثر من اثنين: إما أن العدّاءة سارقة هاتفه ألقى عليها القبض ووصفته من ضمن ضحاياها، وهذا احتمال مستبعد؛ وإما أن امرأة الأمس قد أنهت هرجها

ومرجها بتسجيل شكايه ضده، وهذا احتمال أقرب، تأكد له بعد أن مثل أمام ضابط شاب أطلقه على صكّ دعوى امرأة سماها، مقرونة بشهود يهتمونه بالتحرش بها وبأخبارات في الكورنيش، ثم أذن له بإبداء رده حتى يُسجل في المحضر قبل تقديمه إلى النيابة العامة.

استجمع المتهم قواه، فروى قصته مع الشاكية متهمًا إياها بالنصب والاحتيال عليه، وطالب الضابط بالتحري في الأمر كي يقف على صحة روايته. طابغ الصدق في كلامه أيقن مستنطقه ببراءته، فضلًا عن أن المرأة معروفة عند مصالحه بكونها من بنات الرصيف والهوى. أمر كاتبه بالكف عن الرقن والانسحاب، ثم استوضح الظنين:

- ما السبب في اشتغالك بتوزيع المناشير الإشهارية وبيع الورد والكلاب؟

ارتاح المستفسر إلى سائله وأمن. أجب:

- أعمال تافهة، سيدي الضابط، زاولتها لمجرد تمضية الوقت... رأس البطال يسكنه الشيطان، يقول المثل، وأنا أقول: ربّ ما خلقتني باطلاً...

- والتحرش بالجنس الآخر؟

قالها وأطلق ضحكة عريضة ثم هدأ. أجب حمدان:

- وحتى هذا ما هو إلا شغل من لا شغل له... نشاط لا يسلم من خيبات الأمل والمخاطر. وأنا تعاطيته بالفن...

ضحك الرجل ملء فيه وسأل:

- بالفن؟!

- أي بلا تطرف ولا إلحاح. تغزل مؤدب، على سنة كبار شعراء الحب والنسيب...

- تحمل ليسانس، صح؟

- في الاجتماعيات...

- الجماعيات!

- أقصد السوسولوجيا... صرت أخجل من ديلومي. إنما بفضل تجربتي وبضاعتي المتواضعة تيقنت أن العطالة تتسبب في أمراض تصعب مع مرور الوقت: فقدان الثقة بالنفس والسيطرة على نزواتها وجانبها المظلم، التطيع بالخمول والكسل وبالتعصب والتطرف، استحالة الزواج الموفق وبناء بيت وأسرة، ثم تأثير كل هذا على المعنويات وصحة الجسم...

- ومصدر عيشك؟

- نصيبي من عائدات ضيعة فلاحية بسوس استولى عليها أخي الأكبر بعد وفاة الوالدين. نصيب لا يكفي حاجياتي، والشكوى لله...

رنّ هاتف الضابط فأجاب: أهلاً حضرة المدير... نعم كل المعلومات الخاصة بحمدان بن بلال تصلك الآن بالميل. وحتى هو أبعثه إلى مركزك... تحياتي وتقديري...

ارتعدت فرائص المعني بالمكالمة واكفهر وجهه تطيرًا. ناجى نفسه مستغيثًا: وارقياه، وارقياه! نادى الضابط على عون وأمره بمصاحبة السيد بن بلال في سيارة، وهو يفوه بكلمات أمان وتطمين.

في المركز استقبلت الوافد امرأة قوية البنية، صارمة القسمات. قادتته إلى غرفة خافتة الضوء، ذات طاولة وكراسي وشاشة على الجدار الأمامي. بإشارة منها، أخذ ما يشبه الشريط الصامت يتحرك بصورة ملء الشاشة، فكم دهش المشاهد لرؤية صورته عليها في الكورنيش بكل ما جرى له من لقاءات وأحداث، فلم يشك برهة أنه الآن في ضيافة البوليس السري، يطلعونه بالحجة المادية على أفاعيله التحرشية قبل استنطاقه وتسليم ملفه إلى القضاء.

بعيد انتهاء الفيلم ذي الثلاثين دقيقة تقريبًا، أقبل رجل ذو سمت مهيب ورأس أصلع تمامًا، كأنما شعره انزلق إلى وجهه واستقر فيه لحيّة بيضاء كثيفة. طاف حول حمدان المتأرجح بين الوقوف والجلوس، حسبما أمسى يسمعه من كلام الطائف المتلطف حينًا والقاسي حينًا:

- أنت إنسان نعرف عنك ما يكفي لجعلك في وضع لا تحسد عليه. تعمل الحيل للتحرش بالفتيات والنساء في فضاء عمومي، وهو ما يعاقب عليه القانون. لكن هناك ظروف مخففة ربما نراعيها لصالحك: تحرشك لا يصحبه سبّ أو كلام الصعاليك، ولا عدوانية ولا تهديد. أنت، كما عنوتنا شريطك، المتحرش رغمًا عنه أو بالمصرية غصبا عنّو، لأنك ما كنت لتمارسه لولا

عطالتك عن عمل جيد يناسبك... إنما لنا في التخفيف عنك شرط: تملأ خانات بيضاء كنت فيها خارج التغطية، ثم تنقل بمعية مساعدين الفيلم من الصمت إلى النطق. هل تقبل؟

التبست الأمور على المنصت، لم يتبين مادة عجينها ولا لون خيوطها، فاختر الهجوم عوض الدفاع، حتى لا يُبدي أيّ ضعفٍ أو قابلية للبول في سرواله من شدة الارتباك والهلع، قال:

- السيد الكومسيير... عين الصواب ما قلته، وأضيف: متحرش مسالم أنا ورغم أنني اضطررت إليه الفراغ وانعدام الشغل. هذا وليس من حق مصلحتكم التجسس عليّ بالكاميرا ومطالبتني الآن بالإفصاح عما كنت أقول وأسمع أو أفعل خارج تتبعكم لي. من حقي في ذلك رفع دعوى ضد فريقكم قصد تبرئتي وإطلاق سراحي لا أكثر.

كانت المرأة المستقبلية أثناء كلام حمدان تطلق ضحكات مكتومة وأخرى صريحة، ما فتئت في آخر الحصة أن انتقلت عدواها إلى الرجل الأصلع الذي بادر إلى الانسحاب حتى لا يفقد هيئته ووقاره. اندفعت الست نحو المذهول، وضمته إلى صدرها المكتنز قائلة: حتى هذي الجلسة سجلناها... فجاجى نفسه: وهل أستغرب هذا من مركز البص والجاسوسية! أما هذي الضمة فتحرش... في الاتجاه المعاكس!

تلبيةً لرغبة المرأة المعلنة، تبعها المعتقل عبر ممرات وردحات مليئة جدرانها بملصقات سينمائية يعرض بعضها وجوه نجوم الفن السابع. فكر: يستحيل أن تكون رؤوسهم مطلوبة من طرف المخابرات والقضاء؛ ثم أخذ يغير رأيه في هوية المركز ما إن قدمت له مرافقته في قاعة اجتماع أعضاء طاقم بأسمائهم ووظائفهم، وكلهم يعملون في حقل السينما. واسترعت انتباهه شابة أصغر منه، هي في التقديم المخرجة ناهد الراجي. فتاة رائعة الجمال، سبحان من صورها وأحسن التصوير! بهذا همهم وهو ينظر إليها بحياء.

صاحت المرأة البدينة: وأنا فاطمة الزين أو فاتي عند الأحبة. أنا اللي صوّرتك في الكورنيش من شرفتي يا حمدان، ثم حدثت عنك حضرة المنتج الكبير، أفندم عامر عصفور، اللي شرفك باستقباله مذ جئت. والآن اطمئن. أنت مع فنانين مرموقين، لا بين أيدي البوليس... الكاميرا الخفية! لا شك تعرفها. ابتسم لها وحيها تحية اعتراف وامتنان. هي اللي جعلتني أكتشفك... موضوع الاجتماع: شريطك اللي شفت يلزمه كتابة سيناريو تطوره وتغنيه. وهذا عمل يقوم به الولد ذا عمر بمساعدة المخرجة الموهوبة ناهد، وأنت يا حمدان

تحفظ حواراتك وتلعب في الفيلم الدور الرئيسي وتبقى، كما في الواقع، على طبيعتك من دون زيادة ولا نقصان. تعويضات معقولة تصلك في ثلاث دفعات، عند توقيع العقد، ومع إتمام الفيلم، ثم بعد التوزيع واحتساب المداخيل... خلاص اتفقنا؟

كان المخاطب ينصت إلى الست باهتمام وإمعان، مسترقًا النظر إلى الأنسة ناهد التي كانت أحيانًا ترنو إليه، كأنها تحته على أخذ الكلمة والتعبير عن رأيه. قال:

- مولاتي فاتي، أنا ممتن لك بفضلك عليّ، أذكره لك ولن أنساه ما حييت. إنما إذا سمحت أقول رأيي... ما دام الفيلم يدور حول فصل مهم من حياتي، وهو شبيه بحياة الآلاف المؤلفة من شباب جيلي، فالأحرى أتولى بنفسني كتابة السيناريو والحوار، لكوني الأدرى بشعابي وبالعطالة وأمراضها. أمهليني أسبوعين آتيك بنصي لعله يحظى بقبول الأنسة المحترمة، وإلا اكتفيت بدور التمثيل...

بإشارات وإيماءات وبعض الكلمات، أبدت المخرجة تأييدها لعرض حمدان، فتبعته فاتي بالثمين، ثم دعت الجميع إلى المطعم، فلبوا متحمسين، باستثناء العضو الجديد الذي أثار، معتذرًا، التعجيل بالتوقيع على العقد وتحصيل الدفعة الأولى، كيما يربح الوقت للتفرغ لما راهن عليه.

في طريقه إلى بيته عرّج على مقهاه المعتاد، أنبأ صديقه عبّو لمامًا بما حدث له، فتلقى منه التهاني والقبلات وسمعه يهتف فرحًا:

- نصف مليون سنتم دفعة أولى! كنت دائمًا أقول: واحد ذكي وخيرٍ مثلك ما يمكن يعطل. لكن ما تنساني. عندي باكلوريا ناقص اثنين ويمكن ألعب في دور بسيط...

- طبعًا تلعب أنت والأصدقاء مع الكومبارس وبفلوس. وفي القريب أدعوكم إلى وليمة.

أراد الصديق أن يهبه قسطًا من ماله، لكن عبّو رفض واستعجله بالذهاب إلى عمله. وعلى باب الخروج سأله عن الداعية المستقطب، فأبلغه خبر اعتقاله في مقهى مجاور.

مدة أسبوع قضاها المتحمس المتوثب مبحرًا ليلَ نهار بين الإنترنت وكتب في فن السينما اقتناها، فتمكن من تحبير خطاطة سيناريو وهيكله مشاهده

زمنيًا ومكانيًا، ثم علم في نسيج السرد والوصف والحوار عُقد الدراما وبؤر الإثارة والتشويق. ولما حل الأسبوع الثاني، أقدم على تحرير النص وتجهيزه على الورق، حتى إذا أمسك بناصية سلاسته وتسلسله، وضبط لمعه وشأبيبه، وأجرى عليه التشذيب والتهديب، نقله إلى الحاسوب شقًا صافيًا، مُقيسًا جودته بنبضات قلبه واتساع عينيه من شدة التأثر والتمتع.

أثناء انقطاعه لعمله وارتياحه طور المخاض والذنو من الوضع، لم يكن المشتغل ينال من القوت والنوم سوى النزر اليسير. أما استحضر طيف ناهد جسمًا وروحًا أو مَن بات يسميها الوجه المفدى، فحدّث ولا حرج، إذ يحسب نفسه مديّنًا لها بفيض الإلهام عليه، وبالتفاني في إدراك الأحسن المؤثر الوضاء وتحقيقه؛ هي خيطه الرفيعُ الرافع وقت الالتباس والحيرة، وهي عُيُّه المنعشُ الرحيم حين يجفّ ويكلّ. فإليها خفيّة يهدي مشهدين خارج سيرته، ناتجين عن فورة خياله، مرصعين بلحظات شيقة في نصره المرأة والذود عن حماها. الأول يُظهره رئيسَ فرقة تناهض بالقول والفعل المتحرشين الجنسيين بالنساء والمعتدين عليهن؛ والثاني يكون فيه عضوًا ضمن لجنة دعم مرشحة يسارية لانتخابات تشريعية قادمة، مرشحة تحظى بصفات الاستحقاق، وتحتاج إلى التعريف بها وترويج صورتها في حملات ذكية هادفة. ويبقى في جعبته الاحتياطية وقائع عاشها، لكن إذا أدرجها في السيناريو قد تخدم الحياء فتسيء للفيلم حتى ولو نسبها إلى غيره.

قبيل انتهاء الأسبوعين، كان حمدان قد أتم وضع اللمسات الأخيرة للسيناريو، فأثر إرساله بالإيميل، يوم الاثنين أول يوليو 2013، إلى السيدة فاتي وانتظار ما قد يأتي أو لا يأتي. ولإعادة الاتصال بالخارج، شغل نقاله الاحتياطي فالفيسبوك حيث أجاب عن بعض الرسائل، ثم نظر في صفحة أحد متراسليه أتت سيئة الفأل إذ يقول: «كأنني بالأوقات النادرة التي يخفّ فيها وزن أحزاننا تنتقمُ لنفسها، لما تبادر إلى إعادة حشرنا في بؤر الحياة اليومية ورعبها الرتيب وانفعالاتها المكرورة». وكما لو أنه أراد نقضه، سجّل: على صعيد النفس والجسد، مطالب أنا بإجراء أنجع الإصلاحات وألحها. إنني أدرك صعوبتها، لكن مغلبًا رغبتني في الفكك وحقي في الفرح والحياة سانج.

ختامًا، أتمّ إبحاره بالرسو في موقع «جوجل» للاطلاع على ما يوفره من مواد عن الفن السابع وأعمال مخرجين كبار. وبعدها نهل ما استطاع، نظر في أقراصه السينمائية، فألفى أكثرها من التوافه والمرميات، فوعد نفسه بتحسين ذخيرته منها. وعلى فراشه، أخذه النوم الذي له عليه دين، فيما التلفزيون الخفيض الصوت يعج بالصور المتزاحمة.

في الغد، خرج عن بكرة أبيه بدلته الرياضية وكاسكيت يغطي رأسه وجبهته، فأفطر في مقهاه المعتاد، دردش مع عبو قليلاً واطمأن على حاله، ثم انطلق جرياً في بعض شوارع المدينة وحدائقها، متجنباً الكورنيش ونواحيه. وحين عودته اغتسل وتنظف قبل أن يشغل حاسوبه، فما إن طالع قائمة الإيميلات حتى رأى واحدًا يتصدرها من الأنسة ناهد، هذا نصه:

«عزيزي حمدان، سهرت ليلة أمس كلها في قراءة نصك. صدّقني، تيماته ما قرأت من قبل أعمق ولا أقوى منها. تهانئي الحارة. موعدنا ظهر اليوم لننظر معًا في الترتيبات والإجراءات الضرورية حتى يخرج فيلمنا إلى النور في أقرب وقت... بيزو... ناهد».

سحب المتلقي الرسالة الشيقة، قبّلها مرات قبل أن يخبئ نسخة في جيبه ويعلق أخرى قريباً من سريره، ثم راح يطوف في فضائه يستطيره الفرح، ثم انضبط وترزّن لكون هذه الجولة الناجحة تستلزم جولات أنجح وأوثق، وقد تكون هي الأصعب. خامرته فكرة الرد فوراً على المخرجة الشابة بكلمات شكر وامتنان رقيقة معبرة، لكنه استحسن أن يفعل ذلك شفاهةً، وجهاً لوجه.

في الموعد المحدد، أقبل حمدان مرتدياً أحسن لباسه، فلقى استقبالاً حاراً من طرف السيدة فاتي التي احتضنته مهنةً والأنسة نهاد التي قبلته على الخدين، مجددة تهانيها، ثم قادتاه إلى قاعة أعد فيها كوكتيل للاحتفاء به وبالحدث، حضره أعضاء المركز التقني والإداري مباركين، فيما هو يبدي ابتسامة مشوبة بالذهول، ويتناول مثل الجميع شراباً ويبادلهم عبارات المجاملة والمودة. وفجأة أقبل السيد المدير، فشد على يد المحتفى به وقال:

- كنت تبحث عن عمل... هو ذا عملك: سيناريست وممثل، يا بختك! وبراتب تتفاوض عليه.

ثم أرسل ضحكات صاخبة وهو يداعب لحيته، وأردف:

- مشهد باقة الورد المهداة للجنس اللطيف! والمرأة المحتمالة مشترية كلبك! والأخرى والكانيش يرشها ببوله، ترميه، تسحقه سيارة! والفتاة اللصة اللي هربت بهاتفك وتركتك تنظر إلى البحر نظرات رومانسية! تدرب على إرسال هذي النظرات قبل التصوير، اجعلها عميقة، متغلغلة، فياضة... إيه، ورتاستك لجمعية مكافحة التحرش الجنسي، أنت فيه خير! وانخراطك في دعم مرشحة للتشريعات! فهمت أنها يسارية مثلك، وأنا يميني. خليها في

الوسط بيني وبينك يا جدع... عاش الوسط! كل هذي المشاهد وغيرها حكت لي عنها ناهد... اجتمع بالآنسة ومدام فاتي لتحديد موعد بدء التصوير...

أضاف وهو لا يفتر عن القهقهة ملء شذقيه:

- أنا أضحك، إذن الجمهور أكيد سيضحك مثلي أو أكثر... قل لي يا حمدان: تنوي تطوّل لحيتك على شكلي؟

- سيدي المدير، أجب، ما دام رأسي مليون شعر، فلحيتي مشروع لحية عمره ما يتمّ.

- حتى جوابك ذا شوف كيف تحشوه في نصك... وأنت والله من راسك حتى رجلك سينما! إيه نسيت... مظاهرة العاطلين، تظن السلطات تعطينا الترخيص من عينيها الاثنين! تبقى غلطان. إذن بلاش... إيه، واطرد من بالك عنوانك: ذكور إناث. مش عايزين مشاكل مع الرقابة ولا مع أيّ جهة أخرى. وحتى عنواني: متحرش غصبًا عنو شيلو من بالك وفكر في غيرو.

قال هذا وانصرف، فضجت القاعة بالضحك، فيما مدام فاتي توقف الكاميرامان عن التصوير ماسحة دموعها، وتأمّر الجميع بالعودة إلى عملهم.

حول طاولة الغداء في مطعم المركز، جلس الثلاثي الموكل لتحديد الترتيبات والإجراءات العملية من أجل نقل السيناريو إلى أطوار الإخراج. بادرت الست فاتي إلى الكلام بحكم سنّها وتجربتها:

- اجتماعنا هذا تمهيدي... بعد الاتفاق على الكاستينج ومدة الفيلم والتصوير وأمكنته وأشياء أخرى ملازمة، يكون بإمكانني وضع تقديرات مالية وتقديمها إلى السيد المدير. لكن من قبل لا بد من إجراء عملية التقطيع، وهذي من اختصاص ناهد...

أجابت المخاطبة:

- والله حمدان سهّل عليّ العملية، ويلزميني فقط إدخال رتوشات لجعل حركية المشاهد توافق زمن الشريط.

هتف الممدوح:

- الآنسة ناهد...

- ناهد ويس!

- لا أقدر. ربما بعدين... أنا دخيل على الميدان أو قولي مبتدئ فيه، فلك أنستي واسع النظر في إخضاع نصي لما شئت من الرتوشات وحتى التعديلات. مادتي خام، شكلها وانفخي فيها من خبرتك وأنفاسك...

- هذا تواضع منك! سأشاورك فيما أفعل.

وقفت الست فاتي للذهاب، قالت:

- عندي شغل مستعجل في الإدارة. إلحقي بي يا ناهد بعد عشر دقائق. ما تنسي عندنا تصوير ريبورتاج وكليب واحد مع المغنية هيفاء. وأنت حمدان خذ معك العقدين للاطلاع والتوقيع المصادق عليه. باي باي...

مع الشابة رأسًا لرأس، بذل السيناريست، كما الآن يُسمى، جهدًا موفّقًا في الالتزام بالقواعد المهنية وإبعاد صفة المتحرش اللاصقة به، سيما وأن عذره في ذلك قد سقط تمامًا بعد إيجاده عملاً كريماً وممتعاً. متشخّاً بالرزانة والحياء، قال بصوت خفيض:

- رسالتك إليّ بالأمس، آنسة ناهد، ستظل ما حييت في حاسوبي وفي ذاكرتي أكثر، نزلت كلماتها عليّ بالدفع والسلام، وأشعر بفضلها، أيّ بفضلك عليّ في اتخاذ طريق واعد جديد لحياتي. كيف أشكرك؟ قولي لي...

- أنت لم تدرس فنّ كتابة السيناريو من قبل؟

- من باب الادعاء الكاذب، نعم لي فيه دبلومات وإنجازات. أما الحقيقة فهي أنني ما تعلمت منه ما استطعت إلا بعد لقاءك.

- إذن اشكر اللي وهبك ومكّنك.

- والتمثيل! درايتي فيه تساوي الصفر...

- بخصوص مشروعنا المشترك، احتفظ بهندامك وكن من أنت بكل عفوية. في منتصف التصوير تغير قصّة شعرك بقصّة أليفيس بريسلي مثلاً... وفاتي وأنا ندربك على دورك ونكون معك... الآن ألتحق بها. أستودعك الله.

- دقيقة واحدة... قصة جمعية مناهضة التحرش الجنسي ودعم المرشحة للبرلمان، كلها من بنات أفكاري...

ندت عنها ابتسامة رقيقة، علّقت:

- من بنات أفكارك! وأنا أبعث لك إيميلات من أولاد أفكاري.

ابتسم بدوره وقام مصافحًا، غادر المطعم بعدها، فيما موظفون يتقاطرون عليه.

في بيته، والفرح ما زال يستخفه، أحسَّ أنه الليلة سيطلق زقزقات بل تغريدات كثيرة، لكنه أجّلها لَمَّا طالع في علبة الإيميلات واحدًا للآنسة ناهد، فخفق قلبه وسرت بين جوانحه دبدبات نافذة ناعمة، لم تعتره مثلثها من قبل، اللهم إلا في حبه القديم لرقيقة. كتبت:

«عزيزي حمدان،

تحية طيبة، وبعد: أنهيت تقريبًا عملية التقطيع. وهي فن مخصوص أفسره لك ذات يوم. الصورة في الفيلم هي آلية التعبير والتبليغ الأولى، والكلام معها رشات لا غير، حوارٍ عمومًا، مونولجي بالأوف عند اللزوم... هي ذي القاعدة، مع مرونة في التناول والتطبيق... تصوير مشهد مظاهره العاطلين، كما توقع المدير، لم ترخص به السلطات. ربما نستعين بالأرشييف.

عمر السيناريست انتقل إلى شركة أخرى. أكيد يغار منك...

مع محبتي وتقديري... ناهد».

فورًا رن البالغ التأثير والابتهاج ما قد لا يقوى على قوله لمراسلته وجهًا لوجه:

«عزيزتي ناهد،

ماذا يسع مبتدئ هاو مثلي أن يقول لمعلمته الشابة سوى السمع والطاعة. وأضيف: صحَّ المثل السائر: رَبَّ نعمة في طيها نعمة. وهذي النعمة هي أنت يا آنستي. كم هو رائع وكريم هذا القدر الذي قادني من العطالة إلى تحرشي الفني ثم أفضى بي إليك محبًا مكرّمًا... كأنني، سبحان الله! كتبت نفسي بنفسي إليك...

وتقبلي، آنستي ناهد، أصدق عبارات محبتي وإعجابي.

المخلص حمدان».

هكذا سعى المرسل النشوان إلى بلوغ عتبة الإعلان عن حبه ثم انتظار ما يأتي. تردد في إبدال كلمة حَبِّي بكلمة محبتي، فاستحسن تركها على حالها تجنبًا للعجلة والهرولة. طبع الرسالة بقبلة ونقر بعثها ثم أخذ يقرأها أمام مرآته الكبيرة بصوتٍ جهوري مسموع وإشارات تمثيلية عفوية، وأتبعها بدعاء وجيز: اللهم يا ربَّ يسرِّ مجراها إلى غايتها، واجعل مفرداتها تنفذ إلى قلب مَنْ أَحَبُّ وأهوى، وسهِّلْ نومي في هذي الليلة، وجمِّله برؤى ناعمة تعجب النفس وتسعدها، يا الله يا مجيب الدعوات، يا كريم!

أثناء مراودته النعاس فكر في إخبار أخيه غدًا بتنازله عن مستحقاته من عائدات الحقل، مقابل تمكينه من قدر مالي جزافي يساعده على شراء منزل؛ إذ إنه لربما يتزوج.

في الأيام التي تلت، كانت الاستعدادات على قدم وساق: التعرف على الممثلين من الجنسين، زيارات تفقدية جماعية لفضاءات التصوير، والعضو الجديد بين المركز وبيته يتدرب على دوره أمام المرايا أو تحت مراقبة الشابة المخرجة والمنسقة العامة السيدة فاتي.

صبيحة اليوم الموعود، نُصبت الكاميرات والميكروفونات في الكورنيش، والثَّقِطت فيها للجمهور صور تصلح وقت التركيب، ثم حُجز جزء منها للممثلين والكومبارس، وحمدان بينهم يستحلي تلقي الماكياج ويهدئ انفعاله وخفقان قلبه، وناهد أمام شاشتها الصغيرة تعطي إشارات الافتتاح، وفاتي تصيح بأعلى صوتها: سيلانس... الصمت... نصوّر...

في لحظة البدء هاته، شاءت الأقدار إلا أن ينزل على الفريق خبر صاعق يحمل نعي المنتج المصري، أفندم عامر عصفور... تبادل الأعضاء نظرات ملؤها الأسى والذهول. تساءل بعضهم عن علة الوفاة، فقالت فاتي - العليمة بحالته الصحية وإدمانه على الأسفار والخمور - إنها سكتة قلبية، فردد الجمع: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ ثم ركبوا الميني باص وعادوا إلى المركز حزاني محملين بالأكياس والآلات. وهنا بادر حمدان إلى طلب وقفة ترحم على المتوفى، وقرأ الفاتحة مصحوبًا بأخرين. وبعد ذلك تكفلت فاتي وناهد بإرسال إيميل تعزية ومواساة إلى أهل المرحوم بالقاهرة، وذلك باسمهما ونيابة عن حمدان بن بلال وكل أعضاء الطاقم.

مر على الحدث شهر، فإذا بفاتي تصلها رسالة من ابن المتوفى ينبئها بحلوله قريبًا بالدار البيضاء للنظر في إمكانية استئناف مشروع الفيلم والتعرف على

فريقه. تلقى هؤلاء جميعًا الخبر بابتهاج وفرح، إلا السيناريست فقد التزم
حياله الصمت والحياد.

ويوم حلَّ الموعد، كان اللقاء مع ابن الراحل في القاعة الكبرى. اسمه
مصطفى عصفور، يشبه والده سمنهً وخلقاً؛ ويخالفه خلقاً؛ إذ إن فظاظة
طبعه تبدو في قسما ت وجهه العابس دوماً ونظراته القاسية الشزراء. وتؤكد
هذا للجميع من الطريقة التي سلم عليهم وكلمهم بها، فلم تفد ما بذلته فاتي
وناهد من جهد لتلين الجو وتلطيفه. وحول طاولة كوكتيل نُظم بالمناسبة،
دُعي حمدان إلى إلقاء كلمة تأسين في حق المنتج الكبير المنتقل إلى عفو
ربه، لكن ما إن ركب بضع جمل حتى قاطعه الابن بصوت أجش: بلاش
شرشرة... بدا للمهان أن يتوجّه له بالذم والتوبيخ، أو أن يعاجله بضربة
رأسية محكمة على وجهه، لكنه قاس تبعات فعله وهولها على الفريق،
فأحجم. أما كلمة المهين التي ألقاها ناظرًا إلى ساعته، فكانت لإخبار
الحضور أن الاستثمار في السينما ليس من أولوياته، وإذا خصص لها قسطاً
من المال كنشاطٍ موازٍ فبمبدأ التشف وشرط سهره شخصياً على كتابة
سيناريو جديد وتحديد الكاستنج بأسماء محترفين مصريين، لا بهواة
طفيليين...

رأى حمدان المناسبة سانحة للقيام بانسحاب ضاحٍ، تعبيرًا عن احتجاجه على
لغو المنتج السفية، وتحفيرًا لأعضاء الفريق على ردع غلظته واستكباره.
وبعد يومين حاول الاتصال بناهد هاتفياً وبالميل، فلم يفلح؛ وحين توجّه إلى
فاتي أخبرته باكية أن كل شيء راح وانقضى، وأن ناهد سافرت مع عصفور
إلى مصر للزواج به وبناء عش وأسرة.

خبر ذهاب ناهد مع رجل من ذاك الصنف وقع على متلقيه كصدمة فادحة،
لزمه بعض الوقت لترويضها فطياً صفحتها؛ وحتى قصته في السيناريو فقد
شعر بوجود إيلائها المال نفسه، كما شعر بوجود تهدئة روعه وتطويق
محنته بالصمود والتناسي.

راجعًا إلى عادته المركوزة في طبعه، لكن بما يشبه النية في الانتقام من الجنس اللطيف، وإن بأسلوب مغاير مبتدع، ها إن حمدان - واعجابه! - يختار فتاةً من جيله راقته، ويستأذنها في التصريح لها بكلمة مُقسِّمًا أن يزهد من بعدها ولا يعود. نص الكلمة كان في البدء: «إذا فكرت مرة هل يوجد شخص في الدنيا يعبدك بعد الله، ويفدك بالنفس والنفيس، هذا الشخص هو خادمك المائل بين يديك. ربما تجمعك به صدفة أو ميعاد، وربما لا هذا ولا ذاك. ها إني قد بلغت وأذهب كما وعدت». لكن اضطر إلى تقصير الكلمة لِمَّا لاحظ أن المعنيات بها مستعجلات مهرولات، فصار يقول: «من حيث الحق في المعلومة والوصول إليها، كما هو مطلب الإعلاميين، أعلمك يا لآ أني أحبُّك، فلا تحلو لي غيرك إلا إذا تخيلتك». وقد ينوع الكلمة ويوجزها أكثر والسعي واحد: «إذا تساءلت مرة هل في الدنيا رجل يحبك حقًا، تذكّرني، فإنه أنا...» ومع أخريات يمررن كالبرق، رأى أن الركض وراءهن تحرش سافر معيب، ولا تنفع معهن حتى لغة الصّم البكم.

يقول حمدان كلمته - الطُعْمَة، يعتذر عن الإزعاج ثم يهرول جريًا حتى ولو أبدت المخاطبة ميلًا إلى الكلام. ودأبه دومًا أن يتجنب إلقاءها على بائعات الهوى اللآئي يُعرفن بسَمْتِهِنَّ وسِيمَاهِنَّ، وبخشاهن كثيرًا لِمَا حصل له مع بعضهن من ملاسنات ومشاكسات ومشاكل.

فضاءات الإلقاء: الكورنيش، الشوارع الوسيعة، الغاباب، حيث يبذله المناسبة وبوني يغطي رأسه وجهته يمارس العدو، رياضته المفضلة، يومي آخر الأسبوع، وأحيانًا خلاله لما يسمح له بذلك عمله كموظف عرضي في وكالة للتأمين ألزمته بالانتقال إلى مدينة الرباط.

في تلك الفضاءات كانت تحدث له غرائب لا يفلت منها إلا بالمرأوعة وشق الأنفس. فمرة، ها هي متريضة في غابة تلاحقه بعد أن أسمعها كلمته، فتصيح وقد عجزت عن إدراكه: توقف واشرح وناقش يا جبان، فيجيبها قبل أن يغيب: أقسمت ولا أريد أن أحنث، أو تكون عليّ كفارة.

ومرة في غابة أخرى، ها هو يعاود لعبته مع واحدة لم تلبث أن استعدت عليه صاحبها اللاحق بها، فيتعارك بعنفٍ وشدة، وتكون الغلبة لحمدان الذي يباغت خصمه الطريح على الأرض ببوستين على حنكيه ويقول بصوت عالٍ: واحدة ونصف للحبيبة والبقية لك.

ومرة أخرى في شارع حافل، ها هو يبث كلمته في أذن شابة، فتخلع حذاءها وتركض خلفه صارخة مستغيثة، فإذا برجال يعترضون طريقه ويسألونها عمّا لها معه، هل مسّنها بسوء؟ هل سرق منها الموبايل أو البسطام أو بوسة؟ فتتفني كل ذلك وتستظهر كلمته عن ظهر قلب. يتعجبون غاية العجب، ويعلق كبيرهم مؤبّداً من الآخرين: هذا كلام زين، ما فيه عيب ولا زيغ عن الدين. سيرى بحالك، الله يجيب لك شي عريس، وسر أنت يا العارف بسوق النساء، الله يعطيك واحدة حرّة تصونك وما تفهمك غير بالمعنى والغمزة... يستدير الرجل نحو المتحلقين ويأمر: وانتم يا خاطيين شغلكم، فرقوا هذ الرّقاء...

وذات عشية ربيعية طافحة بالجمال والرقّة، في مقهى باليما الشهير بشارع محمد الخامس، يختار حمدان طاولة قبالة حسناء جالسة مع رفيقها، فيأخذ في غمزها غمزاتٍ حادة ملحاحة؛ تتضايق المعنية، تدير له ظهرها شاكية الأمر لجليسها، فينصحها بعدم الاكتراث، ثم بعد لحظات يطمئنّها معلناً أن عديم الحياء قد زهق.

في عشية اليوم التالي، في المقهى نفسه، ها هو يبحث عن العاشقَيْن في مكانهما المعهود، لا يجدهما فيه، يصعد إلى السطح فيراهما مختليين متناجيين. يشاركهما الطاولة بلا استئذان، يلقي على الفتاة بصوتٍ متحنّ ودود كلمته المحفوظة لكن بصيغتها المطولة، مغلغلاً نظره في عينيها، غير عابئ بصاحبها ولا ملتفت إليه. وُبعيد مغادرتها كما وعد، تتوجّه الفتاة بلهجة اللوم والعتب إلى جليسها:

- عجيب صمتك يا بدر! الغريب يتحرش بي في حضورك، وأنت كصنم لا تتحرك... إيش قولك؟

- واش أنا أحقق حتى أحط عقلي مع واحد مهبول؟

- خلي عقلك فين هو واستعمل يديك حتى تدافع على كرامتك وكرامتي...

- بلا مبالغة ولا تضخيم يا فدوى! الحل بسيط، المحل اللي يسمح للحمقى يكونوا فيه مش من مقامنا... من الغد مواعيدنا في مقاهي راقية ما يدخلها غير الألباء...

تقوم فدوى غاضبة وتجبب بلهجة الاستخفاف والتحدي:

- كلامك يا بدر ما ينطق به غير الخوّاف الجبان. من دون باليما ما بقى لا موعد ولا لقاء... رغبتني تبين لي رجولتك واللي أنت قادر عليه. غداً جليستنا

هنا وإلا بلاش...

يحاول الشاب تهدئة سورتها واعدًا أنه سيلقن الدخيل المتغطرس درسًا لن ينساه، ثم ينصرفان.

في الغد، ها هو بدر يدعو إلى غداء في فندق حسان من أمسى يسميها خطيبته، حتى قبل إعلان الخطبة وترسيمها. وخلال تناول الوجبة، لم يكن لفدوى من حديث إلا في الغريب وكلمته: ما هويته وحالته المدنية؟ من أين يستمد جراته وجسارته وثقته بالنفس؟ كيف يمكن فك لغز كلامه؟ لم يمر انفراد فدوى بالحديث عن الدخيل من دون أن يضيق بدر به ذرغًا وينزع إلى تغيير الموضوع بترغيبها في مناقشة أجندا خطبتهما وترتيباتها. يتوقف في تحويل اتجاه الكلام إلى ما يريد، ويتم الاتفاق بينهما حول الشأن ذاته على تاريخ عقد الخطوبة الفعلية وإجراءاتها ومجراها. وفي سياق الحوار لم تجرؤ الفتاة على معاودة التعبير، كما فعلت سابقًا، عن استعدادها لوهب افتضاض بكارتها لحبيبها قبل الزواج إن أراد؛ لأنها تخشى إثارة حفيظته وسماعه يعلن عن تقديسه لليلة الدخول الشرعي في موعده، ولو ضدًا على ما يفعله الشباب من جيله. لكن طلبها الذي تلح عليه كشرط أكيد هو أن ينتقم لها ولنفسه من وقاحة المتطفل وشراسته. «أريد تفرّجني عليه»، تقول.

مدة أسبوع كامل، ارتاد العشيقان يوميًا المقهى نفسه، ولا أثر فيه للمتحرش. لكن عشية مطلع الأسبوع التالي، ها هو يقبل عليهما محييًا، فيتوسطهما جالسًا، ويخاطب الفتاة دون رفيقها: إبع جو تساقسات يان واسّ إيس إيلاغ دونيت كران - وكاز ليّ يحبّان (*).

يتوقف قليلًا إذ قاطعته سائلة عن معنى ألغازه، يجيبها أنها بتشلحيت (**). كلمته إليها في أول لقاء، ومفادها أنه بها يعلن لها حبه ويريد منها قبل ذهابه أن تعلن له حبها. وفيما هي تركل من تحت الطاولة قدمي بدر المعتصم بالصمت، سمعت الدخيل يقول:

- أنا أعرف الكثير عنك.

- كيف؟

- اللي بلسانو ما يتلف.

- وهذا راه خطيبي؟

- أنا اللي أكون خطييك غدًا لو تفضلت... فكّرني واختاري الأحسن...
اختاريني.

شيء ما يجذب فدوى في هذا الجسور المقدام، القوي الحضور والشكيمة.
سألته:

- مَن أنت؟

- أعرفك بنفسني بعدما أختلي بك.

أحسن بدر أن صبره قد نفذ، سيما وأن ميل حبيته إلى محاورة المتجاسر
يزداد، فأظهر استياءه وقال:

- الآن اذهب بسلام...

- وانت اسكت بسلام. تكلمني! واش أنا كلمتك؟

- قلت لك اذهب بسلام.

- تأمرني حبيتي بالذهاب فأطيع.

- أنت مجنون!

- مجنون فدوى... تغني لها «أونلي يو» وأنا أغني لك «لست وحدك حبيها
حبيها أنا قبلك وربما بعدك، وربما كنت مثلك»... واش سمعت عبد الحليم
حافظ يغنيها؟ نترك لفدوى فرصة حتى تختار.

مغالبا إحساسه بالمهانة وطمعًا في إرضاء الحبيبة، يباغت بدر غريمه بلكمة
عنيفة، فيحكم هذا قبضته على لاكمه بحيث يثبت على مقعده، ويقول بصوت
خفيض مهذد:

- ضربة أخرى منك وأشتت لك أسنانك... عشان حبيتي أتركك بصحتك
وأسنانك... هنا لو تعاركنا يتجمع علينا الناس ويجي البوليس، ومن بعد ما هي
وما لونها! اختر المكان والساعة، وغدًا اللي غلب الآخر يطلب يد فدوى...
إيش قلنا؟

بصعوبة جمة يتخلص الشاب من قبضة سائله، ومتحديًا يجيب:

- غدًا على باب مقبرة الشهداء، العاشرة بالليل، ومن ثم نشوف المكان الخالي من الناس.

استقام حمدان وقال قبل التوديع:

- أنتِ شاهدة على وعدو يا حبيبتي. اللي تخلف حرام يكون رجلك...

ينحني عليها، يهمس لها بكلمات، يقبل يدها ويمضي. حينئذٍ يستبد ببدر شعور حادّ بالتذمر والغيرة، ما يلبث أن يفجّرهُ في وجه فتاته وهو يرافقها إلى منزلها. يستفسرها بشيءٍ من الحنق والمرارة لماذا سكنت عن المتسلط ولم تناصره هو أو تُشهد الناس على تحرشه بها واستفزازه، وبماذا همس لها قبل ذهابه؛ ثم هدّد بالغاء فكرة الخطوبة إن لم تحسّن سلوكها وتصرح بما تريد... تحاول الفتاة إخماد فورة فتاها وتطمئنه بكلمات تحبّ رقيقة. وقبيل الافتراق، ها هي تحوشه إليها وتقسم أنها لا تحبّ أحدًا سواه، فيعدها هو بهزم المزاحم اللئيم وتخليص طريقهما منه.

في الغد أقبل الغريمان في الوقت المحدد، وانتحيا مكانًا معتمًا لا حيّ فيه، فما إن أخذوا يستعدان للمشادة حتى فاجأتهما فدوى ببروزها بينهما، لا كحكم بل كحاملة لعرض يجعل مصارعتهما غير ذات معنى. توقف المتنافسان يستوضحانها عنه، فأعلنت أن اختيارها قد فكرت فيه طوال ليلة الأمس وصباح اليوم، فوقع على أحدهما وستبلغه هاتفياً لمن فاز بها، وذلك عند الساعة التاسعة من صباح الغد من يومه السبت؛ وبلهجة واثقة صرحت أنهما إذا أصرّا على المباراة فلن تكون لأيّ أحد منهما. أقسمت أنها جادة في هذا ولن تحيد عنه، فما كان من الخصيمين إلا أن قبلا العرض فورًا وتعانقا تحت رعايتها، ثم ذهب كل واحد إلى حال سبيله.

قبل حلول الموعد المذكور كان حمدان وبدر في غرفة يلعبان الشطرنج، يؤكد الأول للثاني أنه عمّا قريب يُسقط الملكة. ولما رنّ هاتفه جاء صوت فدوى يبشره بكونه مختارها. شكرها وعبر لها عن شوقه الحار إلى لقائها على انفراد متبوعًا بعقد زواجهما. وعن أسئلتها عن متى وأين وكيف، كان مفاد جوابه: مباشرة بعد عودته من أداء مهمة عاجلة في الخارج، حدّد أجلها بعد إلحاحها في يومين أو أقل، ثم انقطع صوتها تمامًا فأطفأ الموبايل وفعل مثله بدر، ثم بالعناق والتقبيل هنئا نفسيهما على نجاح خطتهما، وعادا بعدها لاستئناف حصة الشطرنج، منشدين: يا فدوى خليك في الأمان، يا فدوى لا بدر ولا حمدان، يا فدوى هنيئاك من الشكوك، يا فدوى لا ديدي لا حبّ

الملوك... ثم اتفقا، احتفاءً بالحدث، على القيام بسفرة إلى الديار الفرنسية بعيد انصرام الموعد الذي حدده للفتاة المسكينة.

الرحلة من الدار البيضاء إلى مدريد أجراها المتواطئان بالطائرة. وفي محطة القطارات بالعاصمة الإسبانية، حاملين حقيبتيهما الظهرية، توجهتا يدًا في يدٍ إلى القطار المتوجه إلى مارسيليا حيث لهما معارف وأصدقاء. في مقصورتهم جلسا جنبًا لجنب، يتهامسان، يتمازحان، يقتاتان بما يشترياه ويشربان، يُطلع أحدهما الآخر على ما يصله من رسائل في هاتفه، واحدة من فدوى إلى حمدان تقول: «فعلت خيرًا والله. قبلت التزوج بمن هو أحسن منك. أتمنى لك السعادة»؛ وثانية إلى بدر: «عزيزي، بخصوصك شمنت من أنت مذ عرفتك. هكذا خلقت ولا لوم عليك. صاحبك كان خطي باء، والآن أمر إلى أفضل منها. أتمنى لك كل خير». تحدثا قليلًا في موضوع فدوى ثم طويلاه. حاولا معًا التعويض عمّا فاتهما من نوم، لكن حركات الوافدين على المقصورة ومغادريها حرمتها من ذلك، فشغلا نفسيهما بالقراءة تارة، وبارتياد الممرات وبعض أمكنة التدخين والمطعم تارة...

لما أعلن دخول القطار أرض فرنسا، عادا للتو إلى مقصورتهم، فألفيا ثلاثة من حليقي الرؤوس يحتلون معظمها بأجسادهم وحقائبهم، فجلسا على مقعدين متبقيين من جهة النافذة. وسرعان ما عمّ المكان جوًّا ثقيل، يُكهربه ذوو الأذرع المفتولة الموشومة بعبارات عنصرية سافرة ضد العرب، تصفهم بأبشع النعوت القادحة المحقّرة، منها أنهم همج يتوالدون كالجرذان، تحق فيهم الإبادات الجماعية حتى يتخلص الغرب المتحضر منهم، وغير ذلك؛ ثم أخذوا يثفلون على الجارين بقشور الفستق ويتنافسون في البصق والتجشؤ. تململ بدر ومدّ يده بالسلم، وقال إنه عربي وصديقه بربري، فركله أحدهم وقال بلهجة وحشية ما يفيد أنهما معًا من جنس قذر، ثم سأل حمدان باللهجة نفسها عما يريد من فرنسا، صادقًا بالشعار «فرنسا للفرنسيين»، فظل المستقرّ صامتًا، حتى إذا قام لمغادرة المقصورة أجلسه حليق الرأس بعنف أمرًا إياه بالإجابة. أجاب رفيقه مرعوبًا أنه وصديقه إنما يزوران مارسيليا للسياحة، فقهقه الثلاثي ملءً أشداقهم مرددين: سياحة! وبعدها زواج أبيض وإقامة وشغل وتغطية صحية ودفاتر توفير... صرخ بدر ببطلان ذلك فصغعه أحدهم غاضبًا: مَنْ كلمك صال بيدي! (***) عندئذٍ استنفر حمدان وطلب الخروج مع صاحبه، وإذ منعهما من فتح الباب نشب بينهم تدافع تحول إلى شجار عنيف أظهر فيه المعتدى عليهما مقاومة شرسة، لكنهما لم يصمدا طويلًا أمام تفوق المعتدين العددي وتلويحهم بأسلحة بيضاء حادة. ولما اشتد أوار المعركة أقدم واحد من هؤلاء على توجيه لكمة قوية إلى بدر أفقدته وعيه، ثم فتح النافذة وقام اثنان بإحكام القبضة على حمدان

وانهالا عليه بالضرب المبرح والسبّ الفادح للعرب، ثم رمياه خارج القطار، وهم جميعًا يردّون بحناجر تفور حنقًا وكرهًا وتغالب هدير القطار: Mort aux arabes (***)، ثم غادروا المقصورة والعربة على عجل.

لما عاد بدر إلى وعيه، وجد نفسه في سيارة إسعاف بضمادة على أنفه وجبهته، فنقلته سيارة شرطة إلى مخفر بمارسيليا حيث استيقن أنه بلا حقيبة ولا جواز ولا موبايل مائل بين محققين يستجوبانه. وبعد أن أتم لهما وصف ما عاشه في المقصورة رقم 11، سأل عن رفيقه حمدان بن بلال، قيل له إنه في مستودع الموتى بلا أوراق تثبت هويته، فأحسن المستجوب بصدمات قوية تروّعه وتنخر قواه. وظل وقتًا عاجزًا عن الكلام، يسند رأسه بيديه، يطلق شهقات متقطعة خافتة، لم تلبث أن تحولت إلى بكاءٍ حارٍّ مرٍّ. ولما هدأت أزمته سُئل إن كان له معارف في المدينة، فسحب من جيبه مذكرة وعرضها، فتم بفضلها استقدام بعضهم واستجوابهم ثم إشهادهم على جثة القتل بمعية أعضاء من قنصلية المغرب. ولحسن الحظ أن جهود هؤلاء وأولئك تضافت لإخبار أخ الميت والتكفل بنقله إليه، كما لمواساة بدر والتخفيف عنه ومدّه بكل أنواع السند والعون حتى تتم له بعد مدة العودة إلى موطنه حيًّا معافى.

وفعلًا، عاد الشاب إلى مدينة ميلاده تطوان وإلى كنف أمّه الأرملة، التي شملت دومًا وحيدها وقرّة عينها بالرعاية والحنان، لا مطلب لها لقاء ذلك إلا أن يكمل دراسته العليا ويحفظ نفسه وبقية من معاشرته المنحرفين والمارقين الأشرار من جيله.

وذات صباح يوم جمعة، قصد مقبرة بالرباط حيث يرقد جثمان صديقه المقتول، وما إن وقف على قبره مترحمًا حتى لحقت به فتاة ذات حجاب وجلياب، يصحبها شاب، وسرعان ما تيقن أنها فدوى، فعانقته وحمدت له السلامة، ثم قدمته على أنه أخوها من الرضاعة، وأنباته أنها وخطيبها سيسافران قريبًا إلى ميلانو للاستقرار بها. هناهما بدر بحرارة، وكان هذا اللقاء آخر عهده بالفتاة، لم يخلف له سوى صور أخذها لهما الخطيب على قبري حمدان وأبيها.

وجع الموت الأمضى والأمض هو المتلبس بحيٍّ فقد رفيقًا أنيسًا وحيبًا، وهذي حال بدر مع الراحل حمدان، إذ حل به حداد لا يواسى. فكان أن نكس علامات وعاداته مدة شهر ونيف في شقته الرباطية، لا يغادرها إلا غرًا لا يقنتي قوته ويهيم ليلًا وحيدًا، لا يتعرف عليه أحد وقد التحى ودأب على

تغطية رأسه بطاقية وعلى ارتداء لباس تقليدي أيام الجمع حيث يؤدي الصلاة مع الجماعة. أما سائر الأيام فيظل معتكفاً على كمدته وجرحه الحميمي.

حالة انتكاس ووهن، مثل التي يعيشها الشباب اليوم، فات أن عرفها في فترات متقطعة منذ مراهقته، فتبدو له أوقاتها بلون الرماد وطعمه، غالباً ما كانت تأتي عليه من دون سابق إنذار، أوقات يشعر فيها وكأن بطارياته الباطنية فرغت تمامًا وبادت، فيتهالك على أريكته أو فراشه، متأملاً تدافع علامات العبث البليغ، أو طلباً للنجاة يتشبت بكتاب عتيق تشبث الرضيع بحضن أمه. وهكذا أمسى يصرف ساعات طوالياً من النهار والليل متأملاً مواضيع شتى، تتقدمها آيات قرآنية وأحاديث نبوية ومأثورات تراثية، ثم يعرج على الإبحار في الآداب الصوفية، تعلوها كتابات الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.

بُعيد المدة تيك، حنَّ إلى أمه وتشوق، فقصدها في تطوان، آملاً أن يتقوى بدنوها ويتمنع. طاقة عطفها وحنانها كانت دائماً سنده وترياقه الأنجع. وكذلك كان.

متوسداً ركبتهأ حكى لها تنقاً عن وفاة رفيقه وحزنه لذلك، فما كان منها إلا أن أجلسته قدامها وصاحت في وجهه بصوت صارم حاد، يعبر عن أن أمومتها اللينة لا يعدلها إلا حزمها وقوة شكيمتها: «أنت يا بدر تحزن أيما حزن على صديق مات، فما بالك إن جاء أجلي وتوفيت؟ هل تنتحر أم تترك نفسك تهون وتصدأ... قم ودبر أمرك لما فيه خيرك، وأنا بعون الله معك، وإلا فليست مني ولا من صلبى... قم وحسن هندامك واخرج لملاقة الناس، وبعد أيام عد إلى مأواك في الرباط لإكمال دراستك والوفاء بوعدك أن يكون لك شأن وذكر».

تلقى بدر كلام أمه دفناً وسلاماً. انتصب قائماً فعانقها وقبّل يدها مراراً والدمع ينهمر من عينيه، فيما هي تدعو له بالاستقامة والتوفيق، ثم قصد الحمام حيث قصَّ لحيته أمام المرأة التي عزف عنها طويلاً، ثم تنظف واغتسل.

أثناء تجواله في تطوان، هذي المدينة الأصيلة المحافظة، كان - هو ابنها - يذرع شوارعها ودروبها وساحاتها وبساتينها بخطوات متأنية، يسترق النظر إلى مستوطنيتها من أحفاد المورسكيين المطرودين من الأندلس، ويجلس في مقهى أو يتسوق هنا وهناك، إلى أن انتهى به المطاف بزيارة أخته الكبرى الأرملة، فسلمها هداياه، واطمأن على حالها، راجعاً بذاكرته إلى ما

كان له مع زوجها الميت من مشادات كلامية وحتى بالأيدي، وذلك بسبب سوء معاملته لها وتجنیه عليها... وفي بيتها ومؤانستها قضى أيامًا ثلاثة، معزّرًا مكرّمًا مثلما يكون في بيت أمه.

بعيد أسبوعين، ارتأى بدر، وقد خفَّ حاله وتحسَّن، أن يقصد الرباط، فودَّع والدته على أمل زيارتها متى تيسر. وفي طريقه إلى محطة القطار عرج على مسجد للصلاة، وهنا راعه أن يسمع جماعة يغتابون السيدة رقية الناجي، محبوبته في الله وملهمته بفكرها العميق ومواقفها الجريئة، وعوض الدخول معهم في مشاحنات غير مجدية، انصرف إلى حال سبيله، ذاكراً في نفسه أن هؤلاء المغتابين هم، ولا ريب، من ضيقي العقول والقلوب، الغاصين حتى الذقون في التزمت والجمود. ودعا: لا جعلنا الله في صفوفهم ولا من قربائهم، إلا أن يرجعوا عن غيهم وغلوهم. ومن دون تحقق هذا الشرط، فالفرارَ الفرار، على غرار ما دعت إليه الأستاذة المحبوبة في إحدى مقالاتها المحكمة: «في وجوب الفرار من القبح».

بتاريخ هجرته إلى السيدة رقية في رباط الفتح، أرَّخ بدر عودة الوعي والطمأنينة النفسية إليه. ونِعَمَ الفضاءات التي سيسعد فيها بالتملي مجدداً بطلعتها والإنصات إلى درر ثقافتها الواسعة ولاكئ لغتها الشيقة الجذابة؛ والفضاءات هي رحاب الجامعات وقاعات الفكر والثقافة، سواء في العاصمة وفي مدن كبيرة أو صغيرة أخرى.

صار الشاب يقتفي أثر محبوبته أينما حلت بمحاضراتها أو كمشاركة في ندوات فكرية إلى جانب باحثين وازنين، ولو أنهم في اعتقاده وتقييمه لا يعدلون كفاءةً وإحاطةً وجراءة. ولقد كان يدرك أن انجذابه نحوها يفسره أيضاً سعيه إلى التشرف باتخاذها معلمة ومرشدة في زمن ندر فيه مستحقو التلمذ عليهم والتأسي بهم. أما أن يدنو منها ويفصح لها عن مشاعره ومكنوناته، فخجله المتأصل يحرث الحؤول دون ذلك، لكن أمله في لقيها ومجالستها لم يخبُ أو يندثر، بل ظل راسياً في صدره ومشغلاً.

(*) (**) جملة بالأمازيغية تعني: إذا تساءلت مرة هل في الدنيا رجل يحبك، تذكريني، إنه أنا.

(***) (**) لهجة متفرعة عن الأمازيغية.

(****) (*) يا الخنثى الوسخ!

(****) الموت للعرب.

في تقدير السيدة رقية الناجي، أستاذة الإنسانيات سابقًا، الحياة، كما رصدتها وخبرتها، معبرٌ بين عالمين: عالم نخرج إليه بصرخات الولادة، ونخرج منه بحشرجات الموت وسكراته؛ وعالم من جنّةٍ ونار هو الأرسخ والأخلد والأبقى. لكن، ومهما يكن من أمر، ففي الحياة الدنيوية فارق في الكثافة والجودة بين حياةٍ كمرٍّ خرب، ضعيفِ الوقع والمجرى، وأخرى ذات حسن وطعم ومعنى. ولكن هذه الأخرى بدورها لا تثبت على حال ولا تدوم، لكون حاملها يظلون معرّضين، ككل الأحياء، لوهن العظم والأعضاء والأوصال، ولأفعال الزمان بالخلائق. وعلى إثر كل غوص بالفكر في سبل الدنيا ودوائرها، مالت الست إلى تشبيه حياتها فيها بمسوّدة لن ينال منها التنقيح والتصليح شيئًا، إلا أن تربي النفس على الاستقواء بالإيمان والصبر والجرأة.

إلى شؤون كتلك وسواها متنوعة، كانت الست تحاول من حين لآخر جرّ زوجها الحاج المهدي، لا رغبةً في الكلام أو لإظهار تفوقها الفكري، وإنما سعيًا إلى إذابة شيءٍ ما من صقيع الصمت والروتين القائم بينها وبين هذا البعل المتقلب من قبل في وظائفٍ وسلالم إدارية؛ المتشبت بطرائقه التي شبّ عليها وشاب: الخوض في شراء السندات بالبورصة وبيعها، الإدمان على الأكل والتدخين والكحول، وأشياء أخرى من غروس حديقته السرية. فحين يكلم شريكة حياته، فبأوجز الكلمات وأقلها، ونظره مكبٌّ على آلة الآيباد أو الكمبيوتر، يستسعفها عند اللزوم في فك الكلمات المتقاطعة على صفحات المجلات والجرائد، وفي بعض الأحيان يستخبرها عن ابنهما حسام وعمله في جدة، فتجيبه بالقليل مما تعرفه في هذا الشأن.

أما هي فلم يعد ينفع نهيها له عمّا هو فيه. ويحدث أحيانًا نادرة أن تراه صاحبًا حسن المزاج، فتسأله من دون لفٍّ ودوران إن كان يؤمن بالله، فيجيبها فورًا: الله أعلم... وبالجواب نفسه يقابل سؤالها الفرعي: هل يؤمن بالحياة الأخرى؟ أما حين تستفسره بعبارات أوفر لعلها ترغبه في الحوار، من صنف: لله الكلمة الأولى والأخيرة، وما بينهما نشقى أو نسعد، وقد تتأرجح بين الحالتين ونقنع، ونحن كيف هو وضعنا؟ فلا تسمع منه إلا الجواب نفسه: الله أعلم... حجه معها مرتين لم يغير من استهتاره الديني شيئًا، كأنما اسمه المهدي هو على غير مسمى. أما حين أومات له ذات ليلة ربيعية بهية بفتور علاقتهما الجنسية بل خمودها، ردّ عليها بما أفقدها الرغبة في التعقيب وإثارة الموضوع كرهةً أخرى، ومفاده أن تلك العلاقة بعد طول العشرة والتلاحم طبعت جسميهما بالتأخي، فأبطلت حلاوة الاختلاف وطراوة المغايرة، ثم

أمست اليوم أشبه ما تكون بنكاح المحارم، وبالتالي يلزم اجتنابها... هل مثل هذا الرجل، فكرت، يستحق، إذا ما مات، القول إنه انتقل إلى جوار ربه وعفوه؟ لا، معاذ الله. والحال أن الموت نفسه يبدو بَرِمًا به كأنما هو يمجه ويعافه.

للسقاوة وجوه ومظاهر. أسبابها، كالموت، متعددة ووقوعها فادح. هذا الرجل، ترى زوجته أنه يحمل وجوده عبئًا ثقيلًا وعبئًا عِبتًا أثقل. لا ماله ينفعه ولا محاولاتها تفيد في إنقاذه. ويوم يقضي نحبه فجأةً أو بعد مرض عضال، سيبلى نعيه أبناءه الثلاثة من زوجته الأولى المتوفاة، فيهرعون من مهاجرهم إلى فراشه أو قبره ليهرقوا دموع التماسيح، وعيونهم على حصصهم من الإرث، فيذهبون بها مسرعين، ويذهب هو هباءً منثورًا، كأنه أبدًا لم يكن له حسٌّ وحسيسٌ ولم يحيَ ويوجد...

اليأس اليأس!

إلا أن يحدث العجبُ العجاب وما لا يراود الحسبان. ولعل هذا ما بدا حاصلًا بعد رجوع الحاج المهدي من حجه الثالث محملاً بالهدايا لزوجته ومقسماً لها، ويداه على المصحف، إنه بعون مطوّف أدى كل المناسك وجاهد كثيرًا في رجم الشيطان بمئى ورجم الآخر الساكن فيه. وما كانت لتصدق دعواه لو لم تره أحرص ما يكون على الاحتفال بحجه الأصح بل الأول، كما يسميه، وعلى لقاء الناس بوجه مشرق بشوش، وكذلك على إقامة الصلاة في أوقاتها والتصدق واسعًا؛ ثم بعد ذلك أمضى أوقاتًا متقطعة كثيرة يبلى البلاء الأكبر صابًا خمور كهفه بالقيلا في البالوعات ومتخلصًا من زجاجاتها بتهشيمها وتكليف من يغيبها... أفعال أخرى كثيرة أقنعت الزوجة أن البعل أخذ في تلقي تحوّل جيّد في شخصيته، ومن علاماته معاملته لها بالمودة والحسنى ومجامعتها متى تيسر.

الحاج المهدي، هكذا أضحت المرأة تسميه حصرّيًا، تشجيعًا له على الكدح إلى تمنيع الذات بفعل الخير واكتساب الفضائل. وفي مساء شتوي، أجلس الرجل حليلته تجاهه قرب مدفئةٍ حول مائدة شاي، فاعترف لها بدءًا أنه في تغييره نحو الأحسن مدين لها أولًا ولطيبه الخاص ثانيًا، الذي أنذره بموتٍ مفاجئٍ أو مرض حتى الموت إن ظل يرهق قلبه ويضربُ بصحته بدل اعتماده نمط حياة جديدة، مطهّرة من السموم والملوثات... بهذا الاعتراف وطأ ثم قال:

- خلاصي التام، يا مولاتي رقية، من جراثيمي واتساخي طوال سنوات لن أبلغه إلا بعونك. رجمُ الشيطان فيَّ بهدف هزمه ليس بالأمر الهين، فهذا رهين بقدرتي على اجتثاث ضعفي ووساوسي وجواز سقوطي من جديد في نفق الكبوات والتردي. رجائي في الله كبير وتعويلي عليك كذلك، يا وحيدتي...

دنت المخاطبة من زوجها الساعي إلى الاستقامة وأبدت المساندة والعطف والطمأنة. قارنت توفقه إلى إصلاح حاله اليوم وما كان عليه حتى أمس القريب من اجتراح السيئات واستخفافه بالقيم والأخلاق، فقااست البون بين الزمنين والمسلكين. وفيما هي تجهد في تصديق ذلك، قفزت إلى ذهنها ذكرى رجوعهما من حجة سابقة وعودته بُعيدَها إلى موبقاته المعتادة، فكان أن لَمَّح لها وهو في عزِّ السُّكْرِ بحاجته لبراء نفسه إلى تخريج سيئاتها بواسطة اعترافات يبوح لها بها. ذكرته بذلك على الفور فإذا به يصيح: هو ذا ما أريد يا حبيبتي... قرأت في خاطري والله! نيهته إلى أن الاعترافات قد تكون متبادلة ولو بنحو متفاوت، وتتوخى الشفاء والصلاح، وليس لمجرد كسر الصمت الصَّاحِّ بينهما وتذويب جليده. قيل بالأمر، شَرَطِه وغايته، فتواعدا على إجراء أول حصة بعيد صلاة العشاء ليوم الغد.

وكذلك كان، إذ صليا معًا واقتاتا بالقليل ثم استرخى كلُّ منهما على أريكته بعد إطفاء الهواتف ونصب شموع هنا وهناك. بطلبٍ منها كان الرجل هو البادئ بالكلام، فأنت اعترافاته تفاريق متقطعة، وعنت حين جمعتها المنصتة وربتها:

- غبن وضم أن يشيخ إنسان ويموت من دون أن يجد مَنْ يسمعه حاكياً له ولو نتقاً من حياته وذكريات يحسبها ذات قيمة وشأن، ثم يرحل لا أثر ولا ذكر. هذه كية عمّت في الغالب فهانت. أما الأخرى، وهي أدهى وأمر، فتخصني مع زوجتي الثانية في أواخر خمسينيات القرن الماضي، اتهمتها ظلمًا وزورًا بكونها على فراشي تلهج في نومها باسم رجل غيري؛ وإذ لم تثبت التهمة بدليل مادي، ولو أنني فكرت في تسجيل مزيف لصوتها، اختلقتُ لها تهمة أخرى، هي أنها سحرت لي ففرمتُ ذاكرتي وإلى حدِّ ما فحولتي. لم يكن من اللائق إبلاغ وكيلي ولا القاضي بفحوى هذه التهمة، فسرحتُ المرأة بإحسان لقاءً تعويض نقدي، ومن ثمَّ فقدتُ أثرها، كأن الأرض ابتلعها أو السماء غيبتها... هذا ولا حاجة بي إلى عرض مغامراتي مع العشيقات هالكات الصحة والمال... واحدة منهن كانت كلما تخبّطها شيطانها من المس أوحى إليَّ بأفعال جنونية كنت أقترف بعضها، كأي فيها مغلوب على أمري، مقود.

توقف المهدي لحظة متنفسًا واسعًا ثم شرب كأس ماء وأردف:

- وهذي فاجعة خلفت لي جرحًا غائرًا لا يندمل: زوجتي الثالثة قبلك لم تمت موتًا طبيعيًا، بل قتلها في غرفتها مجرم تسرب من نافذة كانت المرحومة تتركها منفرجة بسبب ربو عانت منه طويلًا. وحين سمعتها تستغيث تلهيئًا من وراء بابي المقفل باستصراخ الجيران من نافذتي والاستنجاد بالشرطة والوقاية المدنية عبر هواتفني، وبعدئذ هرعت إليها، حاملًا سلاحًا أبيض، فلم أجد للقاتل أثرًا سوى ما خلفه على جسمها من طعنات نافذة ضرّجت رأسها وصدرها بالدم. أخفيتُ سلاحي وانحنيت على القتيلة باكيًا نائحًا. حضر المنادى عليهم صحة بعض الجيران. عاينوا الجريمة وسجلوها، كما أخذوا شهادتي التي ركزت فيها على سرعة الحدث وما أحاط به من صمت مطبق. سُئلت عن سبب وجودي في غرفة غير غرفة حرمي، فعزوته إلى شخيري وسوء نعاسي. وعن أسئلة أخرى تفصيلية أحسنت الإجابة. وبعدها وقّعت على التقرير وصاحبت جثمان زوجتي في سيارة إسعاف إلى مطرح الموتى للقيام بالإجراءات القانونية المعتادة. وقبل مراسيم الجنازة والدفن أتاني من مركز الشرطة خبر اعتقال الجاني وسجنه في انتظار محاكمته... لكنني مع مرور الأيام والأعوام نما في صدري وضميري شعور بالندم على جبني وتقاعسي عن نجدة المسكينة فور صياحها وبما أستطيع من جهد وقوة؛ ثم سرعان ما تحول ذاك الشعور إلى آخر ممضٍ بالآثم والعار. فلم يكن يخفف عني من هذا وذاك - ولو إلى حين - إلا سماعي أو قراءتي في منوعات الوقائع لسقوط أزواج مثنى ضحايا الفتك على أيدي وحوش مخدرين، لا خُلق لهم ولا دين. أما ما كان يمنعني من عودة الطمأنينة إليّ وقبول شرور الأقدار فهو إمعاني في الإساءات إلى امرأتي المريضة تلك أثناء حياتها، منها أني دأبت على التحرش بزائراتها، وخصوصًا منهنّ السمينات والحوامل. وحين شكنتني حبلى إليها، أتاني صهري يهددني بالخصي إن عاودت. ومن ثم بُت وأحجمت...

ساد صمت رصاصي بين الجليسين، بدا الرجل فيه متأرجحًا بين اكفهارٍ صاعدٍ من ذكرياته اللاذعة الجارحة، وبين انشراح صادر عن تخريجه لها عبر اعترافاتٍ تُقال لم يعد يطيق كتمها والسكوت عنها فباح، حسب ظنه، بأرسخها وأعتاها إلى زوجة لن يكون له ما بعدها، شريكه عمره الأخيرة منذ ربع قرن، المفضلة ألف مرة على الأولى المتوفاة، مدام حوالي، هكذا كان يسميها لتصابيها في ذكر سنّها وتركيه مقروّنًا بظرف حوالي...

حول اعترافات الرجل وأقواله لم تفه الست رقية بأي تعليق أو بنت شفة، وبعد أن أحضرت وجبة عشاء اكتفت بمساءلته:

- والصيدلانية اللي شككتك إليّ مرات... والسبت عتيقة اللي زوجتنا، ادعيت أنها أختك ثم أختك من الرضاعة، في حين أنها كانت صاحبتك... لكن دعنا من كل هذا... قلت دعنا. والآن قل لي: أي مخلوق تحبه أكثر، يا زوجي الحبيب؟

أجاب على الفور، بنبرة الصدق والوفاء:

- أيعقل توجيه سؤال كهذا إليّ؟! بالطبع هي أنت، وحيديتي، لا ثانية لك. وإذن، وحقّ الله المعبود، أعدك بدوام حبّي ووفائي إلى أن يفرقنا الموت.

- الموت! موتي أنا أم موتك؟

- طبعا موتي أنا... من باب انحيازي الحار وتقديري الفائق للجنس اللطيف، على كل العتبات وفي كل الخدمات، ما توانيت أيّ مرة عن تقديم المرأة وتفضيلها، حسناء أم دميمة، شابة أم مُسننة، متلفظا بالعبارة المواتية الصادقة: من بعدك مولاتي. والاستثناء الأوحد لقاعدة اللياقة واللباقة هاته هي تلك التي تُفرض عليّ معك على عتبة الموت، حيث سأترجأك لاهتًا: أمرُّ قبلك حبيبتني! فأحيطي جثمانني بالرعاية المستحقة والحنان، واسهري على غسله وتجميره وتطيبه قبل مواراته التراب...

في جلسة ثانية جرت بنفس المكان والطقوس، بادر الزوج إلى السؤال:

- والآن يا لآ رقية، هاتِ اللي في صدرك مخزّن وما يعلم به إلا الله. هذي لعبتنا الأخيرة، لا رابح فيها ولا خاسر، لا غالب ولا مغلوب. أوراقها نرويها حتى نطويها ونرحل إلى عفو ربنا خالصين مطهرين...

ترددت الحاجة قليلاً ثم قالت:

- صفحتي معك يا المهدي بياض في بياض مخلّط بشوية قهوة...

- أعطني هذي الشوية قهوة وفوّجي عليّ بها...

- هي قطرة سوداء واحدة نزلت على بياضي، من حيث كثرت عليّ سوادك وتعديت به كل الحدود...

- قولني إيش هي، أراك شوقتيني!

- اعترافاتي قليلة وبسيطة... اللي فعلت مجرد انتقام منك... ذات مرة، شابّ غاية في الجمال أغواني بكلام حلو. أخذني إلى بيتو. وهنا أجفلت وامتنعت أن يكون بيننا شيء. والسبب: كل أثاث البيت أثاثنا إحنا. حصل عليها منك هدايا، وأنت كنت تقول لي تبرعت بها على جمعيات خيرية. سألتُه فأنكر معرفتو بك. ومن بعد خرجت، وما عدت شفتو... لكن الأهم من هذا أنّي في رحلة منظمة إلى مصر، رفضت أنت مرافقتي فيها، تعرف عليّ رجل في أحسن تقويم، وسامته وسمرتة وشيمه يا الله! تجاورنا وتجاوزنا في بعض أمور الدنيا والدين. ولما نزلنا في القاهرة عرض عليّ مصاحبتي لزيارة بعض مآثرها الكبرى فقبلت. وفي صباح يومي الثاني أعلمت رئيس وكالة السفارة أن موعدي معه يكون عند متم الرحلة. فأخذني عبد العال - هذا هو اسمه - في سيارة فاخرة وزرت معه الأهرام والقلعة والفسطاط والأزهر الشريف ومقام سيدنا الحسين ومآثر وأضرحة أخرى. وكنا خلال السياحة نتغذى في مطعم من اختياره، وفي المساء نقضي أمتع الأوقات في الأوبرا أو أحد المسارح، وبعدها يودعني على عتبة فندقتي. في غرفتي انتبهت إلى أنه عدا اسمي ومدينة سكناي ما سألني في شيء عن حياتي؛ وأنا بدوري فعلت مثله. كنا أثناء تلامنا ككائنين مجردين كتب علينا اللقاء والعشرة لأجل موقوت، فلا كلام بيننا إلا في أمور مثالية روحانية... في اليوم التالي أخذني الرجل في رحلة ليلية إلى الأقصر على متن باخرة تمنح شتى الخدمات. تعشينا معًا ثم قبل زهاب كلٍّ إلى مقصورته خرجنا إلى السطح نتنسم مياه النيل الدافقة وعبير الصحراء المتعاطمة. وفي الصباح كان في البرنامج زيارات لآثار فرعونية وفضاءات الساكنة الطيبين...

فجأة قاطعها المنصت وملامح وجهه لا تشي بأيّ اضطراب أو قلق، قال:

- خليني أتخيل البقية أو اكتبها لي في ورقة. وكيفما كان الأمر، أنا أسامحك دنيا وأخرة... ما فعلت أيّ شيء بالقياس إلى خياناتي في حقك... والله أيّ شيء... أشعر بالتعب. عليّ بالنوم في غرفتي... خلاص عجزت عنك بالمرة... ليلتك سعيدة.

راففته الحاجة إلى حيث أراد، ثم لاذت بفراش غرفتها ولسان نفسها يردّد: لن أكتب التتمة يا المهدي. أخاف على قلبك من سماعها، وكل شيء في أوانه...

في الصباح، لم يستيقظ الحاج في ساعته المعتادة. هرعت إليه رقية فألفته مصفرّ الوجه، متنفسًا بصعوبة جمّة. أحضرت السائق فساعدها على نقله إلى السيارة ثم التوجه به إلى عيادة قريبة، وفيها أجريت له فحوص كشفت

عن نتائج سيئة في جهاز التنفس والكبد والقلب. أفتى الطبيب بإبقاء المريض تحت الإسعافات والإنعاش المكثف، لكن من دون إخضاعه لأيّ عملية جراحية، نظرًا لكبر سنه وسوء حاله. قبلت الحاجة بالأمر، سيما وأن ملف سوابق زوجها يوجد بين أطباء هذي المصحة. فكرت في دعوة أبنائه الثلاثة من زوجته الأولى للحضور، فأحجمت حين تذكرت قدومهم ذات يوم من كندا بعد أن أنبأتهم بوعكة صحية خطيرة حصلت لأبيهم من قبل، ثم قفلوا عائدين على جناح السرعة ساخطين إذ وجدوه في حالة متحسنة. وحدّه ابنها حسام من المهدي كان يلبي دعوات أمه حين تقتضي الضرورة. وهذا ما فعله هذه المرة من دون تلكؤ أو إبطاء.

على غرفة المريض تقاطر زوار من أسرته وآخرون من معارف حرمه، وكلهم يتناوبون على الدعاء له بالسلامة والشفاء. ولما خلا المكان، أقبل حسام فانحنى على جبهة أبيه مقبلًا، وجلس جنبه مفتعلًا مواساته، فيما الأب يشد على يديه ويفوه بكلمات متقطعة، والأم المعبأة تروح وتجيء وتعين المسعفة على بعض الخدمات. وحين اضطر الابن إلى الانصراف قبل والديه واعدًا بالرجوع يوم الغد وإخبار إخوانه بما حدث وحثهم على القدوم سريعًا.

مع مطلع شمس اليوم التالي، استيقظت الست من نوم مضطرب فيما مسعفتان تنظفان المريض وتخلصانه من قناع التنفس، فهبت نحوهما للإشراف على تناوله أدويته وإطعامه، ملاحظة تورّد خديه وميله إلى التململ والنطق الواضح. وما إن اختلت به حتى قعدت جنبه تمسح عرقه وتحمد الله على تحسن حاله، فقربها منه وهمس في أذنها بما يفيد أنه وعدها منذ مدة بالرحيل قبلها إلى الدار الأخرى، وها هو عما قريب ينجز وعده... نهته باكية عن الكلام في الآجال التي لا يعلمها إلا الله، كاتبها ومحدّدها. فقال إن شعوره بنهايته قويّ، وترجأها أن تُتمّ اعترافها له ما دام في روحه حشاشة، وأن توجز خاتمة قصتها مع المصري الأسمر؛ لكن الحاجة امتنعت متذرعة بكون الطرف والمكان لا يسمحان بذلك. غير أنه لجّ في الطلب وألح، مقسمًا بأغلظ الأيمان أنه إنما يريد قطع الشك باليقين وليس نكران نسب حسام إليه وحرمانه من حقه في الإرث. عندئذ مالت عليه أكثر وقبلته، تسبقها دموعها على خديه وباحت: نعم... الولد مش من صلبك. فقَبَّلها شاكراً وأوصاها خيرًا أكثر من مرة بصحة قلبها، ثم همس بكلمات الشهادة، وصدرت عنه شهقة وهمد. ولم تتيقن الست أن زوجها أسلم الروح إلى بارئها إلا حين أقبل طبيب ومساعدوه فأكدوا لها ذلك وعزوها.

بُعِيد ذكرى وفاة المهدي الأربعينية وخلع أرملته بياض الحداد، أقدمت هاته على إجراء تغييرات في المنزل همت بالأسبقية نوافذه وصناديق ستائره، إذ

استُبدلت أخشابها بمادة الألومنيوم، وُقُوِّبت سماكة الزجاج حيثما وجد. وفيما العامل يياشر نافذة غرفة المرحوم، اصطدمت يده في صندوقها بأشياء خاصة ما فتئ أن سلمها إلى الحاجة التي وضعتها في كيس وخبأتها في مكان آمن من غرفتها. وحين أنهى العامل وأعوانه شغلهم وانصرفوا، سارعت إلى الاطلاع على محتويات الكيس، فيا لهول ما اكتشفت! ملفات رسائل وعقود، وأبومات صور كثيرة تظهر المهدي شبه عارٍ مع مومسات في هينات فاحشة. فما كان منها، وقد علا خفقان قلبها العليل، إلا أن سلمت الصور جميعها إلى نار المدفأة وأبقت على الملفات للنظر فيها متى تيسر. ولما هدا روعها فتشت فيها، فلم تجد مما يثير الفضول والعناية سوى نسخة من شهادة ملكية لشقة في وسط المدينة لا علم لها بها.

صباح اليوم التالي، بكرت إلى عنوان الشقة للتيقن من موقعها، لكنها لم تجرؤ على طرق بابها. عندئذٍ توجهت إلى حارس العمارة وسألته عن ساكنها مدعية أنها من الأهل، فاستغرب الرجل وتضايق، فدست في يده فلوسًا، وإذا بلسانه ينطلق: الساكن شاب أعزب، جنسه بين وبين ويخلق الله ما يشاء، أسفاره كثيرة، صاحبو رجل... ما رأيت مرّة امرأة على عتبة بيتو، والله أعلم... سألته إن كان اسمه هو المثبوت على فواتير الماء والكهرباء، فأجاب أن نعم بعد أن تسلم منها حلوة أخرى.

في الغد خالجتها فكرة انتحال هيئة خادمة حتى تتوجه إلى باب الساكن ملتمسًا منه تشغيلها، لكن سرعان ما ألغت الفكرة نظرًا لاحتمال انطوائها على تبعات لا تحمد عقباها. وعودًا عنها آثرت الطريق الأسرع والأوضح، فتجهزت بالحزم والشجاعة وقصدت الشقة طالبة صاحبها، فاستقبلها هذا بشيء من الحفاوة، لكن ما إن أطلعت على الشهادة حتى ثارت نائرتة وادعى أنها لاغية وشهادة ملكيته هو، التي أطلعها عليها، صحيحة وثابتة بالقانون، ثم أمرها بالخروج. وكان في صوته وحركاته وإشاراته ما يؤكد أنه مخنث لا غبار عليه.

عادت رقية إلى مستقرها وهي تحمد لنفسها السلامة من إحدى ورطات الدنيا، وتوطفد يقينها أن زوجها إنما باع للشباب المنزل بثمن بخس أو ملكه إياه هبةً أو ما شابه، فلا مناص إذن من إطعام نار المدفئة بالشهادة المتقادمة وبالمفات كلها.

منذ تلك النازلة والست تمنّي النفس كلّ وقتٍ في أن تكون حياتها من الآن فصاعدًا بالمعاني الفذة وبالتجليات والإشراقات حافلة، قوامها الحب والإحسان. الحب في منحناه أطوار وحالات متنوعة متعاقبة، والأسُّ واحد هو

الحسن المتظاهر في الحسن والإحسان. فهل تنسى أن الله أحسن إليها بأن بعث لها محسنًا جاد عليها بكرمه، مفضلًا التستر عما فعل والخفاء! لا، حاشا حاشا.

لكن السبيل إلى الحياة المغمورة بالحب والعطاء ما زالت من منظورها معرضة لمعيقات ومنغصات، أنتؤها وأمضاها يتمثل في ابنها حسام. فهذا الشاب منذ تجاوز سنّ المراهقة وبلغ العشرين أمسى مع أمه يعبر عن رؤيته للحياة وأمورها على نحو حادّ عنيف، ويقول إن التحاء عبارة عن شارة يحملها للإعلان عن رفضه للعالم كما يسير. حصته من الإرث أنفق نصفها، كما يقول، في سبيل نصره كلمة الله، وغرفته في البيت صارت مؤنثًا لصحابه السبعة المقربين، يجتمعون فيها كل جمعة بعد صلاة العصر، ويخوضون في نقاشات شتى، حضرت رقية آخرها، وكانت حول ظاهرة داعش وما يحوم حولها. حين دخلت عليهم وقف الجمع لها محيين شاكرين لها حسن استضافتها، ثم انزوت في ركن حيث فهمت أن لقاءهم كان له ما قبله في أماكن أخرى وأن اجتماع اليوم قد مهّد له كبيرهم بتلاوة نص في الموضوع ذاك سماه الأرضية، فقال واسع الجبهة المخضبة لحيته بالشيب:

- هذه الآن، أيها الإخوة، إضافات مفيدة حررتها لكم على هذا النحو: أولاً: إن ولايتي جون والكر بوش، مرفقتين بصعود المحافظين الجدد، قد تمخضتا عن انتصارين عسكريين في أفغانستان والعراق كانتا فائقتي الخسارات المادية والبشرية المدمرة، ومن ثم خلقتا شروط نشوء وتقوية ما يسمى الإرهاب، فصار هذا مندرجًا بالضرورة في المدى البعيد، نظرًا لارتباطاته العضوية المعقدة بالاختلالات الدولية وحالة الفقر والهشاشة في معظم أصقاع العالم. ويحق الوزير الأول الأسبق دومنيك دو قلوبان إذ صرح أن الغرب بسياسته الشرسة الجائرة هو من أنجب تنظيم داعش وهيا شروط ترعرعه وعتوه. ثانيًا: إن الأحوال الموهلة في السوء والاستفحال على امتداد جل بلدان المشرق العربي هي التي ما زالت الإدارة الأمريكية تخبرها وتعاني من واقعها وتبعاته في عهد باراك أوباما، وتعمل على مغالبتها في العراق وسوريا، سيما بعد بروز تنظيمات جهادية، أعتاها وأخطرها ذلك التنظيم المتفوق على تنظيم القاعدة عسكريًا وامتلاكًا لأرض وقواعد ولأحدث الوسائل التكنولوجية والاتصالية. وقد نزع من أن في ذاكرة معظم أعضائه وجوارحهم انطبعت مخلفات الحرب الأمريكية على العراق ربيع 2003 وأثارها الكارثية على كل الصعد، حرب تحمل على سبيل المثال رقم 700 ألف قتيل عراقي على الأقل، أغلبهم من المدنيين (مقابل 50 ألف جندي أمريكي وآلاف المعطوبين جسديًا وعقليًا)؛ إنها جرائم ضد الإنسانية! أضيفوا إليها أعمالًا أخرى مهولة: منها تقويض الجيش والدولة العراقيين عوض الاكتفاء بعزل صدام حسين

ومعاونيه ومحاكمتهم، فكان مثل الغزاة كمثل من يجتث شجرة بحرق الغابة كلها؛ ومنها تغليب الشيعة على السنين وتسليم العراق لإيران وإشعال الحرب الطائفية واستغلالها؛ ومنها ممارسة أحدث صنوف التعذيب في سجن أبو غريب الرهيب، وأفظع منه سجن جوانتنامو حيث اللون البرتقالي للباس السجناء هو نفسه الذي اختاره الداعشيون لرداء المحكوم عليهم بقطع رؤوسهم...

وفيما الرجل يشرب من كأس ماء علا صوت حسام مردقًا:

- أضيفوا إلى إفادات الشيخ ما يلي: 66 ألف طن من القنابل قصف بها الطيران الأمريكي أرض العراق وساكنتها... وتذكروا أن إسرائيل تنفرد بـ 150 رأسًا نوويًا تهدد بها بلدان المنطقة كلها... اتصاف مجاهدي الدولة الإسلامية، أيها الإخوة، بالقساوة والعنف في عملياتهم العسكرية الماحقة ما هو إلا من ردات أفعال على عمليات «الصدمة والترويع» التي أجراها الجيش الأمريكي بكل قواته أثناء غزو العراق الساحق في السنة المذكورة. وقد رأى خبراء غربيون وحتى في بلدان إسلامية أن العمل بتلك النظرية إن هو إلا صنف آخر للإرهاب.

وعقب رجل في سنّ كبير الجماعة وهيئته:

- من العجيب حقًا أن نجد تلك النظرية الإرهابية بالتسمية ذاتها عند الأشوريين القدامى في القرن التاسع قبل الميلاد ممارسة من طرف ملوكهم، أشهرهم أنستلين الذي كان يعلق الجثث مبعوجة في الممرات المؤدية إلى قصره، وذلك كيما يصدّم برؤيتها وبرؤّع زواره وطالبيه من خصومه ورعيته، فيحطم معنوياتهم قبل لقاءهم، كما هو أحد أهداف النظرية تلك. هذا وإنّ وجه جدّة آخر في تنظيم الدولة الإسلامية يكمن في انضواء جهاديين أجانب من جنسيات متعددة في صفوفها، وهؤلاء كأنما هم وفدوا أفرادًا وأفواجًا عديدين ملين نداء مفاده: يا مقهوري قوى الترويع والظلم والساخطين على الدول الفاسدة اتحدوا...

وقال شاب في سن حسام:

- أيها الإخوة، لعل ما يلقي ضوءًا كاشفًا على هذا الوضع الجديد البالغ التناسل والتعقيد هو اعتراف طوني بلير في 25 أكتوبر 2015، وشهد شاهد من أهلها إذ كانت بلاده في عهده ضالعة مع أمريكا في الحرب على العراق، ومفاد الاعتراف في شبكة CNN أن هذه الحرب هي التي هيأت الشروط والترية لنشأة داعش ونماء قوتها، فاعتذر عن الأخطاء الاستخبارية

والتخطيطية، وهي في الحقيقة آثم وخطايا. وأفضع من هذا تبرير غزو العراق بادعاء مضل أن نظام صدام حسين كان حليف تنظيم القاعدة ويمتلك سلاح الدمار الشامل؛ وللبهنة عليه أتى بعينة من الأتراكس في قارورة الجنرال كولن باول سكرتير الدولة وقتذاك، وأخذ يلوح بها في جلسة لمنظمة الأمم المتحدة؛ وتذكر في المحفل نفسه خطاب الدولة الفرنسية المعارضة لتلك الحرب، وذلك على لسان وزيرها في الخارجية دومنيك دوغلبان الذي صفق له الكثير، رغم أن قانون المنظمة يمنع ذلك. ولم تنفع هذه المعارضة في كبح جماح الإدارة البوشية وثنيها عن تحدي المنتظم الدولي وخرق موثيقه وقوانينه.

وقال شاب آخر:

- أما عموم مثقفينا فما تحادثوا عن تنظيم داعش وقبله القاعدة إلا وتباروا في إذكاء جذوة السباب الحادّ والذم البليغ في حق التنظيمين، غير مُعملين منهج التعليل التاريخي في النظر والتجليل، إذ بمقتضى هذا المنهج نتأدى إلى أن تصاعد الضغط الهيمني القهري يولد بالضرورة ردات أفعال انفجارية، من مضاعفاتها فك الارتباط الكلي مع الغرب، وخوض الصدام اللا متكافئ ضده بما يسمى الإرهاب.

وعاد كبير الجماعة إلى أخذ الكلمة:

- لكن تنظيم الدولة الإسلامية الذي يلج ويبرع في تأليب العالم كله ضده لربما لن يصمد طويلاً أمام تحالف قوى الغرب مجتمعة، تعضدها أخرى إقليمية، وخصوصاً مع دخول روسيا على الخط وكدح فرنسا إلى تلك الغاية بعد ضربات موجعة في باريس أخطرها كان ليلة 13 نوفمبر 2015. فكأنما هذي القوى العظمى تجد نفسها أمام قوة داهمة يحسب لها ألف حساب! إنما السؤال الذي لا بد من طرحه هو: هل من يقين أن تنظيم داعش (الناشئ عن تنظيم أبي مصعب الزرقاوي) لن يخلفه بعد أفوله تنظيم جديد (أو تنظيمات شتى) أشد وأعتى، يستفيد من غلو سلفه وأخطائه، وابتكر صيغاً وطرائق قتالية مستحدثة غير مسبوقه؟

ارتأت السيدة رقية أن تدفع الجماعة إلى الخارج بالتي هي أحسن، نبهتهم إلى اقتراب موعد صلاة المغرب، ففهموا التنبيه وانصرفوا مسلمين شاكرين... وبعد عودة الابن من صلاة الجماعة، مكفهر الوجه، عبوساً، انفجر في وجه أمه قائلاً:

- إخوة صالحون أصفياء وتعاملينهم بالغلظة والفتور! شرفوا هذا البيت بحضورهم، وأنت لا ترحبين ولا تهتمين. قولي إنك أخطأت فأسامحك وتقي من أيّ شر قلبك المريض...

أجابت الأم بثبات ورباطة جأش:

- عمري ككل الأعمار بيد الله... لا تساومني بصحتي، واعلم أنني لن أستقبل مرة أخرى جماعتك هنا ما حييت. أكثر لك بيتًا وافعل فيه ما تشاء. وإن أردت مساعدتي في هذا فهي لك.

صاح حسام مقاطعًا:

- لا أحتاج إلى أيّ شيء من أم زانية لوّثت أصلي وكسرت نفسي. بعض ما أفعله الآن ومن بعد له مقاصد، منها أن أتمس لك من الله العفو والمغفرة... سأجمع حوائجي ولن أراك أبدًا بعد هذا اليوم.

هرولت الأم الجريحة إلى غرفتها، جلست تبكي وتداري انفعالها الشديد واضعة يدها على قلبها الخفاق، متنفسًا واسعًا حتى تحميه من أزمة جديدة. وحين عادت إلى توازنها هبت إلى مكمن ابنها ثم إلى فضاءات البيت كلها، فلا أثر له ولا لحوائجه، إلا من كتبه ومجلاته الأثيرة ظلت على منضدته موضوعة.

بعد شهرين أقدم عليها رجلان بزي مدني، أطلعاها على أمر من الوكيل العام بتفتيش غرفة حسام والمنزل كله بحثًا عن أدلة وقرائن تزيد في إثبات رحيله إلى سوريا والتحاقه بتنظيم داعش. نفذ الرجلان ما أمرا به، ثم خرجا حاملين ما همهما من متاع الابن المتغيب، وظلت الأم المكلومة تتلقى نصيحتهما بالإخبار عنه إن هو عاد إليها. وحين اختلت بنفسها قبعت فوق فراشها، تتأمل هول الصدمة الجديدة وتحاول عبثًا تطويقها.

بقت مدة على حالها من الذهول وتدني قدرتها على التركيز والتنبه، فلم يقلل من حدتها إلا استدعاء جاءها من وكيل الملك الذي كانت لها به في ماضي الأيام معرفة. استقبلها الرجل بترحيب وحفاوة. قدم لها الشاي واستحضر معها بعض الذكريات الطريفة، ثم من دون فاصلة ثبت نظارته وعكف على قراءة ورقة استلها من ملف، قال:

«في امتحان ترقية البلاد، صرنا نراهم ونشهد أنهم يحصدون داخليًا وخارجيًا النقط الموجبة للسقوط... الساقطون الفاشلون العاجزون، القيمون على

هندسة الهشاشة والشقاء، الدافعون بالبلاد والعباد إلى فوهات الهاوية، نقول لهم بلغة حبنا لوطننا: لا وألف لا!

الحق أننا تعبنا من وجوههم ومن عشرتهم، الحق أننا ننشد المغايرة والتغيير، ونطلب التنفس خارج تاريخ عاهاتهم وتناناتهم؛ لأننا ما دمنا محاصرين بسيوفهم وتجليات جبروتهم وتعلقاتهم الجنونية بالكراسي والمواقع، فإنه لا اعتناق في ظلهم، ودونه حقول ملغومة وعقبات ملتوية كأداء وأدغال.

انظروا إليهم هؤلاء الذين يستهلكون ويهلكون، كما يتنفسون، ويستحوذون على خيرات هذه الأرض ويُجرون محاصيلها في بطونهم، ويصرفونها كتلاً من الأملاك والأموال الطائلة، ويقطفون منها متعاً شتى وملذات؛ هذا ويسعون إلى حجب الشمس بالغرايبيل والطعن في الأنوار وفي صفاء المرايا وحجية الوقائع.

إنهم الذين، فوق كل ذلك، يريدون إيهان هوية البلاد، وتحويلها إلى فصائل متباغضة متنازعة، أي إلى متفرقي القلوب ومشتتي الوجهاً والطرائق...»

توقف الوكيل فجأة، خلع نظارته، وجه لجليسته نظرات رفيقة، قال:

- خذي معك الورقة يا أستاذة حتى تنمي قراءتها في بيتك، وهي إجمالاً مقاطع من إسهامك في مهرجان خطابي نظمه حزبك منذ سنوات خلت، فلم يرق المكتب السياسي ولا دوائر أخرى كثيرة. عداؤك للدولة راسخ مكين، ولولا تقديري وحمائتي لك لكنتِ وقتذاك عُرضت على قاضي التحقيق أكثر من مرة... وأنا اليوم أريد أن أستيقن من أنكِ لم تعودي تعطيني على ابنك حسام بعد أن التحق بداعش، أي بمعسكر الإرهاب والضلال... أما إذا عاد الجانح إليك وأخفيته ولم تبغي به، فسأكون أول من يتصدى لك... هذا ما أردت أن أعلمك به، والسلام. ولا حاجة الآن لأن تقولي أي شيء، لأنني أعرف أنك امرأة فاضلة، وأنك أبداً لن تخيبي ظني فيك.

ردّت رقية على الفور:

- لا سيدي الوكيل، يحسن بك أن تسمع مني كما سمعت منك، وأن ترعى حرمتي كما أرعى حرمتك. كلماتي في رسالة قلتها منذ عهد ولى لا أتذكر لها اليوم. حرية الفكر والتعبير يصونها الدستور، ولا أرى أني إذ أمارسها أنتهك مقدسات أو ألقى بكلام السباب والقذف والتشهير... أما ابني حسام فقد حصل له ما يمكن أن يحصل حتى لبعض أبناء الأسر الميسورة، ومن دون أن

يكون لها في الأمر أي دخل مباشر أو أي مسؤولية ثابتة. وأنت، سيدي الوكيل، تعرف هذا جيدًا وتعرفه أكثر فيما يخصني... والآن أستئذن بالذهاب.

- حَقًّا ما تقولين، وحقًّا ما تنوين فعله من خير مع طلبة يزورونك في بيتك، لكن من الجيران وأهل الحي مَنْ ليسوا على رأيي...

استقامت واقفة وقالت:

- وهل لأخيار الناس أن يفلتوا من أفعال شرارهم سوى باتقائهم والعياذ بالله منهم!

وقف الرجل مآدًا يده بالتسليم، ونظراته تشي بالعطف والطمأنة.

عودًا إلى مستقرها، تهالكت الست على أريكتها، وبدافع الفضول قرأت في الورقة المذكورة فقرات أخرى، منها:

لو كانت عدالة الحياة سارية لسعينا إلى مقاضاة الطغاة بتهمة المس بحرمة الإنسان وتسفيه المبادئ والمفاهيم، والنيل من الأسس والبنیان [...].

انظروا إلى سماسرة الأوهام والمفسدين في الأرض كيف يخدعون الناس بالأمانى الكاذبة، مؤدين على صدقها أغلظ الأيمان وأخذين أوثق العهود؛ وتراهم في محافل التشدق بالكلام واللغو فرسائًا يصلون ويجولون، يملؤون الجو بالهرج والغبار، وبشحنونه بهبات التلوث والأكدار.

نيابة عنكم يا فقراء الأرض، وأصالة عن نفسي، ها أنذا أمام شواهد السلب وصوره عند أباطرة السطو والبطش، ها أنذا أهتف: لا وألف لا... لن تكونوا خدمًا أو عبايد مثقلين بأغلال الدونية والوجود الهباء، متمرغين في أوحال الزلفى والتبعية الرعناء؛ بل أحرارًا تكونون، أشداء على العتاة وأعداء النظارة والبهاء، أعداء الحياة [...].

اللهمَّ يا ربِّ قِ لساني من التخشب والمداهنة، وهبهُ عزم مَنْ يقول الحقائق مستخلصة من كدِّ البحث ولأبي الفكر، وقوِّ اللهم صمودي أمام شاهري أسلحة العسف والاستبداد [...].

في قرارة نفسها، لم تشعر القارئة المستذكرة لما فاهت به منذ سنوات مضت أنها اليوم ناكرة له أو نادمة عليه؛ لكنها في المقابل عازمة على طي صفحة ابنها وإلحاقه بعداد الفائتين المنسيين.

لا مطلب لها منذ اليوم ولا مسعى، كما فكرت، إلا الطفرة تلو الطفرة نحو
الأجمل والأجود والأرقى...

المتجردة

«في الحب وحده وبفضله يكمن، عند امرأة، البعث والتحرر من أي سقوط
ممكن، كما يكمن فيه نشوؤها الروحي».

دوستويفسكي، في قبوي

«إن دوستويفسكي، على غرار بروميتيوس لجوته، لا يخلق، كما تزوس،
عبيدًا لا صوت لهم، بل أناسًا أحرارًا، قادرين على أخذ مكانهم إلى جانب
خالقهم، ومناقضته وحتى التمرد عليه».

ميخايل باختين، شعرية دوستويفسكي

على جدار في معبد ديلفوس نقرأ عبارة منقوشة، تنبأها سقراط مبدأً فكريًا
ونهجًا، إنها «اعرف نفسك بنفسك»، وهي عندي وصية وليست أمرًا. وصية
ما أصعب العمل بها لكونها تحيل بالضرورة المعرفة الذاتية على العالم
والعالمين وشتى الحقول الماورائية! لكني، بالرغم من وعورة مسلكها
وارتجاجاته، ما زلت عليه سائرة، أنا رقية الناجي لأنه، كما جاء في الأثر، مَنْ
عرف نفسه فقد عرف ربّه. فلا أقل إذن في طوري هذا من أن أبوح بما
يحسن الاعتراف به، سيما وأني في عمري دخلت طور العدّ العكسي، وأنا
في حلّ - يشهد الله - من أيّ فزع أو رهبة.

يحسنُ الاعتراف:

أيام كنت شابة يافعة أحلم بما أشتهي وأريد، لم يكن للعالم من زاويتي
معنى إلا في اندفاعاتي ونزواتي، وفي عبادتي للغلو والدوار وشتى الأفعال
المهيّجة المبهرة.

يحسنُ الاعتراف:

مضت أعوام قبل بلوغي سنّ الكهولة، لم أكن فيها متيقنة أنني أحيا حقًا. كل
خارطة طريق كنت أختطها تفضي بي إلى التيهان وفقدان الوجهة. الزمان
الذي يمر ويوهن بات معها يرغمني على ترويض نفسي والاستماتة في محو
خططي وأثار خطاي، وذلك كيما أتشبت بأوهامٍ وفقاعات، وأغالبُ نارا

بداخلي متقدة. والعلمُ عندي وقتذاك أن ما أحسه وأعيشه وما أستطيع قوله وكتابته لن يلبث أن يتبخّر في ثقبٍ أسود، لا حدود له ولا قاع.

يحسنُ الاعتراف:

ما كنت لأرى بأم عيني وأدرك بفهمي أمورًا وأشياء في السياسة بلادي لو لم أنخرط في حزب وسطيّ الموقع والخط، كما يقول قياديوه. وكانت إقامتي في مجلسه الوطني مدة سنتين كافية لإقناعي ببنم كلمتي وانسحاق دوري أمام تيارات الولاءات المنفعية والحسابات والعقول الضيقة السائدة. وإني ممتنة لإقامتي تلك في تمكيني من مشاهدة اللامعقول متمثلاً في ظاهرة التفريخ الجرثومي الجائح الذي ينخر المؤسسات والسلوكيات، ويتجلى عبر أعراض عديدة والوباءُ واحد: المحسوبة والزبونية والتبذير في القمة، والابتزاز والفساد على صعيد أوسع، وأخيراً اللاعقاب كخاتم الدور وتكريس لواقع توالي التصدعات والمآزق. وهكذا، في أوطاننا السيئة التحرر عمومًا، نشأ صنف من أهل الدولة والوظائف الكبرى: أناسٌ ريعيون نهّازون، اتجاريون صلافي، عشراء المناصب المعبرية والتواطؤات المشبوهة. شعارهم الباطني: نحن أولاً وبعدها الطوفان. فاعتبرتُ أيَّ حكم يترك الأبواب مشرعةً أمام أولئك الخلائق هو والديمقراطية على طرفي نقيض... وهذه الأفكار والمواقف كنت في اجتماعات أو مهرجانات خطابية أعبر عنها علنًا وعلى رؤوس الأشهاد؛ حتى إذا ضاق المكتب السياسي بي ذرعًا، حسب تعبيره، وجّه لي إنذارين بوجوب الالتزام الصارم بوسطية الحزب وإلا طردت منه. لم أنتظر تنفيذ التهديد، إذ أقدمت على سلّ شعرتي خفيفةً من عجين لا طاقة لي به، متوجهةً لما خلقت له أو نديت نفسي، متمنية لمن لست من واديهم الاستقامة والصلاح، لا أعاديهم ولا أنصّب أناي وأفخّمه أمام المجتمع بكل مرافقه وممثليه ومؤسساته، كما يفعل نرجسيون طواويس ومبترجون مجانيين، نعوذ بالله منهم ومن ذلك.

هذا وإني لأترك نافذتي مواربة، ولو أن «أشرف المجالس وأعلاها هو الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد»، كما قال الجنيد، بورك ذكره.

يحسنُ الاعتراف:

المسالك الموصدة أمامي تكثرت وتنوعت، وطوق نجاتي أراه اليوم في تجريب الخلوة الخالية من سواد الآخرين الأعظم، ومن دهم ودبيهم، ومن ضوضاء عالمهم وأضجاره وأكداره وعبثياته. صحيح أن الناس لم يعودوا يمدون رؤوسهم للقطع، كما كان الأمر زمن العبودية الإرادية (التي وصفها

أحسن وصف إيتيان دي لا بوييسي)، وإنما أضحووا اليوم يتعودون على ترك إنسانياتهم وكرامتهم للدوس والإيهان، وهذا أتعس وأنكى... غايتي الأعز، ولو أظلل دونها: التجرد للارتقاء بروحي إلى إكسير الوجود وجوهره، محررةً من الموانع والكوابح والمعيقات. حلمت - كم حلمت بالتجرد! - حتى إني في إحدى نوماتي الليلية، رأيتني أتجرد من كل ماعوني وأثاثي، فأرمي به من نافذتي على أرض زقائي. وصادف ذلك أن هوى مذياعي على رأس إمام مسجد حيناً كان يقصد إمامة صلاة الفجر. ولحسن المآب ما إن رأيت الدم يسيل ملء الرؤيا حتى صحت صارخة مفزوعة.

يحسنُ الاعتراف:

حين أخلو إلى مربعي الخصوصي (بمنزل هو نصيبي من إرث زوجي المهدي المتوفى)، ففي الغالب لكي أقدر على تجلية العتبة التي بلغتها في التجرد المحرّر من نفسي الأمانة بالسوء، ومن لطخات الدنيا ومساءاتها. أتخفي كثيرًا، لا بحثًا عن حياة هادئة مريحة، وإنما فقط لأحصي عثراتي وخساراتي، ثم لألق جراحي الحميمة متحنّةً، وأحاول رأب صدوعي ورصد بوادر انعتاقٍ قد تلوح.

تلك عينة من اعترافات أخذت على مرّ الأيام تنمو رويدًا رويدًا، أدونها عفو الخاطر، من دون تكلف ولا إكراه. ولعلي أنشرها إذا استقام قوامها متًا وشكلًا فتكون، إن قُيِّض لها ذلك، من بوادر دخولي طور نفص يديّ من غوائل الحياة ومكارهها.

بعض من تلك البوادر كان أن بدا لي في رؤيا منامية أخرى، استعدت معها ذكرى فترة من حياتي السالفة، طلبت إبانها الحياة الدنيا فلم تُطاوعني، ولاطفتها فلم تُطعني. عندئذ هاجرتُ إلى شابٍّ محبوبٍ ذي جمالٍ خارقٍ مشعٍّ، تحيَّض العواتق لرؤيته، فلم أصبه. فما كان مني إلا أن انعزلت وللزهد انقطعت. فنلت على توهم في الملاحاة الروحية أو سمةً فخرية، وفي إمامة القوى الحسية ميداليات ذهبية. وما زلت أجاهد وأكابد حتى نصبت خيمتي في مقام عالٍ، واسترحت روحًا مثقلة بالمعدن الشريف والأحجار الكريمة. وحين أفقت تناهى إليّ صوت جواني يخاطبني معاتبًا: خسئت وأخطأت المرام يا ست رقية. النسك ليس من الكرنفالات أو الأولمبيات... في كل شيء اتقي حقوق الخالق في نفسك واعتبري.

كذلك حالي كان وما حصل لي منه، وبالتالي لتحمل شعوري المأساوي بالوجود، كم عباراتٍ مخففة لزمني أعمالها، وأحيانًا صنعتها! كم مدائح كان

عليّ رفعها إلى النبي أيوب العادل المعذب، وإلى سيزيف الملك الأسطوري، دافع الصخرة مدى الدهر بين سفح جبل وقمته! وكم جهود تَعَيَّن عليّ بذلها لأتلهى وأسافر برأسي وحواسي على جناحي التوهّمات والخطرات الجامحة!

أثناء محاولتي الانعتاقية الأولى، كنت أبحث عن أفكار متألّقة وهجّاجة، تنقض ناعورة أيامي وعاداتي، أفكار يتزود الغريب منها وابن السبيل كلاً أو بعضاً، ويُشهرها المستضعف والمتروك في وجه الظلمة درقاً ورمحاً. طلباً لها صرت رائدة الزوايا والرباطات في المرتفعات وفي البطاح، متجرّدة للتأمل الكثيف البعيد المدى، غائصة في تقليب فضائي الباطني، مرددة مع الحلاج قولته الملهمة النّدية، متخذة إياها شعاراً ونبراساً: «الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح، ويعود إلى الأشكال فيخبرهم عن الحال بالطف المقال ثم يمرح بالدلال طمعاً في الوصول إلى الكمال».

لكن - واحسرتها! - بعد تجريب وجوه من ذلك شتى، لم تنزل عليّ سوى أفكار متعبة قانطة أو يائسة كالحة، فقيرة الدّم والنسغ، عديمة الحيوية والريادة. وأحسب أنها كانت كلها من وحي ما أصابني من حمى مستعرة وزكامٍ ساعلٍ حادّ.

ثم أتى عليّ وقت صرّ فيه أنشد التداوي بالحكم والأفكار الشيقة حيثما وجدتها. فما دمت من مياه هذه الحياة العكرة لم أعترف في المحصلة سوى رواسب لا تير فيها ولا ديباج، فكيف لا أعمل بوصية ماركوس أوريليوس، الإمبراطور الحكيم: «انظر إلى حركة الكواكب كما لو كنت معها تدور». فشرعت كال دراويش الأتراك أدور في فضاء بيتي على نغم ذي مقامات مناسبة متدرجة نحو انصهار الجسم والروح في خفة جانحة منتشية؛ إلا أن هذا - وا أسفي! - لم يكن يتحقّق لي. فالدوران، مع قصر أمده عندي، أضحي يفضي بي إلى الدوار والدوخة، بل أحياناً إلى ما يقارب الإغماء. وبالتالي توقفت عن الاستمرار فيه، ظلماً منّي أن ذلك وقف على الرجال دون النساء أو على الأخفاء المجذوبين وحدهم، وجعلت كفايتي في الاطلاع على ما وجدته من أدبيات مولانا جلال الدين الرومي قُدّس سرّه.

وكذلك كانت العاقبة لما عطفت على بعض شيوخ الشرق الأقصى، ومنهم شيخ نُشان الكبير أومون، الذي من تعاليمه الشهيرة: «حين تمشون اقنعوا بالمشي؛ وحين تقعدون اقنعوا بالعود». أما وأنّ الشتات يلصق بجلدي وبرأسي الميال إلى التيهان، سواء مشيت أو قعدت، بل ومازحت مريدي أو

على توهم مازجته، فإنما لأقَرَّ أني عصية على نهج زاین(*****) وكل التمارين البوذية الأخرى.

على ذكر مريدي أو مَنْ أسميه فتاي، واسمه بدر، كنت للإشارة أستاذته في شعبة الفلسفة. نال شهادات عليا من جامعتي الرباط وباريس. وبعد عودته إلى بلاده، بعث لي رسالة رقيقة يذكرني بهويته ويصف سيرته ووضعه الحالي، ويختم بإعلان تعلقه الروحي بشخصي ونهجي.

من باب التحوط، تركت الجواب على الرسالة عالقا كما أفكر في الأمر مليا. وتُعيد شهرين، إذ ألقيت محاضرة عن تصوف أبي حيان التوحيدي، برز في الحضور شاب فصيح اللسان، جميل المحيا، حسن الهندام، وسأل باقتضاب كيف يكون صاحب الإشارات الإلهية هو نفسه مؤلف الإمتاع والمؤانسة، وهل ينم هذا عن ازدواجية شخصيته أم ماذا؟ ساورني حدسٌ أن يكون السائل هو بدر؛ أجبته بما يفيد أن الكتابين يدلان بالأحرى على قوة فكر التوحيدي وسعة صدره وثقافته، مثله في ذلك مثل الجاحظ من قبله وابن حزم وابن قيم الجوزية والسيوطي، وغيرهم من بعده، وعقدت مقارنات مبسطة، وشبهت مجمل التَّحَف التوحيدية بقوس قزح المستمد روعته من منحاه الشاسع النوراني، المتماسكة ألوانه ومكوناته على أحسن وجه وأبهاه، ثمَّ بالسيمفونية المتنوعة الآلات والنوطات والتوليفات، المتناغمة المتواشجة للحن والأداء؛ فصققت من الجمهور مَنْ صفق؛ ثم إنني اضطررت، من باب اللياقة، إلى الرد على أسئلة وتحفظات باهتة، حتى إذا أنهيت الجلسة، تقدم نحوي الشاب السائل، كشف عن اسمه فكان كما حدست، وقال قبل أن ينصرف: لن أياس من التشرف بمقابلة سيدتي، وهذي ورقة عليها رقم هاتفي.

كعادتي يوم كل جمعة، أتجلب وأتجلبب، أغادر صباحا منزلي إلى الخارج، أحيي مَنْ ألقاه في طريقي من جيران العمارة والحي، أدفع للحاج موسى حساب ما يزودني به من مؤن الأسبوع، وأحيانا أصطحب معي ابنه الشاب لقضاء بعض الأغراض، أتصدق بما استطعت، أعود مرضى بمشفى ابن سينا، أزور جمعية رعاية ذوي الإعاقات وأخرى للدفاع عن النساء المعنفات، وأنا مع ذلك أتحرى التكتم واجتناب التبرج والشهرة؛ وفي الظهر أؤدي صلاة الجماعة في مقصورة النساء بمسجد السنة، وفي آخرها أتبادل مع مؤمنات شيئا من الكلام الموجز النافع، ثم أقفل راجعة إلى مأواي، عابرة حديقة فيحاء، أتنسم فيها الأوكسجين وأصيخ السمع لتغاريد الطير في موطن الغروس والأشجار.

في بيتي شغلني التفكير في بدر، ملثُ إلى جواز اتخاذه عوضًا عن ابني حسام الغائب أبدًا أو المقتول، ناجيٌ نفسي: لا أحد يستطيع كسب مودتي من دون إشارات، وأجملها كلماتٌ صادقات، وفتايَ يستجيبُ لهذا. ولا أحد يستطيع إسكاتي إلا بسلاحٍ غادرٍ من عيارٍ حادٍّ، لا يخطئ الهدفَ والمراد، لكنه لا يصيب الأنوار والأفكار، إذ أرجحُ أن دعوتي إليها قد تجد مَنْ يتبناها وينشئها إنشاءً جديدًا، فيكون مطورها ومبلغها الأبين والأفيد، وفتايَ يستجيب لهذا.

هاتفته من رقمي مُقنعا، ضربتُ له موعدًا بُعيد مغرب الغد، ثم انصرفتُ إلى ما أمرنَ النفس عليه لجني ثمارِ المحاسن واللذات، لدى سادة الأقوال والأفعال الشائقة الرائقة المنيرة. وفي حضرتها وما يليها من تأملاتي الفكرية وسكراتي الروحية، يصعبُ عليّ الاعتقاد أن أنايَ مكوّن كله من ترابٍ وسيؤوب إلى التراب.

عندما زارني الشاب، بادر إلى التحية وإعلان مريدته لي واستعداده لخدمتي، مسترقيًا النظر إلى قطبي الفارسي، أمير المكان، وإلى بيتي الخالي من الكماليات والزوائد، المؤثث بما يحفظ الغذاء الأقلّ وطهارة الجوارح ونظافة المحل. وراقني - كم راقني! - قنوعه بتأملٍ دررٍ عليّة طرزتها بالحبر الملون على قطع كتانٍ لِين، وعلقتها على حيطان خزانتي بين لوحة زيتية وأخرى، منها في المقام القرآني الأول:

{ولقد جنتمونا فُرادي كما خلقناكم أول مرة}.

تليها واحدة لحبيبي المصطفى صلى الله عليه وسلّم:

«لو يعلمُ الناسُ ما في الوحدة ما أعلم، ما سار ركبٌ بليلى وحدَه».

وأخرى لأبي الطيب المتنبي:

خليلك أنت لا مَنْ قلتَ خليّ وإن كثرَ التَّجملُ والكلامُ

وهذه لابن عطاء الله السكندري:

فرَّغ قلبك من الأغبار، يملأه [الله] بالمعارف والأسرار [...] ما ينفع القلبَ شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة.

وأخرى لميشل مونتايين:

كن جمهورًا لنفسك واجلس لها...

وغير ذلك للابرويير وباسكال، ومما انضاف عبر توالي الأيام وحادثات الذات والزمان.

جلوس الزائر اللبيب قبالي متشخًا بالحياء، عاقدًا علي كأس شاي، أتاح لي إمعان النظر إلى وجهه البهيّ الوضّاء، الذي شرعتُ أرسمه على لوحة بعد استئذانه. فرأيتُ في جماله آيةً من آيات الإبداع الإلهي والوهب الرباني، وفهمتُ سرّ النظر إلى الولدانِ المُردِّ عند بعض المتصوفة، فعذرتهم إذ عندهم، كما عند سقراط مع نصير الأوصاف ألسيبياد(*****)، ليس إغراق النظر إلى الوجوه الناضرة إلا سعيًا إلى تأمل خالقها، الجميل ومحَبّ الجمال... ومَن أحبَّ الجمال أحبَّ العدل، فكلاهما وجهان لسدة واحدة وسؤدد موحد.

طالبُتُ جليسي أن يرى صورته في رسمي، فرمقها محمّر الوجنتين، ثم أن يراني كما أراه فلبّي مترددًا. قلت:

- أنت يا فتى، ربما تكون أعزب، ولك قوارير ترفق بهن. تريدني مرشدة بعد أن كنتُ في فصلك أستاذة. أخشى أن تكون ضللت السبيل إلى قصدك. فأنا لست قطبًا ولا ولية ذات بركة وكرامات، وشيوخ كلهم أموات؛ ولأني أنهل منهم وأحاورهم أمسوا عندي أحياء. أنت عن حياتي لا تعرف إلا النزر اليسير، ولا يهم أن تعرف. فابحثْ لك عن معلم غيري يلقنك ما أجهل وينفعك حيث أعجز.

ارتبك الشاب قليلًا، وتلفظ وهو يبلع ريقه ويغالب تأثره:

- قصدتك، مولاتي رقية، بنية لا أصدق منها ولا أطهر... قصدتك لا كشائبة أو عنصر إزعاج يروم تعكير صفوك - حاشا حاشا - بل لأني، وقد عشت سنة في كنف دروسك وكتاباتك المنيفة، ما زلت أستمع بأقوالك وشروحك وأنفعل، وهي ما فتئت تنزل عليّ دفنًا وسلامًا... قصدتك، سيدتي؛ لأني أرى فيك ما أحب...

- وماذا تحبّ يا فتى؟

- العزلة الاختيارية الخصبة، لا القهرية المجدبة. عزلة التفكير المعمق في الحال والمآل، في الذات أمام الآخر والعالمين، المرئي والمحجوب... وأذكر أحد تعاريفك للفلسفة أتيت عليه سالقًا بالشرح والتحليل، يقول إنها الذهاب

بالفكر إلى عمق الأشياء ما استطعنا، مع الحرص على إلحاق الشيء بمفهومه، والفرع بأصله، والجزء بكله. وما مآثوراتك الجدارية إلا إشادة بتلك العزلة الخلاقة وحث عليها.

بدا لي أنهاه عن العزلة ما دام الإتيان إليها يستلزم طول مخالطة وتطلب وكثرة تجريب ومعاينة، وهذا ما تظل سنه الشبابية دونه، فأحجمت لما أن سمعته يُردف:

- تلك هي الغاية المبتغاة، لكن السعي إليها شاق، لا يبلغها من ضعف زاده، وبهتت مشكاته، واعتلت بوصلته. وأخشى أن يصير هذا حالي إن حرمتني، يا وَلِيَّتِي، من عرفانك وأنوارك، وتخليت عني أنا القليل بنفسي، الحائر بين الطرُق والمناحي، أنا من أراني في خزانتك العامرة أحمل وزر جهالاتي الفائضة.

قلت مطمئنة:

- أنت، يا ولدي، في مقبل العمر وبداية التحصيل؛ لست في التصوف على طريقة، ولا منحى لي إلا في ابتغاء حسن العائدات من العبادة والقراءة والتأملات. خزانتى استعز منها ما تشاء، وكلامي خذ منه ما يرضيك، وسبيلك عليك وحدك بنشدانه واكتشافه... والآن قم توضاً ثم هلم بنا نتعبد.

- قبل مجيئي إليك، أجب، تطهرت وتوضأت، إذ من دون هذا لا يصلح لي المثل في حضرتك ولا التمتع بلاكى كلامك.

في غرفة صغيرة، كثيرة الستائر، ذات حوائر وسراج واحدٍ خافت الضوء، دعوت ضيفي إلى إمامة صلاة العشاء، فاعتذر قائلاً: «الأنف لا يعلو على العين. أنت مولاتي وأنا مريدك، لك السبق الأجل والفضل كله. فأُمِّي، جزاك الله، أُمِّي». استجبت، وهو من خلفي يفعل مثلي. وحين سلمت وسلم، أدرت له وجهي جالسةً، وطفقت أفرس في وجهه وخصلات شعره الحريري الكثيف، وهو لا يبادلني غير صمت الخشوع، فلا أسمع سوى أنفاسي وخشخشة سبحتي. ومن بعده جودت سورة يوسف كاملة، وأتبعتها بسور قصار، والشباب يجاريني ما استطاع، ثم رفعت عقيرتي وكفيت بالدعاء للجليليس الأنيس، وبدوره دعا لي بصوت رخم شجي.

استأذن بدر في الخروج، لربما خشية الإثقال علي، وانحنى على يدي يقبلها ثم انصرف وعيناه تلمعان بالدمع.

صباح يوم ربيعي يانع، أفقت وذهني ما زال رطبًا برؤيا منامية جمعنتي بمريدي في أذكار وابتهالات أنشدناها موحدّين، وختمنها برقصة جاذبة ناعمة... وظهرَ اليوم نفسه استأذنتي بدر في اصطحاب ثلاثة من رفاقه قال إنهم من أحبتي في الله والمتشوقين إلى رؤيتي، فأذنت. ولما أتوا جميعهم قدمهم لي واحدًا واحدًا، وكانوا أصغر منه سنًّا ولم يكملوا بعد دراستهم في الحقوق والطب. سلمت عليهم مرحبة، فانتحوا ركنًا من الغرفة وظلوا فيه قاعدين صامتين، وأنا وبدر أخذنا مكاننا المعتاد، وكان هذه المرة حول مائدة هياتها معينتي زهرة: إبريق لبن وصحون رغائف وتمر وفواكه، سهرتُ على أن ينال الثلاثي نصيبهم منها. سألت جليسي عن سيرته وحاله، فأنت أجوبته وجيزة، مفادها أنه فعلاً ما زال أعزب، يعمل بالرباط في معهد البحث اللساني، ويقضي عطله في تطوان حيث تقيم والدته وأخته، تعلم ثلاث لغات أجنبية ويهتم بتاريخ الأديان والحركات الروحية. سألته:

- وتريد تكون، يا ولدي، في التصوف دارسًا وطرقًا؟

فأجاب على الفور:

- مصداقًا، يا معلمتي، لدروسك في جدلية النظرية والممارسة، وفي فوائد المنهج التجريبي ودراسة الأمثال والعينات...

أيّده بابتسامة ثم أردفت والشبان يرنون إليّ وإليه:

- ما دمت تريدني ناصحة ومرشدة، اسمع ما حصل لي أيام كنت في سنك - اجتاز أزمة نفسية حادة، إذ خلالها لم أجد من سبيل سوى الخروج قاصدة إحدى أراضى الباطن والمشايخ. بحثت في مناكبها عن قطبي، صاحب اليُمن والطريقة؛ بحثت ليلَ نهار بالريق الناشف والمصباح. وذات مساء، صادفتُ رجلًا شديد السمر، كثيف الشعر واللحية، فهتفت: هوَ هوَ من يخلعُ عني أزمتي، هوَ هوَ من على الحلول في روعي يسعفني... شد الشيخ على يدي واقتادني بين دورب محفّرة محدوبة إلى بيت من القصدير أوقفني في بابه وقال: حظنا يا بنتي من الحياة الأوحال والظلمة. ونحن في هذا الربع نتلقى الحياة فتكون بالآلام والفتوق عامرة. ولأجل سدّ الرمق نجتري الانحراف والفساد. هزالي البادي للعيان ليس جراء رغبة في إماتة جسمي، بل لأن قوتي قُتات لا يسمن من جوع ولا يغني... أُنات النسياء التي تأتيك بالسمع أنات نساء يجلدهن أزواجهن أو الأبناء. وكما ترين كلُّ شيء في ربعا ينذر بالفناء. فبالله حدّثي عَنَّا في كل الأصقاع بلا وجل أو نقصان...

وقبل أن ينصرف الشيخ، خلّاني قربَ امرأةٍ مريضةٍ تتوجع وتعرق وتزعق... وفي الصباح رجعت إلى بلدي وتطهرت في ماء نهر، مستهجنة أزمتي، مستنكرة أيّ تبرير لبؤس البشر...

لا شك، يا بدر، أدركت قصدي: لا تكن مع ذاتك نرجسيّ الاهتمام والنظرة، ولا تتخذ التصوف مخدرًا أو زينة. بين وجدانك وعقلك أقمّ لوعيك اليقظ مقامه المستحق؛ لأنك به تزن وتستنير. وإن أردت مثلي التجرد، فبعد الكسب الشاق وامتلاك ما تصير به الواهب والمتصدق... قصدي منذُ أمدٍ مديد كقصديك اليوم: أن نسعى إلى قلب الوجود وسبر ما تيسر من أغواره، وشرطه أن ننأى عن الطرق المطروقة وأمكنة الهرج والمرج ومناهات العبث والتلهي.

سكّنتُ بغتةً حتى لا أتوغل في كلامي أكثر، فيما سامعي بيدي علامات الانتباه والفهم. ناولته مبتسمة موزة فاقتمها معي. وحين فرغ قال:

- حقًا، مولاتي، إني رجل عجول في كل مناحي الحياة. أما اللحظات النادرة التي يسجل فيها قلقي واضطرابي انخفاصًا ملحوظًا، فلا تتأخر في الإثارة منّي بإحالتني إلى دوائر الوجود الضاحّة، وإلى الانفعالات الموقوتة والخوف المستدام. لكنني مذ شُرُفتُ بالإنصات إليك على انفراد، أشعر أنني أثوب إلى رشدي والاعتزان، وأروم التجلية الموشاة بالتحلية. فامتتاني لك صادق، وشكري حارٌّ موصول.

تأكدت أن للفتى بعضَ الإلمام بالقاموس الصوفي، فرمّثُ التخفيف عنه بعد أن تناولنا تمرًا، قلت:

- كلما حلّت بساحتي الأحزان ونخعت نفسي وإدراكي، أو اتسع المعنى وضافت العبارة، تناولت في شرفتي أسطرلابي أوجهه ليلاً إلى الفلك الشمسي، فأرصد النجوم اللا متناهية والقمرَ بدرًا أو هلالًا، وإذّاك أستصغر همومي أمام عظمة الكون المرئي وما لن نراه من عوالم أخرى ممكنة؛ ويحدث لي أيضًا أن أشبّه السواد الأعظم من البشر، مع فارق في الحجم والأجل، بالزهور والفراشات السريعة الزوال؛ ثم أرجع إلى ذاتي مطمئنة، تالية {ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه}، ومرددة مع الشبلي: «ألفُ عامٍ ماضية في ألف عام واردة، هو ذا الوقت، فلا تغرّنكم الأشباح».

تململت قليلًا، شربت من لبني ثم أضفت:

- في جعبي ترياقات أخرى، منها على سبيل التمثيل فقط أن رابعة العدوية، أميرة العشق الإلهي المثني، دخل عليها جماعة يعودونها من شكوى فقالوا: «ما حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلتي سببًا، غير أنني عُرضت عليّ الجنة، فملت بقلبي إليها. فأحسب أن مولاي غار عليّ فعاتبني، فله العتبي». وهذا الشبلي أيضًا يطالعنا بهذي اللطيفة لما سئل مرة لِمَ يقول الله ولا يقول لا إله إلا الله؟ فقال: «أستحيي أن أوجه إثباتًا بعد نفي. أخشى أن أؤخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار»... وعندني المزيد من شطحات أرباب الأحوال وحكاياهم المعبر عنها بلغة الافتتان وحرارة الميل ولو بلا نيل، سأطلعك على عينات منها وتأملها معًا في مستقبل الأيام، إن شاء الله.

ترجّح الشاب في قعدته، كأنه اضطرب لما سمعه مني، فقال مرتبًا:

- وضعتي، ولتيتي، يدك المباركة على ما في أدبيات المتصوفة يدهشني ويحيرني، ولا أدري كيف أقرأ وأؤول مثلًا تهجين الجنة وجهنم معًا والتقليل من شأنهما عند البعض، ولعل أخفها، كما في علمك، ما روي عن إبراهيم بن أدهم: «اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة، إذا أنت أنستني بذرك، ورزقتني حبك، وسهّلت عليّ طاعتك، فأعطِ الجنة لمن شئت»، وغير ذلك عند آخرين؛ فهل أتبع الإمام ابن تيمية في اعتباره هذه الأقوال من هذيانات سكارى تُطوى ولا تروى، فأعرض عنها تمامًا أم ماذا؟

أجبت خافضةً صوتي حتى لا يرتاع الشبان لما أقول أو يلتبس عليهم الأمر:

- أضف إليه ما جاء في الحكم العطائية: «عجب ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل... لا أجمل، يا ولدي، ولا أنفع من سعة الصدر واتساع المعنى والعبارة. والمسألة وما فيها أن نقدر على شرح صدورنا وفتح أفهامنا وذائقاتنا أمام الإبداع الشطحيّ طيّ جموحه وفورانه، بعيدًا عن دوائر ضيّقي الصدور والعقول. حاليّ تبدى لوائحه وبوارقه كعلامات متفاوتة الروعة والإتقان، ولكنها علامات بروم الصوفي بجسمه وفكره ولا وعيه نقشها في محيطات المعاني والأسرار. وليس يهم نشأتها بل أنيتها، ولا مخاضها وتهيوها بل حدوثها الوهاج المنفجر بفعل الاضطراب والاضطرار، فتبعث ذوي الأفئدة الحري والألباب المنفتحة على الانفعال الوجداني، وعلى المتعة اللغوية والذوقية التي من ورائها مواجيد وحلاوات، وإنجازات مجازية وجمالية، وكلها قابلة للاجتناء والتلذذ أو لمن أثر وأراد للإعراض والتبرم...»

ظل بدر واجمًا منصيًا، كأنه في حالة استيعاب وتأمل. وفي هذي المرة لم أدعه إلى كنف الصلاة، ليس بسبب حضور صحبه فحسب، وإنما لكيلا أفتن

به أكثر على ضوء فطنته المشعة وذكائه القوي. ولا أظنني أفعل ذلك مجددًا،
مخافة وسوسة الشيطان وحدوثٍ مكروه ليس في الحساب. سمعته يقول:

- ليتّ أني، سيدتي، أنال يومًا قسطًا ولو يسيرًا من عرفانك الزاخر، ما ظهر
لي منه كثير، وما خفي لا شك أكثر. كلامك شائق وصمتك ناطق... من كتاب
مواجيدك الصوفية ومن نصوصك الأخرى حفظت ما شاء الله من المقاطع
والشذرات، وجميعها مُحكمة الشكل بهيته، غنية الدلالات والإفادات، منها
واحدة تزيد في تنويري كلما أعدت قراءتها... تكتبين: «أقول: أحبك مولاي
حبًا لا حدَّ له، وأتوقُّ إليك مجردةً من أوحالي وأسعى دلالة. هو نورك في
ينشرُ حيثُ وليتُ وجهي ظلاله. وأنا في فناءٍ يوميّ عابرةً أرى ذاتي منك
تحرقُني بنار الوله، أرى الكلَّ في الكلِّ لا بغيرك يحيا، وأراني ذرةً يقظى
أطلبُ السُّترَ منك والعفوَ رعاية...»

شملتُ المستظهر عن ظهر قلب بنظرات التهنئة والإعجاب، ثم أضاف
بصوته العذب الرخيم:

- عليك، يا مولاتي، ينطبق بحق قول الإمام جلال الدين الرومي: «وأهلُ
الصورة غرقى في بحرٍ كلامي/ وأهلُ المعنى رجالُ أسراري».

أجبتُه للتو:

- لا لا تقل هذا. أستغفرُ الله. أنتَ تنظر فيَّ إلى ما تحب وتترجاه، فلا تهبني
أكثر من حظي وحدِّي، حتى لا يخيب يومًا ظنك بي، فتنصرم العلاقة.

أراد بدر الكلام، فوضعت راحتي على فمه وسألت:

- عمّ تبحث في هذي الأيام؟

- عن أشياء كثيرة، لكنها متعالقة... ليلة الأمس بالمثال أمضيت ثلثها في
قراءة نصوص لتيريز دافيللا، قديسة إسبانيا القرن السادس عشر...

- حدثني عنها وعن سر اهتمامك بها في جلستنا القادمة. وبالمناسبة عرّج
على شريكها في مكان الولادة آبله قرنين قبلها، إبراهيم الأبلي، أستاذ ابن
خلدون في الشرعيات والعقليات، لم يخلف شيئًا مكتوبًا لاعتباره الكتابة
تخسير الكاغد، ولم يجد من ينقل عنه، ولو وجده لربما كان بوجه ما مثل
سقراط مع أفلاطون؛ إنما حياته، حسيما تناقله رواة منهم ذلك التلميذ
المبرز، امتازت بلحظات عجيبة مشوقة، أقصها عليك في موعدٍ آخر.

وقف الشاب وصحبه، فشيعتهم إلى الباب وهم لا يفترون عن شكري. وبعدهم قصدت الحمام فالقيلة، ثم حين فرغت عادت بي الذكرى إلى زمن أستاذيتي، كنت فيه أعقد للطلبة حلقات بيتي أو خارجه، فألحظ ميل معظمهم إلى السكوت وقلة تشوقهم إلى المسألة والمجادلة، وهكذا كان وضع رفقاء بدر في هذا اليوم.

صباح يوم شتويٍّ مطير، كانت لي مع بدر جلسة أخرى وثالثا في هذه المرة قطي. لمحت على وجهه منذ بدايتها أمارات حزن حادّ، قد يكون بسبب السهاد أو غرام خائب أو لسوء أحوال الطقس... لم أسأله السبب، تاركاً له أمر الكشف عنه أو الإشارة إليه. محاولةً التخفيف عنه، عرجت على نفسي أيام شبابي، عساه يرى فيما أذكره عناصر وقرائن تتماهى مع ما يلم به اليوم، قلت وأنا أدعوه إلى الشرب:

- وقت كنت في سنك يا بدر، وحتى بعده، كما قد أكون ذكرته لك، كم توالى عليّ حالات قنوط ونكد، أشعر معها برعشات باردة أو ساخنة، وبإعياء ووهن شديدين. طعم الحياة إبانها تغمره مرارة، والصلوات مع الغير تفتت وتذبل، و جل الأشياء في ناظري تعلوها غلالات الدمامة والعوز...

رأيت جليسي قويّ الانتباه إليّ مصحوباً بعلامات انبساط بين، كأنما فهمه أدرك في كلامي الرمز والكناية. تابعت:

- وتلك حالات ما من ذات حية إلا وتعرف من أشكالها وألوانها ومن ضغوطها وكثافتها نصباً وأقساطاً. وللناس في تحملها ومداواتها مذاهب وطرائق. فمنهم من يتوجهون إلى أطباء النفس؛ وبعضهم من يدارونها بشتى أنواع الالتقاء والتلهي؛ وآخرون، وقد أكون منهم، يتحلون بالصبر الجميل والتخلق بسير النبيين والمتصوفين.

قدمت زهرة حاملة مأكولات خفيفة لوجبة الغداء، فسألني بدر بعيد ذهابها، وقد انفرجت أساريره واحمرت وجنتاه:

- وأنت وليتي، بم تكشفين عن الغمة إذا حلت؟

- بما ذكرت في ختم كلامي، أي بتحمل أعباء الوجود والسلوك بها إلى حيث وعود الخلاص تشع وتغري. وهنا تصدح في صدري وجوانحي الآية الكريمة {ولا تقنطوا من رحمة الله}؛ ويطلُّ عليّ بعض سادة الحال والخرقة، فهذا عبد القادر الجيلاني، أعزه الله، يوصيني للإقلاع عمّا أنا فيه: «إياك والاعتیاد، إنه بئس القرين»؛ وهذا جلال الدين الرومي، فُدس ذكره، بكلامه ينهضني:

«العشق نهر فانغمري... لا تسيري مع التيار، بل كوني أنتِ التيار»؛ وهذا الشاعر والمفكر الكبير محمد إقبال يقول لي: «لا بدَّ للمكبوتِ من فيضان».

ظل الشاب على حاله من الانتباه الممزوج بالانشراح، قال:

- هي، سيدتي، بعض أعطاب الحياة توجعني، أغالبها في النهار، لكنها في الليل تتبدى لي أحلامًا أكثرها كوايبس، كلما أيقظني جراءها خفقان قلبي، أجهدت نفسي في لَمِّ شتاتها، فأتوفق مرة، وأعجز مرات...

بقيت صامته حتى يتم الجليس إفراغ ما في صدره، تابع:

- ثم إنهم الناس، بعض الناس منهم أختي، أتأذى بهم ولا أرتاح إلى عشرتهم... النمامون المغتابون ما أكثرهم! أهم المواضيع التي يتخابرون بها: هذا أفليس ومات بسكتة قلبية ماحقة، وذاك يعاني من مرض مزمن عضال، وثالث أدخل المارستان لمرض عقلي أصابه، ورابع انتحر أو قُتل؛ وحول مثل هذي الرزايا يتفننون ويختلفون في رواية متى وأين وكيف ولماذا... نعوذ بالله من لغوهم وعبث ألسنتهم وأيامهم...

- والله، يا بدر، لو حكيت لك ما عانيته مع زمر من بني الدنيا وعبادها، لأنسيتك تقريبًا همومك مع الأغيار. فعليك في هذا الحال بالتمثل والتأسي بنبينا الأكرم، ناظرًا في صبره العظيم على ما لحقه من مساءات ومكائد كان فاعلوها من بني قومه وأعدائه الآخرين. «خير الناس من نفع الناس»، فكُن من هؤلاء وإليهم، وعدا هذا لا تعبأ بالغير ولا تخاطبهم إذا كانوا في الشر والجهالات غارقين.

ترنج الجليس في قعدته كأنه تنسم أريج حريّة مستعادة، فانطلق لسانه وانذلق:

- وحق الحق، مولاتي، إني بكلامك السنّيِّ الوضاء قد شفيت. كان عليّ أن أقول ما قلت إذ، كما في الأثر، لا بدَّ للمصدور أن ينفث... أشعر الآن أنني، إذا جازت الاستعارة، سدّدت إصابات بليغة في شباك الوهن والتردي. ومن كثر ما يستخفي الفرح أحسُّ كما لو أنني فراش مفتون في حديقة نورانية فيحاء، حديقة كلماتك ومعانيك...

قمت، دعوته إلى الاقتيات واستأذنته في الغياب قليلًا. قصدت المطبخ حيث زهرة، رخصت لها بالانصراف، ثم عدت إلى ضيفي، فإذا به منكب على الأكل. وحين لمحني مسح فمه وقال متحرّجًا:

- تحسنُ حالي فتح شهيتي، معذرة سيدتي.

- لا تعتذر عمَّا اشتهيت.

قلت هذا وعدت إلى قعدتي، أردفت:

- لك ولع بكرة القدم؟

- نعم، لكن ليس إلى حد الإدمان.

- والبنات... كيف حالك معهن؟

- بيني وبينهن حجاب الستر، إلا من واحدة لا أدري إلى أين ينتهي بنا المطاف...

- وأين أنت الآن من مشروع أطروحتك؟

- فهمت منك، وليتي، في لقائنا السابق أنكِ غير متحمسة لموضوعها حول القديسة تيريزا دافيللا، والحق معك تمامًا. المؤلفات والدراسات عنها تعد بالعشرات وبشتى اللغات الأجنبية.

- حسناً فعلت... إذا خلا أيِّ بحث من الجدة فلا نصيب له من اللذة.

- صح! لديّ موضوع آخر أشوق وهو أدنى إلى مشاغلي واهتماماتي، أحد فصوله عن متصوفة ماتوا حاملين سلاح المقاومة والذود عن حمى الهوية والأوطان، وعن آخرين توفوا بسبب شغل أحدثه الزمان لهم في أجسامهم أو نفسياتهم... لكن أفضل إرجاء الكلام فيه إلى موعد آخر، حتى لا أثقل عليك وأخذ من وقتك أكثر مما أستحق.

لم أعلق أو أمتنع. قمنا معًا قاصدين الباب، وعلى عتبه تعانقنا بحرارة، ثم انحنى على يدي وشرع يقبلها ذارقًا عليها دموعًا دافئة. ضمته إليّ وقبّلته على خديه، معيدةً في أذنه: أستودعك الله يا ولدي، أستودعك الله... ثم انصرف متعثرًا.

مر شهر ونيف على آخر لقائي بيدر، ولا أثر له ولا رسالة منه. انقبضت وذهبتُ بي التخمينات والوساوس كلِّ مذهب، بل رأيتُه في المنام يستغيث بي ويعوذ. ولما حلَّ فاتح الشهر التالي طرق بابي طارق، فاندفعتُ على غير عادتي إلى فتحه بقلب خفاق ومزاج منبسط، فإذا بي أمام موسى صاحب

المتجر، تصحبه امرأة. حيتني وهي تطلعي على بطاقتها المهنية: ضابطة في البوليس الجنائي. أذنت للبقال بالانصراف، وللسيدة بالدخول. جالستني مكفهرة الوجه، وأنا أتوقع منها نبأ صادمًا. قالت:

- السيدة رقية الناجي، أنتِ ولية صالحة ذات ورع وتقوى، ما كان يليق استدعاؤك إلى مركز الشرطة. لهذا قصدتُك لإعطائي فقط معلومات عن شاب اسمه بدر الأطلسي...

- أحصل له مكروه؟

- المعلومات أولًا...

- كنت أستاذته سابقًا، وخلال الشهر الفائت زارني ثلاث مرات لطلب النصح في تعميق دراسته... شاب ما رأيت من قبل مثيله، عالي الشأن، حسن الطبع، مستقيم الخلق، شغوف بالمعرفة وأهلها...

- وآية في الجمال! هل كان له أعداء؟

- شاب بأوصافه المثلى، لا شك كان له حساد وربما خصوم... لا أعرفهم. لكن في وسطه لا أظن يوجد واحد قادر على شرّ كبير... والله أعلم.

مدت لي المرأة تقريرها للتوقيع ثم وقفت وقالت:

- خلاص، هذا يكفي. معذرة على الإزعاج... الآن إبقِي جالسة أبلغك الخبر المشؤوم اللي أبكاني أنا قاسية القلب... عصابة مجرمين قتلوه في غابة الحزام الأخضر بعدما اغتصبوه، كما أظهر التشريح... كل مصالحنا معبأة لإلقاء القبض على الجناة... نقلنا جثمان الضحية إلى أهله بتطوان منذ أسبوع. هذا عنوانهم وهذي بطاقتي. إذا جدّ جديد أخبرك... إيش أقول؟ رحمه الله ومتعته بجناته، وأنت، سيدتي، أزرِك الله وقوَى صبرك...

ثم انحنيت عليّ تقيلني وانصرفت عجلي، جاهشة بالبكاء، وخلفها القط يموء على نحو غريب. أما أنا فظللت قابعة على لحافي، خرساء من شدة وقع الصدمة، أئنُّ وأرسلُ الدموع الغزار، أحبس صراخًا فائضًا في صدري وحنجرتي، لو أطلقته لتردد صداه في الحيّ كله. هذي الليلة وما يليها: لا نوم ولا طمأنينة، لا قوت ولا شيء... أسندت ظهري إلى الحائط ورأسي بين راحتِي، فتوهمتُ جثمان بدر حذائي، وتكاثف التوهم، إذ قرّبت إلى محياه الملائكيّ رسمي السالف له، فإذا بي أتمثله في وسادة بطول قامته، وأخذت

أجهّزه وأغسله بماء الزهر، وأطيبه وألفه بإزار أبيض تجاه القبلة، ثم أهمس بما تيسر من سورة يس، وألحقها جهراً بأذكار منتقاة، وأختم برفع عقيرتي بالأدعية للفتى المتوفى، ما جادت قريحتي بمثلاتها من قبل.

كان عليّ أن أقوم بتلك المناسك، ولو تخيلاً، حتى أوججَ إيماني، فلا أجدّف أو أنطق بما يخرج عن الطور ويتاخم الشطحات المنفلتة والأقوال المحيرة. وبقيت على تلك الحال ساهرة، أرعى الجثمانَ الزكيّ في خاطري، لا يهمني من الليل وقته، ولا من الفجر انبلاؤه، ولا من جسمي حقه. ولما شعرتُ بإعياء ملح يدبُّ في أوصالي، تمددتُ مستسلمة. فما نمتُ إلا غراراً، إذ أيقظتني زهرة خائفةٌ معتذرة، فيما القط يموء مثلما لم يفعل من قبل. أبلغتها خبر وفاة الشاب دون القتل والاعتصاب، فبكت وعزّت، وانتقلتُ بعونها إلى كنفِي، طالبةً منها تقصير عملها والتستر عن الخبر.

أعضائي وأعصابي مفككةٌ رخوة، وخاطري مكفهراً كسير، فهل ولجتُ حالة تسمى الانهيار النفسي؟

الغالب على الظن أني كذلك، وإلا فما بالي أصبح السمع لهمسات هي ولا ريب من وسوسات الشيطان وتلبيساته: ما أدراك يا ولية أن يكون بدر إنما يريد اختبار حبك له بافتعال قصة مقتله وغيابه، تواطأت معه في صنعها إحدى عشيقاته مدعية أنها ضابطة في البوليس! تيقظي يا معلمة ولا تغتري بشاب من رعيتي سلطته عليك للإيقاع بك وإخراج عقلك عن موضعه...

انصرمت الهمسات الشيطانية فجأة، فعذت بالله ولذت، معيدةٌ في نفسي سورة الناس، ثم باشرتُ حجر التيمم لأنني لا أستطيع الوضوء. صليتُ جالسةً بالإشارات والإيماءات، كما يبيح الشرع للمعوّقين والمرضى. حاولتُ شحذ ذهني بالأفكار المنهضة المقوية، فما أفلحت إلا في اعتبار انتكاسي واقعاً لا يلزم أن يستشريّ ويتمكن، ولا أن يطول ويصول. رجّحت أني بموت بدر ممتحنة، فإما غوصٌ في ياس مهلكٍ مثل، وإما صمودٌ ثابتٌ وصبرٌ أيوبيّ جميل. وهل أقبلُ بغير ما يزكي النفس ويرفعها، ويحول دون تخيبِ ظنّ الشاب بي، أنا المؤتمنة على خلقه وأقواله وحسنه!

في غمرة مناجاتي وترويض حدادي، مددتُ يدي إلى إحدى جواريري المملأ بنصصي غير المنشورة وبخواطري المخطوطة، فاهتديت بلا عناء إلى ما بحثتُ عنه، وشرعت للتذكير المجدي أقرأ بعضه بتؤدة وتأمل:

«حيث ينمو الخطر، ينمو ما يُنقذ»، خلافاً لهذه القولة الحماسية لهولدرلين، أنا ممّن يرون الأخطار تتصاعد، وعوامل الإنقاذ تتناقص، والأزمات تشتدّ ولا

تنفرج. لكن، بالرغم من مكانن، بأسى المتناسل، لا أقدم على الانتحار، كما فعل الشاعر العظيم ذاته، ولا أمضي أوفر أوقاتي قلقةً أو مخوفةً نفسي بنفسي، ولا أجعل كفايتي، على سنة أبيقور، في شرب خمر عني تحت ظل زيتونتي؛ بل منتشية بتشاؤمي الناشط، سأجعل همتي في استئناف رياضاتي وإنعاش جسمي وتقوية عقلي، وفي مناهضة الشرور والمظالم، والانخراط أكثر وقدر المستطاع في تصاميم إرساء القيم المثلى وصحة الأرض ومن عليها... سأعيد عمًا قريب ربط الصلة مع من تنهضني كلماتهم، وتدلني على خيار الخير أفعالهم، وهم عندي أقلية وقلّة. ومنهم قفز إلى ذهني الشيخ أبو الحسن الششتري منشدًا: «يا فقيز اسمع ما تعمل/ ته على الأكوان وادلل/ ليس ثم شيء منك أجمل/ واقطع الأغيار/ وافهم الأسرار/ وادخل المضمائر/ وترى الماضي والآتي/ أطيب ما ه أوقاتي/ حين نكن مجموع مع ذاتي/ جل بأفكارك وانتزه/ فالوجود كلو لك منزه».

بحركة عفوية سوّيت قعودي، وبإشارات شبه رياضية من يدي ورأسي هتفت: أدعية أدعية!

يا خالق العوالم ورب العالمين! نقرأ خاشعين في كتابك المبين (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)، وفي الإنجيل: «ما بالكم تسحقون وجوه الفقراء وتطحنونها طحنا»!

اللهم يا ربُّ كُن لي أنيسًا وسندًا، ولا تكلني إلى ما أنا به قليلة: نفسي وأنفاسي، وروحي الحزينة الجريحة.

اللهم يا واهب الحياة وفارج الهم، فرّج عن عبادك الأبرياء البررة، وفي هذه الدنيا قبل الآخرة أنزل عقابك الشديد بالغايبين المغتصبين، وبالأشرار الطغاة المجرمين، كما فعلت بأصحاب الفيل، ومن قبلهم بال فرعون إذ أرسلت عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم...

اللهم، كما فعلت بهؤلاء وأولئك، أمطر جنة هذا العصر ومفسديه بما يصعقهم من سمائك ويجتثهم من على وجه الأرض ويدمرهم تدميرًا...

إنك أنت المعين ونعم الوكيل وعلى كل شيء قدير...

ظللت بأدعية أخرى أناجي ربي، ثم ما لبثت أن هاتفت للضابطة السالفة الذكر، أستخبرها عمًا جد في ملف بدر القليل. فردت عليّ بلهجة التبرم أن ملفات كثيرة كملفه ظلت سنوات قيد البحث دون نتيجة، وبعضها لشخصيات عمومية مرموقة، وختمت، إنهاءً للمكالمة، أنها ستبادر هي إلى إعلامي بأي

جديد وأن لا فائدة في أن أركب رقمها مرة أخرى... أطرقت محزونة، محاولة امتصاص فظاظة الضابطة وقساوتها، حتى إذا طرقت زهرة بابي تسلمتُ منها رسالة، وحين عرضتُ عليّ قضاء أيام معي في البيت، طمأننتها على حالي وصرفتها إلى مستقرها. فتحت الرسالة فذهلت لكونها من بدر، مؤرخة بيوم أو يومين قبل اغتياله، تقول بعد البسمة والحمدلة:

«وليتي ومالكة مهجتي،

قبل أن أتعرف عليك، كلُّ مسراتي كانت قصيرة الأمدِ عابرة. واليوم، يا مرشدتي، أرفعُ إليك آياتِ امتناني وشكري على ما زلتِ تسدينه لي من نعم وملاطفات. وإنِّي لميَّالٌ إلى كتابةٍ مديحٍ حارٍّ للحب المستدام، أهديه إليك، أنتِ وحدكِ، يا ينبوعَ اغتباطي وملذتِي، يا قيمتي المصانة بين حشاي وأضلعي...

بالأمس سهرتُ الليلَ ثلثه محاولاً تعميق فهمي لسورة يوسف، مستعيناً بتفاسير أئمة أجلاء. وكنت كلما تقدمت، اشتد تأثيري وإعجابي بدفق معاني السورة وثراءِ صورها ومجازاتها. ولا أدري هل يغفر الله لامرأة العزيز ويقبل توبتها. أما في هزيع الليل الثاني، فقد قرأت ما استطعت من الفتوحات المكية في الطبعة التي أعرتني إياها مشكورة، فنهلت من درر هذي الموسوعة النورانية ما اتسع له فهمي، واعدًا نفسي أن تكون لي مع الشيخ الأكبر ابن عربي مواعيد وجلسات مدى الحياة.

وفي الليلة التالية، لما عرجت عليّ مقالاتك حول وحدة الوجود عند عينة من فلاسفتنا ومتصوفينا، استخلصت أن كل الطرق مهما تكثرت وتشعبت إنما تفضي إلى واجب الوجود وعلّة العلل، مبدع الأكوان والسموات، ما ظهر لنا منها وما بطن، ومنشئ الأرض وما عليها، هو الله، تعالى عن الجهوية والتبعص علواً كبيراً.

والشرطُ المائزُّ الأکید لكلِّ الساعين إليه أن يرتقوا لكي في حضرته الجلالية يلتقوا. ومن أعوزه ذلك أو تخلف عنه، فلا انجذاب له ولا شهود ولا نظر. وقياساً على هذا، ليس بحثُ الناس عن السعادة، في الغالب الأعمّ، سويّ كيفهم مع أهون الشرور أو تمدداتهم على أسرة التلهي والغفلت. إنهم حقاً نيام، كما في الحديث، فإن ماتوا انتبهوا. أستفسرك مولاتي في هؤلاء.

وتقبلي أسمى عبارات إعجابي وإكباري.

محبك في الله وفي نفسي ومريدك الأوفى بدر الأطلسي».

أجبتة فورًا وعفوَ الخاطر، بعينين دامعتين وقلب محزون: أرجح ذلك يا عميقَ الفهم، خصوصًا عند الذين استنزفوا قواهم، طوال حياتهم، في معاودة الحركات والطقوس نفسها، والتلف في أفعالٍ هي والعبثُ سواء، أو عاشوا - وهذا هو الأدهى والأمر - في تهجينٍ وازدراءٍ للذات الفردية والجماعية مستميتين مقوَّضين.

غَدًا، لا بد أرحلُ إليك، أعزِّي أسرتك، وأخصُّ قبرك بأدعيةٍ نابغة من أعماقي وحبِّي لك... نعم، غَدًا موعدنا يا بدر، يا أعزَّ مريد. وبعده سأظل لملفك متابعة، حائلة دون إهماله وتقادمه، مطالبة بالكشف عن الجناة لمقاضاتهم؛ فإن توفقتُ فيها ونعمت، وإلا فحسبنا الله ونعم الوكيل، وموعدنا معهم يوم الحساب الأعظم، أمام ربنا الذي لا يظلمُ مثقالَ ذرة وبمهل ولا يهمل... وفي هذه السنة عينها سأعتمر إن شاء الله إلى الديار المقدسة، وسأرفع ثمة عقيرتي الحارة بالدعاء لروحك الطاهرة ولكافة المؤمنين الأتقياء الصادقين.

أثناء عمرة قصيرة ميسورة، دعوت كثيرًا للرجل الخيّر المحسن إليّ، الدائم الحضور في ذاكرتي وذهني، ولروحَي ابني حسام ومريدي بدر وكل الأحبة الطاهرين. وبعده شرعت في إنجاز ما وعدت نفسي به متقلدة أمر البحث في مقتل بدر غيلةً واغتصابًا وكشف هويات المعتدين. عرضت القضية على محام لي معه نسب، معروفٍ باستقامته وحسن خلقه. وبعد مضي مدة على فتح الملف، أنبأني وكيلي أن القضية أمست شائكة بل آيلة للإغلاق بسبب أن الجناة لم يُعثر لهم على أثر، فضلًا عن كون أيٍّ أحد من أسرة الضحية لم يرفع دعوى ضد مجهول؛ كما أطلعني على أن رحلته إلى تطوان للتقصي أسفرت عن معلومتين معيقتين قضائيًا: الأولى أن أم بدر توفيت بعيد مقتل ابنها؛ والثانية أن أخته حين التقى بها خاطبته بكثير من الجفاء والفظاظة، وحملته رسالة شفوية إليّ، مفادها: إما أن أبتعد عن شأن أخيها وأحجم، وإما أن ترفع ضدي دعوى بتهمة التغيرير به وإفساده زمنيًا قبل موته. وختم المحامي كلامه: «قد تكون الأخت ارتاحت لما حصل لبدر طمعًا في الاستفراء بالإرث، وقد تكون قبضت دية مقابل سكوتها المطبق، والله أعلم!» ثم نصحتني بنسيان القضية وطبي ملفها تمامًا. لكني لم أعمل بالنصيحة على الفور، بل تفانيت في البحث والتقصي لدى عميد الكلية الجديد والوكيل العام وبين صحاب المتوفى الذين دعوتهم إليّ مرتين لسؤالهم والنظر معًا في الفاجعة من كل وجوها، لكن لا شيء بدا مما يمكن الاستضاءة به أو البناء عليه.

اليأس اليأس.

حرقه العجز أبكتني في أمر بدر، أعرف أشياء من مبتداه وأظلم دون الخبر عن عقده وعلله. ولذا أدمعت عينا، وبالبكاء أجهشت أيامًا عددًا وحدي، لا تؤنسني فيما أنا فيه إلا زهرة وقطي، ولا تصدر عني إلا حركات لا بد لي منها، إذ على قيد الحياة تبقيني.

هل يجدر بي أن أظل مقيمة في دائي الذوي، واهنة العزيمة، نواحة في باطني، ولهانة ذاهلة، منهكة الكيان، كليلة اللسان، أستعجز القدرة على النهوض والنسيان، ولا أستبعد، من جهة قلبي العليل، فُجاءات الموت؟ بهذا السؤال توجهت علي توهم إلى ذاك المحسن إلي الذي لن أنساه ما حييت، فحسبته يجيب: أمثلك تسألني وأنت أقرب إلى الله مني، بل الله أقرب إليك من جبل الوريد! تعززي بحق الحق ولوذي. أدبري عمًا أنت فيه، وعليك بشيء من الخلطة.

كلام الصوت سديد، عميق الغور، يكشف لي أن خلواتي لم تبلغ بعد المقام النوراني الأرقى، إذ كنت في بعضها أقبض على نفسي غاصة في فيض الأخبار والحادثات، أو مواجهة وسوسات الشيطان وإغراءات هبات الأخيلة الجامحة السائبة. واليوم أستذكر تنبيه ابن عربي البليغ: «من خلا ولم يجد فما خلا». فلو خلوت، كما يجب، لوجدتني في الحضرة الربانية أتقوى بالصبر على المكاره والمحن، والصبر عند العارفين ملح الحال، والمتحلون به، مقرونًا بالرجاء وتأويل الخير، لهم على أنفسهم سلطنة واقتدار. وأنا منذ اليوم على الله أتوكل للتمثل بهم واقتفاء أثرهم... أما نصح الصوت لي: عليك بشيء من الخلطة، فلعل معناه أن أزيد في حصتي منها أو في ممارستي لها.

بعيد بضعة أيام، تلقيت دعوة من جمعية مدنية لإلقاء محاضرة في موضوع أختاره، يكون له طابع اجتماعي وثقافي دأبوا على تكريسه وتبريزه. قبلت الدعوة من دون تلكؤ أو إبطاء، طالبة من المنظمين أن يكون اللقاء مفتوحًا على متن مداره المسألة النسائية اليوم، وفي ذهني رسمت لكلامي خطة محورها: المرأة أمام معياريتها.

وجدت القاعة حين دخلتها غاصة بجمهور أكثره نساء لم يقصروا في الترحيب بي بالتصفيق والتهتاف. جلست بين مسيرين، رجل وامرأة. بادرت هاته إلى افتتاح اللقاء قائلة:

«أيها الحضور الكريم، باستقبالكم الحار لمدعوتنا الجليلة الأستاذة رقية الناجي تسهلون مهمتي في تقديم سيدة أمست حقًا غنية عن أي تعريف.

لكن اسمحوا لي بكلمة وجيزة يحسن بكم أن تعلموا فحواها، وهو أن الماثلة أمامكم من علامات تواضعها أنها لا تقبل أن تُسمَّى العالمية، موصية بوقف هذه الصفة حصرياً على المتخصصين والخبراء في العلوم التجريدية الخالصة والتجريبية الدقيقة، وعلى الباحثين في عالم الاكتشافات والاختراعات، أو على مَنْ في تاريخ الإسلام المعرفي يجمعون، بقوة التحصيل والفهم والإنتاج بين حقول شتى من فقه وفلسفة وأدب وتاريخ، إضافة عند بعضهم، إلى الطب والرياضيات والفلكيات وسواها. أما هي فتقول عن نفسها: أنا ولية وربما فقيهة وبس، تاركة لهذا الفقيه أو ذاك أن يصف نفسه أو يدع الآخرين يصفونه بالعالم المقاصدي أو العالم النوازلي أو العالم الفروعِي، وغير ذلك من التسميات التي ما أنزل الله بها من سلطان... والله الموفق للصواب».

تناول الرجل الكلمة وقال:

«عطفًا على ما تقدمت به زميلتي في هذا اللقاء المفتوح، أكتفي، لفتح شهيتكم، بمساءلة ضيفتنا الفهيمة: تأبين، سيدتي، أن تُنعتي أيضًا بالمفتية أو أن تجيبي عن كل الأسئلة في كل القضايا التي تقرّين أن ليس لك بها إحاطة ولا دراية. فهل لك أن تفسري لنا موقفك هذا؟»

بعد الحمدلة والتسليم قلت:

«هذا جوابي والله أعلم: إن الاختبار التاريخي للفقه يمر في المقام الأول عبر السؤال. والحال أن الأئمة - ودونهم الفقهاء - كانوا يعجزون عن الإجابة عن كل الأسئلة المطروحة عليهم. وأستشهد بالآية الكريمة الموجهة إلى نبينا الأمين ﴿وبسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، كما يطيب لي في هذا السياق ذكر كلمة الإمام الحجة أبي حامد الغزالي: العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري. وأستشهد أيضًا بحالة إبراهيم التيمي الذي كان إذا سُئل عن مسألة بكى وقال: لم تجدوا غيري حتى احتجتم إليّ. وكان في الفقهاء مَنْ يقول لا أدري أكثر مما يقول أدري، منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس والفضيل بن عياض».

ضجّت القاعة بالتصفيق، وحين هدأت تابعت:

«كنت في مناظرات حضرتها أسأل في أمور مختلفة لها علاقة بوضع المرأة وأحوالها. وكلما طولت بفتوى امتنعت عن التفوه بها، إلا أن تُقدّم لي في صيغة سؤال لا يستتبع بالضرورة الجواب الحسم، ولا ادعاء الإتيان بعين اليقين. وتعلتي في ذلك مأثورة فقهية: مَنْ أفتى قبل أن يتعلم كَمَنْ تزبّب قبل أن يتحصرم».

فتحت المسيرة النقاش، فجمعت الأسئلة ومحورتها. رأيت أن أكثرها تنوعت ألفاظها والمعنى واحد، أجبت:

«إن المرأة، كما أجمعت عليه أبحاث كثيرة وتقارير دولية، معيار كل تحول تموي وديمقراطي، وبالتالي من لا يقبل بهذه المعيارية ومصداقيتها، فإنه يخس منزلة المرأة ويسهم في جعلها عرضة لشتى السلوكيات المشينة المهينة. وعليه، فإن من أوجب الواجبات هو الارتقاء بالمرأة إلى معياريتها عبر مسالك الاستحقاق والتقوية الذاتية وكل ما يحميها من الهشاشة والضعف. وهذا معناه ومؤداه لزوم تأهيل النساء معرفياً وسياسياً لنيل حقوقهن في المساواة، ولا أقول المناصفة التي هي كلمة كمية ربعية».

وفيما تنفست واسعاً مضيئةً عناصر ومعلومات، لاحظت تنافس أقلام على نسخ ما أرتجل القول فيه، أردفت:

«بموازاة مع ما تيسر لي قوله، واعتباراً لكون أمس ما نحتاج إليه في حياتنا المدنية والسياسية يقوم في البعد الجمالي والحضاري، فإن المرأة، من حيث مؤهلاتها واستعداداتها، قادرة على الإسهام في تنمية هذا البعد وتحويله إلى واقع معيش، سواء في إدراكاتنا وتمثلاتنا، أو في علاقاتنا الإنسانية والثقافية. والقصد المطلوب هو إخلاء رحابنا ومجالاتنا من مظاهر التصحر الذهني والذوقي المتفشية، ومن تقاليد وعادات البداوة المترسبة. وكل هذا يفترض بالطبع حضوراً للمرأة قوياً فاعلاً في المسار الثقافي والعلمي، تحصيلاً وبحثاً وإبداعاً».

انتظرت المسيرة نهاية التصفيقات على ما ذكرته وحشيت عليه، فقالت باسمه منشرحة:

«علاوة على اتصاف الأستاذة بحسن الأحدثه ولين الطبع ولطف المقال، فقد عُرفت بميلها إلى المرح وروح النكتة. ومما رُوي عنها بهذا الصدد كثير، معظمه عن فقهاء الكوفة، منه للتمثيل أنها سُئلت مرة عن امرأة صعِدت سُلماً، فهدها زوجها: إن صعِدتِ أكثر فأنتِ طالق، وإن نزلتِ فأنتِ طالق! فما تُراها تفعل؟ قالت ضيفتنا جذلي مبشورة: تطلب من بعلمها أن يضع السلم أرضاً وهي عالقة به، وما إن يتم لها ذلك حتى تستقيم فترمي به أو تهدد، وهكذا لا هو حنث ولا هي طلعت أو هبطت، وإنما ضحكت على ذقنه وجعلته عبرة لكل طاغوت لئيم».

أجبت عن أسئلة بؤبتها المسيرة، فنال ما قلت قبولاً وتصفيقات، وبعدها قام رجل عليه سمت الورع والتقى وقال:

«حياك الله يا مولاتي وامتعك بالزَّوْج والراحة، وأنعم عليك بالجننتين... أسألك رأيك في بعض فقهاءنا من ذوي التزميت المذموم واللج في الجمود على الموجود، وراكبي الفقه والفكر عوجًا، هذا يخاطب الجمع بالتهر والخبط على الأرض بعصاه، وآخر يكفر ويتوعد لا أنعمه الله، وآخر يفتي بفظائع مشيئة، إذا وصلت إلى الناس فبعضهم يتقززون وبستلطفون، وبعضهم يتندرون بها في جلسات السمر والمجون. ومع هؤلاء الفقهاء المزيفين وأمثالهم ندرك الوجه المزبلي المقيت ليوتوب وفوضاه السائبة اللعينة».

اكتفيت بالتعليق إذ قلت:

«هذا سؤال يا شيخ أم جواب؟!»

فضحك من ضحك؛ ثم عجت القاعة بأسئلة أخرى حول تعدد الزوجات والزنى والإرث والتحرش الجنسي وعقوبة الإعدام والأمازيغية، فما كان من المسيرة، وقد أحست بتضايقي إلا أن تدخلت بصرامة وقالت:

- مهلاً مهلاً أيها السيدات والسادة. لقد أكثرتم على ضيفتنا الجليلة من الأسئلة في شؤون يلزمها لطرقها ساعات عديدة؛ ثم بالله عليكم، أما اطلعتم فيها على دراساتها المعمقة الوافرة! قوموا بهذا الواجب أولاً، وبعده لنا أن نقيم لقاءات تلو أخرى، فكل شيء في وقته وموعده.

كان لتنبه المسيرة دور حاسم في تهدئة القاعة وترشيد جوها، فشعرت بعودة خفقات قلبي الحادة إلى اتزانها، سيما بعد أن عمّت التصفيقات الحارة، فاغتنمها المسيران فرصة لمطالبتي بكلمة أخيرة.

قلت: «أما كلمة الختم فهي في صيغة دعاء: اللهم يا ربُّ ق هذا البلد شرور التمزقات اللسانية التي ما سواها يبعثر الكيان ويقوّض القوام. فاللسان في كل جسم حيّ عضو محوري لاجمّ واحد، لا هو بالمتنى أو المثلث، إلا أن يكون مشوة الخلق، معطوب الوظيفة والأداء... وكلمة لا بدّ منها شكرٌ موصول للجمعية وقيميها ولكم جميعاً نساءً ورجالاً».

وبعدها شكر المسيران الحضور على مشاركتهم المفيدة وانضباطهم، ثم تحت موجة من التصفيق ممزوجة بشيء من الصفير، رافقاني من باب خلفي إلى مكتب الرئيس لحفل شاي، وأنا أحمد الله في نفسي على حسن المآب.

في طريقي إلى بيتي شعرت بضيق يستبد بصدري وضغط في الدم يصيني بدوار وضبابية الرؤية. أوقفت سيارتي لألتقط أنفاسي وأرش وجهي بماء الزهر. ولما هدأت قصدت منزلي ففراشي حيث تناولت دوائي؛ إلا أن الأزمة عاودتني أشد من الأولى، فبادرت إلى قول الشهادتين وترقبت رجوع روعي إلى باريتها طيعةً راضيةً...

(*****) zen: من التمارين البوذية لترويض الذهن والجسم.

(*****) Alcibiade (*) : مرید سقراط (القرن الخامس قبل الميلاد). كان بينهما عشق مثاليّ أفلاطوني.

عودة الراوي

1

عملًا بتعليمات الطبيب المشار إليه آنفًا، شرعت كرةً أخرى في وضع دماغي على محك ملكاته، بدءًا هذي المرة بالذاكرة، وذلك من خلال محاولة استحضار أحداث ومشاهد عشتها في فترات مختلفة من حياتي. ولأسباب لا أدريها تصدرت الاستذكار قصة لن أنساها ما حييت، وهذا نصها وفصها بعد أن حررتها على أوراقِي:

من أحد أساتذتي القدامى، إدريس الشامي، كان أن وصلتني رسالة بريدية مضمونة، فعجبت كيف أنه اهتدى إلى عنواني، وعجبت أكثر لعرضه عليّ اللحاق به في بيروت لشغل منصب قارئٍ مصحح، مقابل راتب لا بأس به وتعويضات عن مصاريف السفر والإقامة. كيف لا أستجيب والسأم وقتذاك كان ينقع نفسي وإدراكي، وترباق السفر والمغامرة يغري بي!

بعد شيءٍ من التفكير، بادرت إلى التعبير له عن قبولي للعرض مشفوعًا بآيات شكري وامتناني. وفي نفسي راهنت: إما ربح واستفادة، وإما خيبة أمل فعود إلى بلادي على جناح السلامة.

في موفى شهر يونيو أواخر الثمانينيات الماضية، رحلت إلى بيروت من دون استشارة أحد أو إخباره. في مطارها كان الأستاذ في انتظاري، ومنه أخذني في سيارته مرحبًا إلى فندق بأحد أحياء الأشرافية، ورافقني إلى الغرفة المحجوزة لي، ثم ضرب لي موعدًا في مطعم قريب من الفندق لتناول وجبة العشاء معه. هنا جدت له تشكراتي على دعوته، فأخذ يشرح لي فحواها وممرهاها، قال:

- أهلاً بك يا عبد الحي... أذكر أنك كنت في الكلية من أنجب تلامذتي، ولهذا وقع اختياري عليك. عنوانك وجدته في إحدى مدوناتي... والآن هوذا عرضي: أعرف رجلاً يُعد من أكبر أغنياء المنطقة العربية. عراقي الأصل، يعيش بين عواصم خليجية ولندن وبيروت... له زوجة كويتية اسمها أميرة، قد أقصُّ عليك مستقبلاً حكايتي معها. المهم في الأمر أنها مهووسة بحلم عظيم، أن تصير روائية عبقرية، لها جمهورها الواسع الوفي والجوائز تنهال عليها وشهادات التنويه والإعجاب...

توقف الرجل لحظة، مسح فمه وأردف وهو يحتسي شرابه:

- الزوج يريد أن يحقق لمحبوبته حلمها ويشتري لها الشهرة بتعبئة ميزانية جارية... أوكل إليّ مهمة التسيير والإنجاز لقاء راتب يصفه المنفق بالمحترم... تعلق الرجل بي لأنني كنت وراء فوز حرمه بجائزة تقديرية على مجموعتها في القصة القصيرة جدًّا، فتفوقت على من كان يُعتبر عملاق هذا الصنف ومليكه بدون منازع... هل لك سؤال؟

أجبتُه على الفور:

- وبالطبع أنت أستاذي من كتبت لها المجموعة اللي وقَّعت هي عليها وأسقطت عن عرشه عملاق القصة القصيرة جدًّا.

- الحق أني بدأت بالتصحيح ثم صرت الكاتبة... وبهذا التتويج داخل المرأة غرور كبير، فأمست، كما حكى لي زوجها، تضرب على الأرض بأحذيتها حتى تكسر كعابها وتصيح، مأخوذة بنوبات هستيرية، أنها الأولى، تشتهي الشهرة كأنها وَحْمَى، وتريد التفوق على كل الروائيات العربيات... هل لك سؤال؟

فكرت قليلاً فيما سمعته وما أردت معرفته. سألت:

- وما هو دوري أنا يا سيدي؟

ردَّ في الحال وكأن الجواب كان مُعدًّا على طرف لسانه:

- أن تساعدني على الرقن والتصحيح، وتعبر لي صراحة عن رأيك فيما تقدمه لي الست أميرة من أشياء مكتوبة. لك في هذا أجر يفرحك إن شاء الله... هل لك سؤال؟ إيه والبداية من بكرة... نعم من بكرة. الزوج مستعجل في سوق الأعمال، ومستعجل أكثر في سوق حرمه التي يريد تمتيعها بما وعدّها به قبل أن يصاب مجدِّداً بجلطة دماغية قد تقضي عليه في هذه المرة.

في الغد استقبلتني كاتبة الأستاذ ذات القسمات الذكورية والدمامة الملحوظة، وساقنتني إلى غرفة صغيرة من دون نوافذ، فيها كرسي وطاولة عليها حاسوب وقنينة ماء وسندوتشات وفواكه. جهزت الآلة، ثم قبل أن تنسحب أمرتني بالجلوس والشروع في العمل. أحكمت قعدتي وأخذت أقرأ ما واجهتني به الشاشة: نص مرقون من مئة وعشرين صفحة، يحمل اسم رواية بقلم أميرة العامري وبعنوان عناقيد العشق. دُهلِت - كم ذهلت! - منذ الصفحات الأولى لكم الهائل من الأخطاء اللغوية، نحوًا وتركيبًا وصرقًا ومعجمًا. كررت عبارات الاستغراب في نفسي: ما هذا! هذا ماذا! عدّيت عن الأخطاء وشرعت أسبر مناط المضامين والمعاني وغورها، فلا مناط ولا غورَ وجدت، بل بلغُو الكلام السائب اصطدمت: صور ومجازات ضعيفة النسغ، عديمة التأثير، حشو وإطناب لا يطاقان، وفي فوضى السرد وهلهلته يضيع العشق والعناقيد، ولا يبقى ماثلاً للقارئ إلا الزبْدُ والتفاهات.

قبل أن يحدث لي مكروه، كأن أصاب بشيءٍ من القرف والضجر، تركت النص جانبًا بعد أن أتيت على بعضه بالتصحيات الأولى، وبعدها تلهيت بالأكل والشرب، ثم هممت بالخروج، فإذا بالكاتبة تخضعني لتفتيشين صارمين، يدوي وإلكتروني، وحين طلبتُ السبب قالت بصوتٍ أجشٍ إنها الأوامر.

في غرفتي استحمت وقصدت فراشي مترجياً أن لا يتبدى لي النص في النوم، فسارعت إلى إغماض عيني والاحتماء بوسادتي وأغطيّتي.

في الصباح بكرت إلى الخارج مرتدياً لباسي الرياضي. فكم يحوجني جلب لياقة ذهني وحواسي من لياقتي البدنية! بعد عودتي غطست غطسات في المسبح ثم تمتعت بحصة ذلك ناعم مريح، تلاه فطور في حديقة الفندق الفيحاء. كل هذه الأنشطة والخدمات وسواها، كما أخبرني مشغلي، هي على حساب الرجل الثري ودفتر تحملاته. في مزاولتها وتلقيها صرت أقر مع إليا أبو ماضي «وتمنّع بالصفو ما دمت فيه/ لا تخف أن يزولَ حتى يزولا». وفي مقابل هذا، عليّ بتحمّل تعكير صفوي من جهة الانكباب على المخطوطة ومعاشرتها.

في لقائي الثاني بمستخدمي في مكتبه الفاخر، بادأته بالتعبير عن انطباعاتي الأولى على قراءة جزء من النص، واصفًا إياه بكلمة زفت، فرد عليّ بلهجة العتب:

- يا عبد الحي... حتى نكون واضحين، ما فيش عقد مكتوب بيننا. شغلك كشغل من يجد نفسه أمام منزل خربان، فيكون عليه ترميمه وإصلاحه وحتى

إعادة بنائه إن لزم الأمر. وفي المقابل تحصل على راتب لا يخيب وخدمات بالمجان. فإما تنفذ من دون ذمّ أو نقد، وإما نوقف التعامل عند هذا الحد.

بادرت إلى إنقاذ الموقف، قلت:

- معذرة عن سوء التفاهم... الآن أدرك بالواضح ما هو مطلوب مني... أقبل بهذا وبتعاقدنا الشفوي.

- شيء آخر مهم. يلزم أن لا تظهر في المشهد إلا كمساعد لي على المراسلات والرقن، ولا علاقة لك مطلقًا بكتابات الست. وإن حصل لنا احنا الاثنين لقاء معها، وهذا مستبعد جدًّا، فلا تتكلم إلا بالقليل أو بما أمرك به. وأميرة ثلاث خادمت، اثنتان من بلدك المغرب. إياك تقترب من أي واحدة... والست كثيرة الأسفار إلى جزر ومدائن، بحثًا عن ينابيع الإلهام، وتطيل المقام حيث يأتيها مخاض الإبداع... أمامك عشرة أيام تجهّز فيها النص وتصلحه على وجه التمام في مكنتي تحت رعاية أم هشوم. الأجل قابل للتمديد بيومين لا أكثر... في هذا الظرف ستمئة دولار كتسبيق على أجرك... من هنا ورايح أنا اللي أتصل بك.

قبل أن يشير لي بالذهاب، قصدت الباب شاكرًا وواعدًا ببذل قصارى جهدي.

في غرفتي طلبت وجبة الغداء، وما إن فرغت حتى وقفت أمام المرآة مخاطبًا نفسي: أيها التيكرو(*****) المسخر، يا مسخر المسخر، شمّر على ساعديك وتجرد لما انثدبت له... راتبك عليك باستحقاقه، وإلا فارفع يدك وانسحب.

صحت متحدثًا: لا، لن أرفع يديّ ولن أنسحب حتى يتبين لي الخيط الأبيض من الخيط الأسود... إنها مغامرة أعرف مبتداها وأتطلع إلى إدراك خبرها ومرساها، وما بينهما حركة دائبة نشطة تقيني شرّ الرتابة والملالة، فضلًا عمّا تذرّه عليّ من ربح. وإذن حيّ على العمل، حيّ على الفلاح!

هكذا، متجرّدًا للمهمة لم أعد أنفر من معتزلي في مكتب الأستاذ، فبتُّ أصرّف أوقافًا متفاوتة معتكفًا على الرواية، صابرًا على سعال حارستي الضاج. وفي وطيس التصليح والترميم وإعادة الكتابة، شعرت بحاجة ماسة إلى قاموس للتأكد من صحة مفردات أضمنها النص أو أغني بها تعابيره. أبلغت الأستاذَ طلبي فلبّاه في الحال بتمكيني من معجم ورقي ضخّم وقرص مدمج في اللغة. فكان لهذا الزاد فضل في تسريع العمل وإزاحة ما اعتور الرواية من معميات وطلاسم.

بعد انصرام أسبوعين، التمسيت من الأستاذ مهلة إضافية أخصصها للتحقيق والمراجعة طلبًا للجودة والأحسن، فأقر المخاطب أن هذا هو الغاية المرجوة، وترك لي من الوقت ما أريده سيما، كما علل، أن الست توجد على سفر مع حاشيتها. تنفست الصعداء وشكرته وأجزلت الشكر.

أثناء الأيام الموالية تعددت لقاءاتي بـمشغلي، إما في مكتبه أو في مطاعم ومقاهي يختارها في الحمراء أو على الساحل الشمالي بين راس بيروت والميناء. لم يكن الرجل يكلمني عن مسكنه ولا عن معارفه وأهله، إلا من مرة أشار عرّصًا إلى زوجته وطفلته؛ لكنني علمت في المقابل من أحاديثه أنه تعرّف على الست أميرة في باريس أيام سنوات الدراسة، وكانت له معها علاقة حميمة كادت تفضي بهما إلى القران، لولا أن القدر حال دون ذلك. وبعد فترة فراق طويلة أبت الظروف إلا أن تجمعهما حول طاولة عشاء في القاهرة، دعاه إليها زوجها، واسمه خليل العظم، ليعبر له عن إعجابه الشديد بمحاضرة ألقاها في المجلس الأعلى للثقافة. وبعدها عرّفه الداعي بنفسه وبحرمه التي كانت متحرجة لا تنبس إلا بكلمات قصار. وعند متم الوجبة تبادل الرجلان بطاقتيهما قبل الفراق. وبعد أيام تلقى الأستاذ دعوة من السيد العظم ليحل عليه ضيفًا مكرمًا في أحد منازلهم. وهنا عرض عليه الخدمة الأنفة الذكر إضافة إلى إدارة بعض ملفاته وأشغاله.

وختم المكرّم سرده قائلاً:

- ليس كل القصص تُحكى، وقصة عشقي مع أميرة منها. أتمنك عليها فاحفظها في صدرك. وحتى إن أفشيتها فلن يهتم بها أحد، ولو كان بعل الست نفسه.

سارعت إلى الطمأنة فعقبت:

- صدور الأحرار قبور الأسرار. وكيف أبوح بسرك وأنت يا سيدي أحسنت إليّ وفضلتني على كثير من القوم! لا والله لن يحصل هذا أبدًا.

- الست غير مرتاحة لوقوع اختيار زوجها عليّ. حضوري في مدارها يوقظ فيها ذكريات تريد نسيانها. حاولتُ مرتين الإيقاع بي في فخ التحرش بها فلم تنجح. وأنا في لقاءاتي معها أتخذ كل الحذر والحيطه، وحتى مع خادمتها أثبت على الموقف نفسه. هذا مع أنها تبعدهن عني كثيرًا. ولا شك عندي أن لكل واحدة حكاية معها ومع الحياة أيضًا. وفي ظني أن المرأة سحاقة، والله أعلم... إياك إذن تقترب من البنات؛ لأنك إن فعلت حلت بنا طامة عظمى وطردنا شر طردة، فإياك إياك!

بدا الأستاذ مخمورًا في هذه الجلسة، طلبت تاكسي ليأخذنا إلى عنوانه ثم يعرج بي إلى مستقري.

من محاذير المشغل وتنبهاته استخلصت أنني، في هذا الوسط الذي أنا حلُّ به، كمن يمشي في طريق ملتبسٍ كثير المطبات، وعليّ بطاعة مرشدي ما دمت في حمايته. وهكذا سارعت إلى متابعة مهمتي بالعمل على الثلثين المتبقين من نص عناقيد العشق، مشطّبًا على الزوائد والفضلات، مشدّبًا منقحًا. ولما أنهيت هذا الشق المصني، اقتحمت الشق الثاني المتعلق بإعطاء الجمل والتراكيب دلالات ومضامين حتى يستقيم السرد وتكتمل الرواية. وفي هذا الشق بذلت قصارى جهدي لأتبيّن في آخر المطاف وتمعّن التعب أن الخيط الأبرز أو قل العنقود الأوحّد إنما فحواه حكّي بضمير الغائب لقصة امرأة وهبت نفسها لرجل افتضّ ختمها متعهدًا باتخاذها زوجة، إلا أنه نكث عهده وهجرها هجرًا سيئًا. ولو لم يقصّ عليّ أستاذي حكايته مع الست أميرة لما أدركت الصلة الوثيقة والحبّ السري بين الحكائيتين، لكن هذا الاكتشاف لم يثنني عن الجد في السير نحو الغاية المرسومة.

يوم أكملت أدائي بعد تمديدين، انتابني فرح لا لكوني أنجزت عملاً معتبرًا، بل لأنني تخلصت من شغل شاق، فكان أن أجريت الرقن الأخير في مكتب الأستاذ كما اعتدت. وبعده سلمت المنتج إلى طالبه، الذي ما إن اطلع عليه حتى هنأني وأنبأني أنه سيأتي بإضافات هدفها جعل النص يتكلم أكثر بضمير الغائب كي يبعده تمامًا عن منطقة السيرة الذاتية، وختم متنفسًا: على أي حال، السيد العظم لا يقرأ لزوجته شيئًا، وإن قرأ سطورًا قد يفهم الألفاظ دون المعاني.

بعد بضعة أيام دعاني الأستاذ إلى جلسة عمل في مكتبه. اختلى بي في قاعة مغلقة وفاتحني قائلاً:

- الست يا عبد الحي هنأنتني على ما أسمته تصحيحاتي الطفيفة، نعم الطفيفة! وأمرتني بإيجاد الناشر وتحريك وسائل الإشهار والتسويق كلها. وللقيام بذلك وسواه، عليّ الآن بتعبئة صحافيين أثق بهم، بعضهم يكتبون مقالات للإشادة بالرواية، وبعضهم يرسلون بواسطتي أسئلة إلى المبدعة، فأجيب عنها بتوقيعها، كما كان الأمر في ديوانها الأول ومجموعتها القصصية المجازة... وأطلب منك خلافتي في هذه المهمة، ولك عنها أجر مستحق.

أبدت استغرابي وسألت:

- أي أن أكتب مقالًا أو أكثر للتنبؤ بالرواية، وأعدّ أسئلة حولها أجيب عنها باسم الست؟!

- وكل هذا باسم مستعار طبعًا... هل اتفقنا؟

أكملت شايي، حككت رأسي وقلت:

- سأحاول ما استطعت، والله المستعان.

في الشوارع المفضية إلى مستقري سرت مكبًا على وجهي، وإن صوّبت أحيانًا نظري فإلى واجهات المخازن أو إلى بعض المارات المتمايحات، لكن من دون أن أفتر عن التفكير في المهمة الجديدة الموكلة إليّ: صحافي وكاتب مقالات مدحية رغمًا عني.

في المطعم وقت الغداء وقعت عيناى على مضيضة لم أرها من قبل. تلقائيًا توجهت إليها وسألتها إن كانت مغربية، فأجابت بنعم. استوضححتني كيف علمت فقلت بشم رائحة البلاد فيها، وأضاف: آتيك بالقهوة ومعها وريقة... القهوة رشفتها مثلما في هذا الفندق لم أرشفتها من قبل، وقرأت رقم هاتف حاملتها فرحًا مبشورًا.

عودًا إلى غرفتي، ألهاني التفكير في الفتاة عن أي شيءٍ آخر. رأيت في التعرف عليها وسيلة للتخفيف من الحالة النفسية التي أنا الآن فيها. قبيل حلول الليل تلفنت لها فأجابت خفتًا بكلام كثير، مفاده أنها وحيدة في دار الغربية وحريضة على عذريتها إلى أن يجيء الزوج الحلال، لكنها اليوم تبحث عن إنسان مثلي يصحبها إلى البارات ويقيها من رجال التحرش والغواية. عبرت لها عن قبولي مرددًا في نفسي: بودي جارد، وظيفه أخرى جديدة، تلك براتب مهم وهذه بلا جزاء إلا الشكر وربما بوسة أو أكثر! إنما لكوتر - هذا اسمها - أعترف لها بفضلين عليّ: الأول تخفيف الشعور بالوحدة الذي ينتابني أحيانًا، والثاني تعريفى ببارات الأشرفية باي نايت وأمكنة اللهو في الكورنيش.

في صحبتها كنت أدهش لقدرتها على معاقرة الخمر وبقائها واعية متبصرة؛ أما هي فتعجب لاكتفائي بعصير الطماطم، وتعلل هذا بكوني خالي البال لا هموم لي ولا مشاكل. وحين أسألها عمًا يشغل بالها تجيب بكلمات وجيزة: تأخر الزواج وقلة الزاد، وتبخل في الإخبار عن أمورها الأخرى، عدا سعيها إلى جمع قدر من المال ثم عودتها إلى موطنها؛ كما أنها لا تسألني عن عملي في بيروت ولا عن وضعيتي المدنية. وذات مرة استفسرتها عن سبب

رفضها للرقص فوازت بين هذا وامتناعي أنا عن التدخين والسكر. وفي كل مرة أرادت أداء الفاتورة إلا وأقسمتُ أن لا تفعل، فتذعن قائلة: أنت يا كريم تشفق لفقرتي، فأبتسم ذاكراً في نفسي: أنتِ والله لا تنالين من ثروة مدام أميرة العظم إلا ما هو أقلُّ من الفتات...

ما كنت أحبذه عند الأنسة كوثر هو حرصها على عدم إزعاجي بطلب مرافقتها متى أرادت إلى تلك الفضاءات التي يرتادها أمثالها لعقد هدنة، ولو مؤقتة، مع مصاعبهم وأحزانهم. فقد علمت منها بالهاتف أن مخرنًا يعمل في فندق مجاور يقوم بذلك الدور. ولقد اضطررت إلى تعليق مصاحبتي لما أن استعجلني الأستاذ بشيءٍ من النرفزة في تسليمه ثلاث مقالات واستجوابين حتى يتسنى له نشر ذلك قبل عودة الست من إقامتها في أثينا. وكان عليّ أن أستجيب اتقاءً لتبعات سالبة غير سارة. ولذا جلست لتلفيق أسئلة وأجوبة، بعضها عن رواية عناقيد العشق، وبعضها الآخر ذو طابع عام عن تقييم الست للجنس الروائي ووضعه في العالم العربي عمومًا وفي الأدب النسوي خصوصًا، وعن مشروعها المستقبلي في الإبداع والكتابة، وهلم جرًّا. وما إن أنهيت تدبيج الاستجوابين (أسئلة وأجوبة) حتى أرسلتهما إلى طالبهما الذي عبّر لي على الفور عن رضاه وترقبه للمقالات. وفي شأن هاته لم أقو على تحرير أكثر من واحدة بعد مشقة وعناء، ثم بعثتها مسجلاً أن لن تتبعها أخرى.

غداة الإرسال الثاني استدعاني الأستاذ فلقيني بوجه منقبض. سلمني ظرفًا ماليًا وقال:

- لا يا حبيبي... مش أنت رجل المهمة. قلمك ثقيل وكتابتك متعبة. أدخلت أنا الكثير من الإضافات والتحسينات على أوراقك حتى تصلح للنشر... المهنة ذي مش مهنتك... إيه، البنت كوثر اللي كنت تصحبها وُجِدت ميتة بالأمس في غرفتها. يُقال انتحرت، لكن حتى لا تحوم حولك الشبهات وللسبب اللي ذكرت، عليك بالعودة إلى بلدك مساء اليوم. هي ذي التذكرة وأتمنى لك عودة سعيدة.

لم أنبس بنت شفة. قمت مسلماً شاكرًا، وانصرفت لأنفذ الأمر بالرحيل. رحيل لم أر فيه إلا هجرًا من سرداب قسر وعبودية إلى رحاب تمتيع الروح بالانعتاق والراحة. في الطائرة، وأنا أغمض عينيَّ بشدة وأسحب سمعي مما حولي، تبدت لي توهمات، واحد عن المبدعة المزيفة مدام العظم وهي تمد لي يدها ذات القفاز وتأمرنني بتقبيلها فأرفض؛ وتوهم ثانٍ عن زوجها الحُرقة ذو الصلعة الكاسحة والابتسامات المصطنعة الوسخة، مالك العقارات

والأرصدة؛ وتوهم ثالث عن الخادمت الثلاث يترجيني أن أنصت إلى قصصهن المأساوية وأنشرها متى تمكنت؛ وتوهم رابع للأستاذ المرتزق يعيّرني: يا عبيط يا عاق، كدت تعكر صفوي وتعصف بمنصبي... وبعد التوهّمات غلبني النوم، فلم أفق إلا بإيعاز من مضيقة تعلن أن الطائرة بدأت في الهبوط وتشير لي بشدّ الحزام.

(*****) التّيكرو: كاتب يؤجر قلمه لقاء تعويضات نقدية.

2

«رُبَّ عُمُرٍ اتسعت آماده وقلت أمداده». هكذا تكلم ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه؛ لذا تَبَّأَ لَمَن سَمَّى سن التقاعد فترة ما بين العقدين السادس والسابع؛ إنه كذلك عند مَنْ لم يقدّم لحياته شيئاً مذكوراً، وراكم الأعوام عبثاً بين الجري وراء الحاجات الخسيسة وسلطان الأوهام؛ وإن التسمية تلك ليست كذلك لَمَن اتّسع الوعي عنده للإحاطة علماً وعملاً بكنه الوجود ومكوناته المتحركة المتقلبة. فالناس من منظور هذا التقسيم صنفان: صنف المثبطين القاعدين، عديمي المقاصد الرافعة مدى الحياة، وهم الأكثرون، بعضهم يتفلتون في التلف الذاتي والسلوكيات الرسوبية، كالانطوائية المستميتة الصماء أو العدوانية والرجسية الرعناء؛ وبعضهم يجدون في السياسة الفاسدة ومراكمة الأموال والعقارات مخارجاً ومتنفسات؛ أما الصنف الثاني فهو المشخص في الناهضين المنتفضين الساعين إلى إيقاد المصاييح وصدّ الظلام، والمحاولين تحويل التّم إلى نعم، وأغبرة الحاضر والآتي إلى تَبْرٍ وأنصبةً بديعة. وبغض الطرف عن فُجاءات الموت وتجبره، ليس لي أن أكون إلا من أهل هذا الصنف الثاني ومراوديه!

كل مَنْ عليها فان، وأنا عليها، فأنا فان. هذه مسلمتي التي أستحضرها عند الحاجة الماسة وليس في كل حين وأن. لذا كنت وما زلت أوصي نفسي: من تشوق إلى تشوق، هنا ينطبع سيرك ويُمْتحن اقتدارك. فإياك وتأكل جذوتك وأنطفأها، جذوة حرارتك الطاقية التي بدونها لا حركة ولا توثب ولا طفرات، أو بكلمة لاحمة: لا حياة. ولتكن لك حتى آخر رمق غايات ترومين دوماً بلوغها، ولو بمقادير متفاوتة. والقعود دونها مبعث الملل المضني الذي هو في ملة الوجود حملٌ جاثم ومنسوبٌ إلى العدم والهلك. ثم حذار حذار من الركون إلى هوية انتمائك مفروثةً مبعثرة، بل يا نفسُ تمسكي بالهوية قويةً باكتمالها وتوهجها؛ هي الأس والعمد، هي للنماء المرجع والحاضنة.

أراني أعود إلي ذاتي والرواية عنها، وقد تطففت من قبل في ذكرها وعنها تواريت. وإذ يعز عليّ محو ما سطرته الآن بعد أن أجزته، فإني أؤثر التلويح بحقي في الظروف المخففة وتنوع الجهات، وهذا تبريره: استصفاً ذاتي من أكدار المحيط وشرار الخلق لم يتم لي بعد على الوجه الأكمل والأرضي؛ أفكارٌ شتى ما زالت في باطني تنقذ وتغلي، وكأني بها تناشدني بنقلها إلى ضوء دماغي وصحائفي؛ حصتي من الدنيا، ولو أني استهلكت زهاء ثلثيها، أريد لثلثها المتبقى أن ينجو من غلطاتي ومعاطبي السالفة. القصد، وإن ظلمتُ دونه، يكمن في جعل الثلث ذاك آية في بلوغ أقصى درجات الوعي واليقظة.

أفيء إذن إلى ذاتي، التي يصعب عليّ خزنها في صندوق ذي أقفال، فأراها - وما رأي كمن سمع - تحرق مفزوعة في أسواق الأغيار وقد علتها، أكثر من ذي قبل، الأضداد والتناقضات المزحومة، وسادها الفساد من كل شقٍ وكل فجٍّ، حتى أمست ظاهرتة أم الآفات، من حيث تفشيها في عالم السياسة والمال والاقتصاد، كما تدل عليه السلوكيات الربعية السافرة، وكذلك في الزبونية والمحسوبية وشراء الذمم ويتم الوازع الأخلاقي وتدنيه، هذا علاوة على تسربه إلى مرافق الذهن واللغة والبيئة. والأدهى والأمضى أن مع المفسدين في الأرض، تضعف الديمقراطية كنظام حكم الشعب عبر منتخبيه ومؤسسات تمثله وتخدم مصالحه وشؤون حياته؛ ومعهم تتآكل تلکم الديمقراطية في تركيبها الشفعية، أيالسياسية - الاقتصادية التي يؤكد على تلازميتها وطباقيتها الدينامية كبار الاقتصاديين من ذوي النزعة الإنسانية. والأفدح أن نشهد الفساد ينهش ويتسبد حتى يحدث - واحسرتاه! - العجز المطبق عنه بل التطبيع معه.

في بلاد أمست عصية على الإصلاح وزاخرة بالاختلالات، لا ملجأ ولا مرقاة إلا في هجر القبح أينما حلّ وسرى، وفي التعويل على عمل الذات المفردة ونظيراتها من الذوات الصامدة الصاعدة. ليس لهذا السبيل الصحيّ بديل؛ لأن الطبيعة ترتعبُ للفراغ وتجأرُ وتصيح للمتخلفين دونَ ذاك السبيل أن يتضاءلوا ويختفوا بين طيات النسيان واللا وجود. وكم هم كثر المتضائلون المتخفون، أولئك الذين انكسرت نوابضهم وانطفأت حيوياتهم، حتى باتوا إلى أضجارهم مستنيمين ولأيامهم مجترين، لا جُعلنا من قرنائهم أو جيرانهم.

السبيل شائك وعر، تعتوره عقبات وتحفُّ به الحفر والأشواك، لكنه سالك لمن يعتمد الرهان والتحدي، مختاراً الصبر فيه وعليه، وقافاً عند اللحظات الشائقة والذاكرة النافعة، وعند كل ما من شأنه أن يسترخص المخاطر ويذل المعيقات. وفي هذا التوجُّه عليّ أنا بالتجوهر والتمكن، عسى أن

يكون الثلث المتبقي من عمري خيرًا مما مضى منه، مطلقًا العُمَم والانتكاسات.

مع ثلثي ذلك، أخذت أخصص أوقاتًا لتمرين النفس على استقباله ما استطعت فرحًا مرحًا، وإن أمكن بوردة في يدي ونشيد في فمي. أما قبل ذلك ودونه فلي أن أترك أبوابي مشرعةً لعالم الكتاب والكتابة ولمدارج الذكريات المنهضة والسياحة المفرجة.

عند افتتاح التمارين، ألمَّ بي إحساس بمتعة ما من صنف ما يعقب التخلص من عبءٍ ثقيل أو مهمة مرهقة. لكنَّ هذي المتعة سرعان ما بدت لي مشوبة بحزن وشعور بذنب على ما اجترحتُ كراو من تحكم في حيوات ومصائر. ألم أقل إن السيل شائكٌ وعرا! حاولت للتخفيف عن نفسي التكوم عليها وتطويقها هي وذهني بالفراغ وصرفهما إلى قبة اللا شيء طردًا وعكسًا. وحين استيقنت من فشلي في ليّ اللا شيء والشد على تلايبه الأخطبوطية المنفلتة، عرجت على كتب تعودت من قبل اللياذ بها وارتياذ مظانها ومضاميرها، وكانت في هذه المرة مما أهداني إياه المهاجر الحاج الجعفري وأوصاني بها خيرًا. وسبب ولعي بها هو تضمناها لهوامش وحواش عليها بخط صاحبها، أثرت الإطلاع عليها ورعايتها. فبعضها كان مداره السيرة النبوية، حيث يعلم في أهم مراجعها على سطور ومقاطع، وبعلق في طررها بما عنَّ له من آراءٍ وخواطر صُعب عليَّ في الغالب قراءة خطها.

ومما استوضحته رجوعًا إلى النص أن الأمر يتعلق بثمين روايتين: الأولى عن السيدة خديجة التي قالت لمحمد عليه السلام لما انقطع الوحي عنه: «ما أرى ربك إلا قد قلاك»، فنزلت بعد مدة سورة الضحى، ومطلعها {والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى...}؛ أما الثانية فوردت في الصحيحين عن عروة قال: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهين أنفسهن للنبي (ﷺ)، فقالت عائشة رضي الله عنها: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت الآية {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ...}، قالت يا رسول الله «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك». وأما الحديثان اللذان يبدو أنهما أخذًا أيضًا بشغاف قلب المهاجر فهما: «عن الحسن أن رسول الله (ﷺ) كان رأسه في حجر عائشة فنعس، فتذكرت الآخرة، فبكت فسالت دموعها على خد النبي (ﷺ)، فاستيقظ بدموعها فرفع رأسه، فقال: ما يُبكيك يا عائشة؟» الحديث؛ وفي الثاني أن امرأة جاءت إلى رسول الله (ﷺ) فقالت: «يا رسول الله إني نذرتُ أن أضرب بين يديك بالذِّف فقال لها: إن كنتِ نذرتِ وإلا فلا».

علاوة على ذلك، يظهر من تقييدات الحاج الجعفري أنه شديد الاهتمام والإعجاب بالإمام أبي حنيفة النعمان، إنسانًا وفقيرًا. فمما علمه في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي أن «أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور أشخص أبا حنيفة، فأرادَه على أن يوليه القضاء فأبى، فحلف عليه مرتين ليفعلن، فحلف أبو حنيفة مرتين أن لا يفعل، فقال الربيع الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف! فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، وأبى أن يلي، فأمر إلى الحبس في الوقت». وتبينت بعد لأي أن ما كان يُعزّه المهاجر الجعفري عند إمام الكوفة هو ما نُقل عنه من أن «الاستحسان تركُ القياس إلى ما هو أوفق للناس، وقيل الأخذ بالسعة وابتغاء الدعة، وقيل الأخذ بالسماحة وابتغاء ما فيه الراحة». ومحض هذه العبارات النيرات - كما يهמש - أنه إثارة اليسر على العسر، وهو أصل في الدين. وفي السياق نفسه يذكر أمثلة أخرى منها استحسان الإمام كشف المرأة لوجهها، وتجويز توليتها القضاء، واستحسان أن يحلف البائع كما يحلف المشتري في حال منازعة؛ ومنها تفضيله إسقاط حد قطع يد السارق، إلخ. ويختم لتبرير إكباره للإمام بما قال عنه الإمام مالك بن أنس: «ما رأيتُ رجلًا أفقه منه، ولا أغوص منه في معنى وحجة»، وبما قاله الإمام إدريس الشافعي: «العلماء عيال أبي حنيفة في القياس والاستحسان»...

من جولتي - وستتلوها جولات - في قراءات ذلك الصديق وتحشياته، استخلصت ميله البين إلى لطائف الأقوال وطرائفها، كأني به في رفقتها كان يتوخى تمتيع النفس بما ينعشها ويحول دون غلبة النكد عليها والملاحة.

وبعد أن قضيت زمناً في صحبة ذلك الزاد التليد، شعرت بتعب عيني وإصابتها برطوبة دامعة. فإذا بالصوت الأليف لديّ يصيح بي: الآن يا هذا أن لك أن تبدل عالم الكتاب بما تيسر من كتاب العالم، فلعلك في الرحيل تجد المزيد من السعة ونصيلاً من المتعة.

سارعت إلى تلبية الدعوة بشد الرحال، والفصل صيف، إلى الساحل اللازوردي جنوب شرق فرنسا، مكتفياً من المتاع بأقله، كاتمًا خبر قراري ومقصدي، تجنبًا للدخول في التعليقات والتبريرات.

على متن سفينة طنجة - سات، تهيأ لي التعرف بمحض الصدفة على امرأة في متوسط العمر، عليها سمت الرومانسية الممزوجة بقدر من البوهيمية. قالت إنها شيلية، مما يسر لي محادثتها بالإسبانية، وإنها تجول العالم وحيدة بحثًا عن أشياء تدركها ولا تدري كيف تسميها. كان للقاء أن يقف عند هذا الحد لو لم آخذ في إلقاء أبيات من «الكانطو خينيرال» للشاعر بابلو نيرودا.

وكان للأمر أن ينتهي هنا لو لم تشرع هي في العزف على قيثارتها منشدة أبياتاً للشاعر نفسه من ديوانه سكنى في الأرض. فشكرًا جزيلًا للشاعر الشيلي العظيم على هذي اللقية المباركة، التي بدأت غنائيتها بداية حسنة. فلولا ما كنت أنا الغريب في الباخرة هاته لاتعرف إلى هذه الغريبة، ولا لاتناشد معها شيئًا من شعره الشيق. وصدق امرؤ القيس إذ قال: وكلَّ غريبٍ للغريبِ نسيبٌ.

مذ تلك اللحظات صرنا لا نفترق إلا على عتبة النوم، وما عداه نتناول الوجبات معًا، نرتاد فضاءات السفينة وجناتها، نتجاذب أطراف أحاديث مختلفة، أهمها الرئيس الشهيد سالفدور أندي ومقاومته البطولية حتى آخر رمق للعسكر الفاشيست والتجبر الأمريكي؛ كما كنا أحيانًا نختلي للإنصات إلى موسيقى المياه المتماوجة وتدقيق النظر في الأفق المتداخلة أشكاله وألوانه. وكانت أحيانًا تسدل على وجهها شعرها الكثيف الحريري، وتزعم أنها هكذا تستكشف خبايا الأفق وما وراءه، وتتواصل مع قوى غيبية. وكان عليّ أنا أن أنشغل بالانتظار واستراق الرؤية إليها. ولما نفذ صبري، أخذت بدوري أغلغل النظر في الأفق مؤولًا جماليًا تضاريسه وأكمامه وتلاوينه، ثم طمعًا في التنويع نقلت الغلغلة إلى بدن جليستي وأطرافه، هامسًا في لغتي، كما تفعل هي في لغتها، بشطحات جذبية لعلها تليّن وضعي وتخفف عني احتساب الوقت بخفقات قلبي. قلت كلامًا متصلًا كان لي أو ربما لغيري: الفتى مجنونُ البحرِ في كيانه تصطفقُ الرياحُ وعن رايٍ لم يروِ بعدُ قال بلِ الرعودُ أحقًا يهوى لِعابهُ الزنابيرُ وإذ يرفعُ طربوشهُ عن رأسهِ تخرجُ منهُ الطيورُ والحمامُ فوقَ كتفيه تقيمُ وتشدو عندَ الربيعِ لما في هذا الفتى يحلُّ الربيعُ أحقًا حولَ ظلِّهِ في الساحاتِ يعقدُ النَّايُّ جلساتَ سمرِ نايُّهُ ذو شعرِ ونواقيسٍ بصاقٍ إذا ما نفختُ فيه مالكاثُ الأرواحِ دقَّ في المجنونِ مساميرُ السَّعرِ فيحتسي حُمورَ الانسحاقِ ويرى عينيه ابيضَّتَا أو توحدتَا والأنفَ انهمر يهرقُ السَّوائلَ في الأركانِ يذبحُ القرايينَ في الأعتابِ لعلَّ شفاءً يأتي أو أيَّ حجاب...

ولما أفاقت المرأة من هدرها الملعوز وشرودها غادرنا منصتنا العلوية، وتبعتها إلى سبطح السفينة الوسيع الحافل بالركاب؛ وهنا في وسطه اقتعدت كرسيًا واستلت من حقيبتها آلة متعددة القصبات والأحجام، تُسمى في أمريكا اللاتينية وأقطار أخرى نايات البان، فشرعت تنفخ فيها بينما الناس يتحلقون حولها معجبين، مصفقين بين فقرة وفقرة، وأنا قريبًا منها أتلذذ بالنغمات وأبدي تجاوبي وانفعالي. وحين أوقفت النفخ ناولتني قبعة مقلوبة وهمست لي: خذ المستحقات... نفذت الأمر، فدرت دورة على المتفرجين

فثانية وثالثة، حتى إذا تفرقوا رجعت إلى الفنانة وسلمتها القبعة الملأى بالنقود. أخذت منها حفنة ومدتها نحوي فأعرضت عنها.

في المطعم أقسمت بالثالوث المقدس أن تؤدي ثمن وجبة العشاء. وإذ انتبهنا إلى سهونا عن التعريف بنفسينا تداركنا الأمر بالنزر اليسير من ذلك. كرمينا هو اسمها، موسيقية، شاعرة ورحالة. أثناء الأكل، صحت لي معلومتي عن النايات المذكورة، فهي في بلدها تسمى طروباس، وأصلها من سلسلة جبال ليزاند وحضارة الأنكا العريقة، وظلت حية خلال الغزو الإسباني للقارة وحتى عهدنا هذا...

صبيحة اليوم الأخير، دعنتي المرأة إلى مخدعها. افترضت أنها تريد وهب نفسها لي. عزمت على أن تلبيتي لن تكون إلا مشروطة باستعمال العازل الوقائي، فالمؤمن لا يُلدغ من جحره مرتين، وإن بالتوجسات والمخاوف. لكن ظني سرعان ما خاب أمام تمنعها وإعراضها الصارم. حجتها أننا ما زلنا في بداية تعارفنا ومطلع مشوارنا، وأن علينا بالأناة والصبر لا بالعجلة وإحراق المراحل. وقبل انصرافي عابستًا، سلمتني علبة أقراص قالت إن تناولها يغنيها عن التدخين والمسكرات ويربها الحياة حلوة نضرة، وهذا من دون أيِّ مضاعفات سيئة.

لحظات قبل النزول إلى اليااسة بحثت عن كرمينا في جهات السفينة كلها، فلم أجد لها أثرًا، كأنما البحر ابتلعها أو السماء لحستها. قصدت راجلاً فندقني المعتاد الذي أعرف منذ زمان مسيرته، وفي نيتي أن أقضي فيه ليلتين قبل الذهاب إلى مدينتي نيس وكان ثم إمارة موناكو. في الليلة الأولى استعصى عليّ النوم، لا تفكير لي إلا في تلك المرأة الغريبة السلوك والمزاج. تذكرت العلبة التي أهدتني إياها، فتناولت منها قرصين ظنًا مني أن هذا القدر كافٍ لتهدئة أعصابي وتمتيعي بنومٍ مصلحٍ مريح.

في الصباح كان استيقاظي على إثر صوت المسيرّ يصيح بي أن أنهض لكوني نمت ليلتين متتاليتين. عبثًا حاولت التلبية بمساعدته، إذ ما أخطو خطواتٍ مترنحةً متعثرةً حتى أعود إلى الاستلقاء على الفراش. طلبت منه استقدام طبيب عاجلاً ففعل. بعد فحوص متأنية شتى أثبت الطبيب أن معدتي في حاجة إلى غسل كي تتخلص من آثار مخدر كان السبب فيما حصل لي. كشفت له عن العلبة فقال متعجبًا: «إكسطارزي! لو أنك بلعت كل أقراصها لكنت الآن في العالم الآخر»، فنصحتني بإتلافها واتباع وصفة قررها لي وانصرف. أحضرت لي المنظفة وجبة قوت خفيفة، وتناولتُ بعدها حصتي من الدواء شاكرًا المرأة على إسعافها وطيبوتها.

حين خلوت إلى نفسي، والنهار يدنو من متمه، عاودتني صور لعلها من شظايا رؤى منامي المخدَّر: بالوعة لا قرار لها تجذبني من قدمي وترمي بي منطرحًا على ظهري في حركة حلزونية تفقدني اتزاني ورشدي. وكلما حاولت الجلوس إلا وتدلى على وجهي رأس مقطوع ذو قرنين، فيبث في أذني مقهقهًا: أنت وما تكتب إلى عدم سحيق، لن يبقى منك عضو ولا حرف... ثم تلا الرأس رأسٌ آخر تبينت هذي المرة أنه لامرأة شمطاء تنهرني زاعفةً نافثةً شررًا: كم سُسْحَق سَحَقًا وتُنسى كأن لم تكن شيئًا أبدًا!

لم يخرجني من سهوي إلا المسير الذي زارني ليطمئن على حالي صحبة مسعفة بادرت إلى وخز رذفي بإبرة ثم انسحبت عجلي. وقبل أن ينصرف الرجل عقبها سألتني عن سبب إمعاني في الهاتف ليلة الأمس بـ «هولي هولي»، وعوض إجابته عبرت له عن رغبتني في العودة إلى بلادي، فرد بلهجة النصح: ليس قبل أن تصحّ...

هولي هولي! كلمة هي صنو يالله يالله، كما يرى الشاعر الأندلسي الكبير فيدريكو غرسيا لوركا قُدِّس ذكره. ولعلي هتفت بها في عزِّ هذياني وفيضيه فيما اللعينة كرمينا - كما أفترض - كانت تؤدي لي رقصة عجربة شيقة، تقطع الأكباد وتهيج الحواس.

صبيحة اليوم التالي تمكنت من أخذ «دوش» وتنظيف جسمي مرددًا بعض الأشعار العربية. وفي منتصفه توجهت إلى مطعم الفندق حيث تغديت بشهية متفتحة، بينما المسير الذي لحق بي يهنئي علي تجسن حالي. جدت له طلبتي بالمغادرة، فقال مازحًا ما مفاده ليس قبل أن أجري على قدمي جولة في المدينة صحبة المنظفة، وأن تأتيه هاته بتقرير إيجابي يشهد أنني برأت تمامًا من الهذيان؛ ثم ساعدني على تهين حقيبتني ورافقتني إلى الميناء بعد أن أديت له المستحقات مكللة بهدية للست المنظفة...

3

عودًا إلى مأواي، بدوت كما لو أنني في حالة نقاهة، فغالبتها بالخلود إلى الراحة قراءةً واستماعًا إلى موسيقي الأثيرة. ولتبيد سأم أخذ يستبد بي، قبلت طلب صديقي القديم علي عمور، يريد استشارتي في أمر مهم. وهل لي أن أمتنع والرجل مشهود له بالعلم والدراية في أدبيات الدنيا والدين. وحين قدم إلى بيتي بادأته بحكي سفرتي الغريبة، فما إن أتممت حتى فاجاني سائلًا:

- وهل في صحبة كرمينا أو أثناء هذيانك اغتلمت... أقصد أمنيته؟

أجبتة مغتاطًا بالنفي، فأردف:

- إذن، مع وجود الفارق، قصتك تشبه إلى حدٍّ ما قصة شيخ الشرعيات والعقليات إبراهيم الآبلي الأندلسي من القرن الثامن، صادف أن ركب سفينة من تونس إلى الإسكندرية مع داعية من بني الحسين وأتباعه، فغلبته الغلطة خلال السفرة، فاستحيا وأكثر من تجديد الوضوء والاعتسال. ولما افتضح أمره أشاروا عليه بشرب الكافور ففعل، إلا أنه بالغ فيه وتعدى الحد، فاختلط ذهنه وهذى هذيانًا شديدًا لم يبرأ منه تمامًا إلا حين عاد إلى تلمسان، بعد أن حلَّ زمنًا قصيرًا في مصر والمغرب وهو على تلك الحال... لكن دعنا من هذا واحمدِ الله أن يسرَّ لك الشفاء والسلامة... أما ما جئتُك في طلبه، هلا استفسرتني عنه؟

- خير إن شاء الله...

- خير كل الخير... أنت بما لك من كفاءات عديدة، وأنا والمفكر المقتدر الحاج الجعفري العائد إلينا من هجرته، أليس حريًّا بنا أن نلتقي من حين لآخر لنوثق عرى صداقتنا القديمة، صداقة ما شابها يومًا ما يعطيها أو يفسد صدقها وصفاءها... الأوضاع حولنا من سيئ إلى أسوأ، والأزمات تشتد ولا تنفج، ونظرنا فيها، وإن اختلفنا في جزئيات، فإنه بعد حوار وتقريب لا يمكن إلا أن يلتقي فيما يحق ويرقي. فهل أمام هذا المسعى المحمود نظل نؤثر الخلوة وننشد الخلاص الفردي أو نتعلل هامسين، كما يذهب البعض: هذا زمن السكوت وملازمة البيوت... فكر إذن يا عبد الحيّ في الموضوع مليًّا وأجبنى متى شئت.

استقام واقفًا. دعوته إلى مشاركتي وجبة العشاء، فاعتذر وقصد الباب مسلمًا.

وأنا أقتات ثم أتمدّد غلب عليّ التفكير في دعوة صديق أيام العز، وهو شخصية مرموقة، عُرف بعمق فكره وجراءة مواقفه، تقلب في مناصب سامية، آخرها منصب وزير التنمية البشرية، وعنها لا تسمعه يتكلم إلا اضطرارًا، كأن يستقي من تجاربه رصدًا أو دليلًا ماديًّا أو عناصر برهنة. وقبل نهاية عهده أقدم على تقديم استقالته نظرًا لشح الميزانية والوسائل وتكالب زمرة عنيفة عليه، من أذرع متكسرة وموظفين أشباح ولوبيات معارضة لخطه الإصلاحية؛ إلا أن طلبه رُفض رفضًا باتًّا، ولما عاد إلى منصبه مكرهًا أقبل منه في وقتٍ وجيزٍ وعلى أسوأ حال. تقبّل الإهانة معتبرًا إياها ضارة نافعة. ومن ثمة وهو لا يالو جهدًا في ممارسة ما يسميه حرّيته

المسؤولة، فأمسى محاضرًا وكاتبًا يجهر بما تنتهي إليه تحاليله وبمليه عليه ضميره. ولذا انفضَّ عنه أقرب زملائه في السلطة وعادوه، وبقيَ له من الأصدقاء القليل، يعدّني منهم؛ فكيف لا أبارك فكرته وأقبل عرضه.

كان اللقاء سيتم شهرًا بعد الدعوة إليه لولا أن الداعي الحاج الجعفري تُوفّي سويغات قبله بسكتة قلبية حادة. نعيه نزل على أسرته وأحبائه كخبر صاعق. حضرت مراسيم جنازته، وشاركت مع الصديق علي عمور وآخرين في حفل تأبينه خلال الذكرى الأربعينية لوفاته، وأكد الجميع على وطنية المرحوم الخالصة وثقافته الواسعة وأخلاقه العالية. وفي متم الذكرى، وافاني ذلك الصديق بأوراق قال إنها نسخة مما كان الراحل ينتوي عرضه علينا للتفكير والنقاش في مفتتح لقائنا الذي لم يكتب له الانعقاد.

في بيتي انكبت على قراءة النص كاملاً بصوت خفيض تارة وعالٍ طورًا. ووقفت - كم وقفت! - على فقرات منه شدتني إليها وراقتني مبنًى ومعنى، وهي:

[...] «إننا حين نرصد أحوال أهل القلم والكتاب وندقق فيها النظر والتحليل، ندرك أن ليس من نسيج ثقافي مغربي وحتى عربي إلا ما نراه عامّةً مصابًا بالهشاشة والتفكك. وهذا المعطى يجعلنا اليوم نشاهد أن المثقفين المغاربة مثلًا ما التقوا - وقلما يلتقون حقًا - إلا وكانت مأساة اللاتواصل مستشرية بينهم، مشخصةً في واقع التشظي اللغوي وسلوك التهاجر والتناذ وسوء الاعتراف البيني؛ واقع يبلغ أحيانًا من الفجوات والجفوات مقادير فيض وتشنّج لا تطاق [...]. حاضرًا، يعاني غالبية المثقفين المهمومين بالحقيقة والنقد حالة احتقان بليغة. مرتبطين بأحزاب، تراهم كثيرًا ما يدفعون الثمن غالبًا عن صراحتهم أو ممارستهم للسياسة الحقيقية على أنها سياسة الحقيقة؛ ومن جهة أخرى، في أسواق الحسابات والتوافقات، إذا كرهوا أن يكونوا مجرد خدم لأرباب السياسة أو أن يقيموا في الاستقامة الولائية والامتثالية، فإن استفاقتهم من غفلتهم يصحبها شعور مرير، متولدٌ عن إدراكهم البعدي أنهم لم يكونوا في مصطدم السياسة وتقلباتها سوى مغفلي الحلبة أو - كما يرى خصومهم - فرسان مثل طوباوية عصية على الإنجاز والتحقيق [...]. أمام مجتمعات تشهد التقارير وبلاغة الأرقام أنها تنمّي منسوب تلوث ذهني وسقم ثقافي حادّ، وأمية متعددة الأشكال والأبعاد، يكون الخلاص في النزوع بالفكر والوجدان إلى مراتع السّعة والهواء المظهر والعزلة الذكية اليقظة. وفي هذا الخيار، والحالة تلك، تكمنُ سبلُ اتقاء العبثيات والغباوات الزاحفة، والتمثلُ بالسابقين عليهم، الذين ذهبوا تاركين بصماتٍ وأثارًا رائقةً مؤثرة، تشهد أنهم أعطوا للحياة ما يرفعها ويقوّيها، وما

يُعجِبُ النفس والعقل، ويكون ويبقى من بعدهم تحفًا شيقة للأحياء المتأملين [...] وعطفًا على ذلك، ليس علينا أن نلوم فنائًا أو كاتبًا أو فيلسوفًا فضلًا عن العالم على اعتزالهم في أبراج عاجية، لكن في المقابل لنا أن نعرض عنهم إذا لم تتمخض عزلتهم عن أيِّ شيءٍ ثمينٍ جديرٍ بالانخراط في تاريخ الإبداع الأغرِّ المكين. أما عدا أولئك، فإننا نشهد صنفًا آخر، لعل ممثليه هم الأكثرون، قد فقدوا تقريبًا النزوع إلى المساءلات الجذرية الجريئة، ومعه فقدوا أيضًا قدرة المبادأة والإدهاش. فهم على الدوام هناك حيث نتوقعهم وندركهم، كما لو أنهم عناصر معدَّة مبرمجة بنحو أو آخر. لهذا لا نجد بينهم، إلا ما ندر، رجالًا ونساءً خارقين للعادة، مُبهرين، مثلًا: محافظ معارض لسلطان الماضي وهيمنة السلف على الأحياء، أو حدائثي مقاوم لكل تغريب إن كان مؤداه الاستلاب والولاء التبعية العيلى والحجر، وبالتالي العجز عن المبادرة والخلق [...]. هذا، وهل ننكر أن أغلبهم ينغمسون في الحيار والخمول، فيقيمون تحت قباب السهو والغفلة عن الشؤون والهموم، الإنسانية والثقافية منها والعامية. إنهم إجمالًا يضاجعون الخوف (ولا حياة لمن يضاجع الخوف، يقول المثل) ويجنحون، ولو من دون معاناة أو خوض نضالات، إلى الانسحاب المبكر والاعتناء بفلح حدائقهم الخاصة. وهكذا يمسون محتمين بمربعاتهم وحيطانهم، داخلين أفواجًا أفواجًا في «أسواق رؤوسهم»، مصابين بتلاش باطني وانكماشية صماء وانعزالية عقيمة جذباء، كما لو أن سنواتٍ جليديةً أو أثقالَ جاذبيةٍ سالية أدت إلى خصيهم وضربهم بالرهبة والضمور. إنهم إذن لمنطفئون! يصحُّ عليهم وصف أبي الحسن الششتري: «افهموا ذي المقاصد/ يا أهيلَ الإراده// إنَّ من ظلَّ قاعدًا/ كيف تكنَّ لو سيَّاده// السعود للمجاهد/ وله الحزق عاده...». هذا ويلزم أن نستثني الذين شاخوا سنًا وفكرًا أو أحدث لهم الزمان معاطبَ في أجسامهم أو أنفسهم [...].

في رسالة مني إلى الصديق عمور، عبرت له عن إعجابي بورقة أستاذنا الراحل، وزكيت ما ذهب إليه من رصد دقيق وأفكار نيرة، فكاتبني معقبًا: عند ممثلي تلك الأكثرية من المثاقفين، التي ذكرها الفقيد، المعرفة المنيرة، المحصلة بقوة البحث والكد، لم تعد فرصًا عينيًا أكيدًا. فقد صار يكفيهم أن يدبروا طبع الإنشائيات وترصيعها بغليظ الألفاظ ومبهمها حتى يطلقوا أقلامهم، ويستبيحوا النطق فيما يجهلونه أو لا يعرفونه إلا عبر قنوات معوجة أو مبتذلة. الخسارات الناجمة عن ذلك وسواه هي ما نلحظه بالعين المجردة: فقر النظر وضيقه، غلبة التسطيح المعرفي، وبالتالي سوء الإدراك والرصد وعجز عن الفكر ذريع...

أدليت بدلوي برسالة فكتبت: في وسط تلك علله، ضمن أخرى، تنمو، يا أخي، تيارات الجذب نحو الأسفل وتتناسل، وكذلك السنة التعتيم واللامعرفة، مشخصةً في المتناقضين وعزّابي الشأن الثقافي ومستترزقيه؛ وبينهم لا يعدم خابط ورقًا ولا مدادًا، ولا يسع المثقف الحق إذا ما وُجد عرضًا بينهم إلا أن يتكيف مع ضحالتهم أو أن يسكت مناجيًا نفسه بلسان المعري: «ولما رأيتُ الجهلَ في الناس فاشيًا/ تجاهلتُ حتى ظنَّ أنني جاهلٌ...» أما المثقفون الذين في استطاعتهم إقامة ثقافة نقدية فاعلة أو التأسيس لها، فإنهم ينتهون في الغالب إلى تبني خطابات المداراة والمواربة، أو إلى إعلانها سخطاتٍ ضاجة لا وقع لها اجتماعيًا أو سياسيًا ولا تأثير. هذا عن التيار الأعم الذي يفرز جريأته وتواتره استثناءاتٍ مضيئةً يشخصها مثقفون مقاومون بمعرفتهم العالية وقوة أعمالهم الفكرية، ولو أنهم متفاوتو الخطوة والجراءة والحضور...

مما قاله علي عمور في تقرّيب المرحوم الجعفري، استخلصت أنه كان أقرب إلى الراحل مني، وتأكّد لي هذا حين صار كلما التقينا يحكي لي ما تيسر من طرائفه وجساراته، منها كلامه الرائق عن اتخاذه موقف الوسط بين الخلوة والجلوة، بتعبير ابن عربي ومَن تبعه، أي بين ذكر الله في نفسه وذكره في الملأ؛ ومنها فراره من العلائق المدخولة بالعوائق، عملاً بالآية الكريمة ﴿واتقوا النارَ التي وقودها الناسُ والحجارة﴾؛ وأيام تقلده مناصب عليا واشتداد مساءات مَن سماهم الأجلاف والخنازير وأيضاً المستنقعين، حسب نعت استحدثه، كثيرًا ما كان يتأسى بأقوال متصوفة وحكماء كبار.

وروى الصديق أن الفقيه سُئل يومًا عن حزب العدالة والتنمية المغربي في الحكم، فقال: يمرّ من حيث مر سابقوه ويمر لاحقوه بعد أن تتقلم أظافره ويتلقح ضد معارضته الماضية، وحتى ضد ادعائه إنقاذ البلاد والعباد والنظام من زوايع الربيع العربي وتوابعه. ومن هنا تقلص عدد حقائبه إلى الثلث في حكومة السيد بنكران الثانية، وخرجت حقائب السيادة والتفوقراط من دائرة سلطات هذا الرئيس الفعلية، خلافًا لما ينص عليه دستور 2011 الجديد؛ وكل هذا وسواه لكي يستيقن ويتشبع هو وآخرون بأنه شتان ما بين الحكومات العابرة الزائلة والدولة العميقة الدائمة. أما كلام الرئيس عن العفاريت والتماسيح كنايةً عن اللوبيات المعارضة المستأسدة، فكان المغفور له يرى أن المتكلم كان يتوجب عليه تسميتها ومحاربتها علنًا، وإلا فكنايته مجرد صيغة ذرائعية ليوم يفسد فيه الود والقضية. أما عن شعبية الرجل فكان ينصح قائلًا: حذار أن تزيد على حدها فتقلب إلى ضدها أو حتفها... وأما ما ساءه كثيرًا وأغضبه، فهو أن في عهدة حكومته لم يفعل شيئًا ضد شدة انتشار الحرف اللاتيني في فضاءات المدن ومحلاتها، بحيث

بات الحرف العربي فيها يتيمًا مهانًا. ولما علم أستاذنا بوفاة محمد بَها حكيم الحزب وعلبة الرئيس السوداء، كما يُقال، حزن لمجراها المأساوي الغريب، وترحم عليه كثيرًا. أما وقوف وزيره في العدل أمام البرلمانين بعينين رطبتين، وهو يذكر بوفاة وزيرين سابقين عليه في المنصب نفسه، ويقول بجواز التحاقه بهما، إشارة إلى عبء المهمة ومشاقها، فكم تعاطف معه المرحوم ودعا الله له بالعون والصبر الجميل. وأما طلب وزير ووزيرة إعفاءهما من مهامهما، وهما من فريق الرئيس، فقد أشاد به أيما إشادة، سيما وأن السبب هو رابطة حب جمعتهما. وما زاد في تعاطفه معهما فهو ما سماه روائية الحدث ورومانسيته، إذ العاشق أبقى على زواجه من امرأته الأولى التي تلقت الشان راضيةً مرضيةً، بل إنها قبلت أداء مسعى خطبة المعشوقة من وليها، فحلَّ لهما القران بعد أن نالت المخطوبة طلاقها من زواجها الأول بمقتضى ما ينص عليه الشرع... هذا وأن الراحل دافع عن الزوجين ضد النمامين والمغتائبين، ما دام كل شيء تم بالتراضي وعلى سنة الله ورسوله، وعزز ما ذهب إليه بكون النبي عليه السلام أوفد ذات يوم أمنا عائشة لتنظر في امرأة يريد خطبتها من قبيلتها كلب (رواه الإمام ابن قيم الجوزية وغيره).

وفي متم الحديث دعائي الجليس إلى رفع أكفِّ الضراعة معه إلى العلي القدير، وطفق يدعو للمرحوم بأدعية كثيرة مؤثرة. وقبيل الافتراق أتباني أنه ورث بوصية من المغفور له خزائنه العامرة، على أن ينظر في أحسن السبل لإفادة الناس منها، ورغبني في اقتناء ما شئت من عناوينها والسهر على تلبية وصية الفقيد. شكرته على دعوته الكريمة وثقته الغالية، ونصحته بإهداء الخزانة إلى المكتبة الوطنية على أن تودع في قاعة تحمل اسم المرحوم الجعفري، فأيد وبارك، ثم ودعته على أمل اللقاء به مجددًا؛ إلا أن هذا اللقاء لم يكتب له أن يحصل، إذ لم يمض شهر حتى أتاني نعيه هو بدوره، فنزل خبره عليّ كالفاجعة المهولة، كان سببها إصابته على حين غرة بجلطة دماغية حادة. وقد حدثني من أثق به بُعيد الجنازة أن المنتقل إلى عفو ربه كان يعاني من مصاعب صحية يداريها ولا يشكو منها لأحد؛ إلا أنني أعلم بعضها ناشئةً عن معاناته الممضة أثناء ممارسته لمسؤوليات حساسة. فلم أقو على السكوت عنها في حفل تأبينه، ومما قلته بهذا الصدد:

[...] العقدة الصلبة في حياتنا السياسية الخصوصية، أيها السادة، هي أن أي وزير جديد يجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مرًّا، إذ كلاهما قاسٍ عصيب: الخيار الأول إجمالًا خيار من ينشد الاستقرار و«السلامة» من تصريف الأعمال العادية وتزجية الوقت بالمهادنة والجمود على الموجود، وبارضاء الخواطر ولو بالوعود العرقوبية الموكولة إلى النسيان وفعل الزمان

المحوي؛ غير أن صاحب هذا النهج يخاطر بالتعرض لتنقيط سيئ من طرف الراصدين والرقباء. والخيار الثاني هو أن يتخذ له متبنيه مسلمة مفادها أن وجوده في ذلك المنصب لا يبرره قانونا وعقلا إلا السعي الحثيث إلى الإصلاح كركن مكين، هو بمثابة أعز ما يُرتجى ويطلب، أي إلى تأسيس لدينامية بناءة من شأنها تحفيز هذا القطاع أو ذاك على إعطاء أحسن ما يستطيعه لهذا البلد من أجل ترقيته وتحسين صورته. لكن المتبني - وهنا يكمن بيت الداء والعقبة الشاقة (وما أدراك منها!) - ما إن يجد ويكد في السير قدما إلى الأهداف المرسومة والنتائج الملموسة المتوخاة حتى يجد نفسه أمام مصطدم الأهواء والمواقع والمصالح، فيكون عليه أن يتدبر أمره وخطته، متجنباً الانحياز لفريق ضد آخر، ويظل كذلك، حتى إذا تبين له الحابل من النابل والمنافق من الصادق، ولو بعد مدة تلتهم من زمن ولايته، أعلن رؤيته الإصلاحية مرفقة بسياسة و روزماتة للإنجاز والتحقيق. وعندها يتعبأ، من داخل المؤسسة وخارجها، كل من لا تخدم إرادته الإصلاح والتقويم، فيقاومونه بشتى العُدات والوسائل التي لهم في إدارتها وتديبرها حيل كثيرة ومهارات، فيتحركون كالخفافيش في جنح الظلام، ويتبارون في الإتيان، قولا وفعلا، بأشرس صور العنف الهمجي وأبشعها...

لقد كان المرحوم يدعو جهرا إلى القطيعة مع سياسة الخيار الأول المذكور؛ إذ إن زماننا هذا، كما كان يقول، هو زمان التنافسية الاقتصادية، والتكتلات الاتحادية والتعاونية، وتسارع الأحداث الجسام الفيصلية، أهمها الاندماج الدينامي الفاعل في سيرورة العولمة وانتفاضات الناس ضد أنظمة الاستبداد السياسي والقهر الاجتماعي والمعيشي، كما حدث إلى حد ما إبان ما أسميناه «الربيع العربي». وبالتالي، حسب ما كان يقره الفقيد، أمسى اليوم من المستعجل فك الارتباط جذريا مع مسلكيات التلاعب بالوقت وتمضيته هباءً منثورًا، وإلا ارتدت علينا عقارب ساعاته بعواقب وخيمة سيئة، كما حدث لنا فعلا طوال عقود سبقت. إن الحكامة الجيدة عنده هي أيضا التدبير الجيد للزمن بالأجندة المحكمة، والبرمجة الحكيمة، والمواعيد المستجيبة جميعها للإنجازات المهيكلة الرافعة، التي تتأبى التسويات والإبطاءات المخلة المعرقلة... هذا ولقد كان رحمة الله عليه من أشد الداعين إلى مقاومة التبذير وإهدار المال العام. وبهذا الصدد كان يرى من اللازم وضع مرصد لهذه الظاهرة السالبة من أجل تهوينها فاستئصالها. وهذا في نظره ما من شأنه أن يسهم في سن سياسة ترشيد نفقات الدولة وكل الميزانيات الوزارية والقطاعية... وخلاصة القول أن المغفور له كان يرى أن كل حكم سياسي يقف عاجزا أمام ظواهر الفساد وفاعليه هو والديمقراطية على طرفي نقيض، إذ تضحوهاتة عنده في متم المطاف عبارة عن لعبٍ واتجار، وتقوم كعنصر إخلال وعرقلة أمام مشروع التنمية البشرية ذاته...

أنهي كلمتي مستشهدا بقولة للمرحوم في إحدى دراساته، وهي: إن ما لا يقل خطرا عن الفساد هو التطبيع معه. لذا فإنه لا مناص من سنِّ إجراءات ضرورية حازمة لتثبيت وصيانة العدل الذي هو أساس الحكم الديمقراطي ومعيار التقدم الاجتماعي والاقتصادي. وهذا يوجب رفعَ التحدي الأكبر بمغالبة الفساد طيَّ تخفيه ولامرئيته، أي حين تصير الرشاوى من الحجم الكبير، ونتاجة عن توافقات وتواطؤات بين فرقاء متنفذين، ما زالوا وطيدي الصلات باقتصاد الربع والإقطاع.

كنت من بين المؤمنين الذين ختموا كلامهم بإحدى الآيات المناسبة للمقام: {من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً}.

بعد فقدان صديقيَّ عدنان الجعفري وعلي عمور، صرت أحيانا قبل الاستسلام للنوم أكرر تلك الآية في نفسي وأختمها بصيغة الإقرار تارة وصيغة التعجب تارة وبلهجة التحدي طورًا:

وإني لمن المنتظرين.

وإني لمن المنتظرين!

وإني لمن المنتظرين...

للتخفيف من ثقل الانتظار عليَّ وتليين حواشيه، شرعت أتخيل من حين لآخر موتي تزجيةً للوقت وإعلانًا أنني لا أهابه وأخشاه. وإذن، بين غفواتٍ للرؤيا وانتباهاتٍ للتعبير، استرجعت رويدًا رويدًا شريط حياتي الموسومة بالثقوب والرجات، وأيضا بلحظات خفاقة بالفرح والمتعة، فتحجبُ هاته تلك أو تنسيها بفعل دنو الوفاة المفترضة، تسبقها لمعُ وبقايا من نكتٍ وحكايا يتلجلج صدري وحنجرتي بذكرها، وتدمع عيناى من فرط الضحك بها، متبوعا بالضحك على ذقني وذقون شخوصي الهزليين والمهووسين دون الخارقين للعادة، فأميل إلى تهوينها ما استطعت، حتى لا يقتلني الضحك بغتةً، أو لكي ألقى زواري الحزاني بوجه رزينٍ مستبشرٍ بشوش.

خلال عيادتهم الأخيرة، توهمت أن أجراهم طلب مني التكرم عليهم بمُلحة الوداع من كلام رَفَع الكلفة وخلع العذار، لكنني عن ذلك اعتذرت متحججا بكون الوقت المتبقي لا يتسع للملحة، وأخشى أن تصرفها سكرات النزاع الأخير، أو أن تلهيني عن ترقب الحدث الجسيم، ثم دعوتهم أن يفرنقوا؛ وإذ تناقلوا صحتُ بهم أن يخرجوا من حولي مخرجَ صِدْقٍ، وأوصيتهم أن ينظروا

في ما لم يضع من أثري لنشيدان المعرفة، أو كي يُضحك به سِنَّة من أراد،
متى اغتم وقنط، أو لتقوية الذات بذلك أمام حاكم إذا جار، وسلطان إذا
طغى وتجبر. ولما لبوا دعوتي بالانصراف مكرهين، ظللت أترقب ملك
الموت بعينين مغمضتين ونفس مطمئنة، أتلو ما تيسر من الحكم والأشعار
في ذكر أحوال الاحتضار أو الردى. وبعد هنيهات، خلف بابي الموارب، كما
تخيلت، تكاثر الزوار من المستضعفين ومن بعض رجالات القول أو الجاه
وسواهم، وتناهت إلى أسماع الأقربين خطراتٌ من كلامي أنا طريح الفراش،
متضائلُ الأنفاس:

وجودي برمته يتبدى لي أسرابَ صورٍ متشاكلَةٍ متزاحمةٍ متدافعة. ولما أقبض
على نتفه في حواضر أرض سياحاتي وبواديها، سرعان ما تتطاير قبسات
وشظايا، مخلّفة في ناظريّ بخارا كثيفا تحفّ به ملائكة باسمه، لعلها ملائكة
الجود والفهم.

نصفي التحتاني، من أخمص قدميّ إلى حجري، آخذُ في تلقي الموت صدوعا
وانفصامات، لا ريب أنها بوادر السقمِ ومهوى الهمود...

هذا عزرائيل، كما افترضته، يترأى لي ماثلا خلف رأسي، يرتدي «سلهاما»
شديدَ البياض، نورانيّ المخيط، كأن طرفيه جناحان من ريشٍ وحرير... ليس
لمفاوضتي في توقيت ميعادِ رحيلي أتاني، بل لحنّي على طيِّ شراعي
ونفض جوارحي وكياني من هذي الدنيا الدنيّة، ثم لنفث بقية أنفاسي
بالتضرع إلى مالك الكون والأرواح... فتضرعت أنا المحتضِرُ تضرعاتٍ
مكلومةً مكتومة...

انصرم صوتي فجأةً، فاندفع الزوار نحو سريري أنا المتوفى، مكبرين ثلاثا،
رافعين عقائرهم بالأدعية الحرى لي، ثم تنافسوا في تجهيز جثمانى وإعداد
مراسيم الجنازة تهيؤا لحملي إلى مثنويّ الأخير، تحوطني عبارات المحبة
الصادقة وآيات التبجيل والتكريم.

لم يخرجني من تخيلاتي وخطراتي إلا صوت الخادمة يعلن أن الغداء جاهز...

الموت!

لعله مسألة المسائل، قال بذلك فلاسفة وحكماء ثقات، فمنهم من اعتبروا
فعل التفكير فلسفيا إن هو إلا تعلم الموت، بل ذهب أحد كبارهم مارتين
هيدغر إلى إقامة نسقه على أن الوجود كله ما هو إلا سعي إلى الموت، أي
العدم. وللتخفيف من هيمنته ووطاته ينزع الناس إلى شتى ضروب التلهي

والترايق، وحتى بنائه للمجهول. ولا يفيد زعم أبيقور أن الموت لا شيء من حيث إننا حين نكون فإنه لا يكون، وحين يحل فإننا لا نكون. إنه زعم يروم تخدير الوعي ليس إلا، إذ لا يابه صاحبه بواقع المرض والألم حتى الموت. وفي ما يخصني - ومسألة المسائل تلك فردية بامتياز - فإني ممن الهمُّ عندهم في سرور، حسب تعبير ماثور. هكذا هي بنيتي النفسية المتأصلة. أشعر أن للموت في إفناء الحياة شيئاً فشيئاً دبابيس ومقاريض، تصيب بوخزاتها أعضاء الجسم ومفاصله أو أنسجة النفس أو كليهما.

أمام ما ليس منه بدّ وما لا مناص آت، ألزمت نفسي بحيل وإجراءات كيما أدفع بثلثي المتبقي إلى برّ النجاة، كأن أسعى إلى إعادة نحت ذاتي حتى أستيقظ كل صباح منشداً: هذا اليوم لي، بكل لحظاته لي، وليكن خيراً من أمس. لم يعد لي متسع من الوقت حتى أحاكي الصوفي أحمد الرفاعي فأعالج الحيوانات الأليفة المريضة أو أخدم الأرامل والمهجورات؛ لا ولا أن أتورط في المفارقات الممضة كالتّي جعلت العلاج إما أن يفشي السرّ فيُصَلب بسببه، وإما أن يكتمه فيحترق بناره ويفنى. خيرٌ لي خيار البحث في باطني عن قبساتٍ نورانية أزندها؛ خيرٌ لي إذكاء جذوة ثورتي الذاتية ورعايتها؛ خيرٌ لي اقتناص اللذات المنشئة المنعشة لا المنهشة المتلفة. هذا رهاني وإلا فمثنوي الغوص في مستنقع الأوجاع والتردي؛ هذا رهاني وإلا فالانحباس النفسي وجرائع الكبد حالي، وهما المفضيان إلى ضجعة الموت، أو على الأقل إلى تناقص المسافة بيني وبين جثتي.

مع وجبة الفطور وجبة أخرى مكونة من صحف ورسائل بريدية. من بين هاته واحدة مربعة زرقاء استرعت انتباهي. فتحتها فإذا هي لصحافي شاب تعرفت عليه في حفل تأبين الراحل علي عمور، كان قد ألقى أثناءه كلمة مميزة. اسمه كما عرّف بنفسه خالد اللوزي، مدير مجلة «الحلقة»، يعمل في مجال الإعلام السمعي البصري، ويطلب مني في رسالته إجراء حوار حول قضايا محددة، ينشره في صحيفته ومواقع يراسلها. أول جواب خطر لي كان الاعتذار عن اللقاء بدعوى كنت سابقاً في مناسبات عديدة أحسن تلفيقها. لكنني في هذه المرة شعرت بميل إلى القبول، نظرًا لجدية صاحب الدعوة وارتياحي إليه. راسلته بدوري معبرًا له عن ذلك ومحددًا له زمن الموعد، مخيرًا إياه بين منزلي في المدينة أو ضيعتي في باديتها. أبلغني بالهاتف الذي مكنته من رقمه أنه ومساعدته يفضلان المكان الثاني.

صباح يوم ربيعي فاتن تمّ اللقاء تحت ظل عريشة في الحديقة، سهرت الخادمة حليلة على تخصيص جانب منها لطاولة حافلة بالمأكّل والمشرب. قدم لي الشاب رفيقته - واسمها خولة - على أنها مساعدته وخطيبته.

تصافحنا ما إن وضعنا حملهما التقني، ودعوتهما للفتور فلبيا فرحين، فيما الفتاة تشمل بنظراتها أرجاء الضيقة وتعبر بكلمات شاعرية صافية عن انبهارها وإعجابها، وعن سعادتها بمعرفتي في هذا الصباح الوضاء الحافل بالألوان البيضاء. أشار إليها زميلها ببدء العمل، فثبتت على صدري ميكروفونًا، وحملت على كتفها كاميرا استعدادًا للتصوير؛ أما هو فجلس قبالي وأخذ يرتب بطاقته ويعدّ حاسوبه وأداة التسجيل. قال:

- والله يا أستاذي أنا ممنون لك بقبول إجراء هذا اللقاء، سيما وأنك مقلّ في مجال الحوارات الإعلامية... في البداية أود أن أسألك في أمر توليه أهمية خاصة... أواخر 2014 وجهت إلى فقهاءنا مسألة عن جواز إقامة تماثيل في حواضرنا، وبالتخصيص في شوارعنا الكبرى وفضاءاتنا العمومية، شأننا في هذا التقليد الجميل والبدعة الحسنة، كما أكدت، شأن كثير من البلدان العربية والإسلامية؛ وأتبعَت المسألة بأجوبة على أسئلة صحافية، نشرت حديثًا بعض هاته ونص تلك في مطبوع جامع يضم أيضًا عينة مصورة من التماثيل في تلك البلدان؛ فماذا كانت ردود الفعل على ندائك؟

- جوابي اختصارًا هو كالتالي: إلى حد اليوم تلقيت رسائل تأييد للنداء من متعاطفين ومهتمين. أما الفقهاء فقد أولت سكوتهم عنه تأويل الخير، إلا من فقيه معروف بفتاواه الفضائية قال في موقع نشرته فيه ندائي ببطلان دعوتي، ودلّ بهذا على أنه لم يقرأ نص المسألة من حيث إنه تمادى في الخلط المعتم بين التماثيل والأصنام، فخرج عن الموضوع تمامًا وزاغ. وقد كان حريًا به أن يأخذ الأمر بقوة الجد ويجب عن أسئلة محددة دقيقة وردت في الرسالة، ولا يجوز، كما فعل، إهمالها أو القفز عليها.

- هل لك في هذا الفيديو أن توجز التذكير بما ناديت إليه؟

- أولًا، إنه من المفارقة بل النفاق أن تخلو فضاءاتنا البرانية من التماثيل والنصب، وأن نجدها قائمة داخل بعض متاحفنا، أذكر منها مثلًا متحف الآثار بالرباط، حيث تطالعنا تماثيل عرايا، واحد لبطليموس ابن يوبا الثاني وخاتم حكام موريطانيا الطنجية، وآخر لفينوس (ربة الحب والجمال) وآخر لإسكولاب (ربّ الطب) وآخر للغلام المتوّج، إلخ؛ وكذلك الشأن في أبهاء فنادق رقيقة تحوي مجسمات حيوانية وحتى آدمية. ومن السخف التذرع بكونها أشياء موضوعة في أماكن مستورة؛ إذ إن أصنام الشرك قبل الإسلام كانت كذلك داخل بيت الكعبة منتصبة. وحتى نصب لوحات تشكيلية عملاقة يتيمة على جنبات بعض الطرق السيارة إن هو إلا وجه للنفاق آخر... ثانيًا، إذا كان التحريم قطعياً لا نقاش فيه، فلم لا يُسحب في وطننا على التشكيل

الزيتي وكذلك الرسوم الصخرية من تراث صحرائنا اللا مادي، وأكثر من هذا على المنحوتات الحيوانية، منها في الهواء الطلق أسد إفران وحمامة تطوان وجملا طنطان، وأبرز منها على منصتين رخاميتين حصاني الخميسات والجديدة، وفرس سطات هدية وزير الداخلية إدريس البصري إلى مدينته أيام سطوته ونفوذه؟ رُبَّ قائل: إنَّ هي إلا حيوانات غير عاقلة نُصبت عَرَصًا لا غير، وهذا كلام مردود، أنزه كلَّ الفقهاء العقلاء عنه؛ إذ إنَّ الحيوانات كانت هي أيضًا موضع تأليه أو تقديس، كالثور أبيس والثعبان والقط في ديانة مصر الفرعونية، وكالبقرة عند الهندوس، والعجل الذهبي عند قدامى العبرانيين، والدب عند قبائل جرمانية، علاوة على طوطميات حيوانية في عبادات قبائل أولى ولا أقول بدائية.

- هل هناك من عنصر برهنة آخر؟

- المغرب فقهيًّا على مذهب جل البلدان الإسلامية المذكورة آنفًا، فما هي المسوغات الشرعية التي تحرم فيه ما تحلله هذه البلدان وتجيّزه؟ وما أكده لي شفاهة قبيل وفاته شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي في مناسبة جمعنتني به، هو أنه ليس هناك أيُّ تنافٍ شرعي بين الدين ونصب التماثيل ما دامت لا تُعبد ولا يُتوسل إليها من دون الله، ولا أحد حتى اليوم يقول بخلاف هذا في المؤسسات الدينية المصرية.

- إضافة إلى التماثيل المنصوبة في الجزائر، تونس، دكار، القاهرة، دمشق، بغداد وهي مذكورة في الرسالة، هل نجد أخرى في بلدان إسلامية؟

- نعم، في تركيا وتخصيصًا إسطنبول، فمما نشاهده تمثال محمد الفاتح الثاني وآخر لخير الدين باشا، وحتى قونية ففيها نصب المفكر والشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، وكذلك في ماليزيا وإندونيسيا وإيران الشيعية حيث نرى في ميادين مدن كبرى أو حدائقها تماثيل لابن سينا والبيروني والرازي والخيام (نعم عمر الخيام صاحب الرباعيات الشهيرة)، وفي كل ذلك حدث ولا حرج... وها أنت ترى وخطبتك كيف أن جنبات هذي الحديقة ازدانت بتماثيل ونصب نحتها لي فنانون شباب بعد أن طلبتها منهم على سبيل الشراء، ثم حفزت أصدقاء أن يحذوا حذوي. لكن رغبتني الأكيدة هي إقامتها في فضاءات المدن العمومية، اعتقادًا مني أن ذلك سيخلق دينامية من شأن تناميها أن تنشئ سوقًا نافقة وفرص شغل واعدة، وأن تثري قطاعًا من تراثنا اللا مادي ما أحوج المغرب الحديث إليه.

كانت خولة تشد على الكاميرا، تغير زوايا التصوير وتردد بصوت مسموع: «صح والله صح». عاد خالد بعد أن أكمل شرب شايه إلى طرح أسئلته، قال:

- شاءت ظروف نحسة خلال سنتي 2014-2015 أن تنزل بالمغرب إهانات فرنسية، الواحدة تلو الأخرى، وكانت لك إزاءها مواقف مشرفة عبرت عنها في بعض الصحف، فهلا ضمنا الفيديو بشيء من أهم لحظاتها؟

ترددت قليلاً، ثم قلت:

- بدءاً، تذكر أن وزيرنا في الشؤون الخارجية حُصّ بتفتيش دقيق في مطار روواسي شارل ديغول، بالرغم من تلوّحه بجوازه الدبلوماسية... ما حصل له لا يجوز اعتباره مجرد حدث شبيه بالمنوعات العابرة، اللهم إلا أن نكون بلغنا الدرجة القصوى في التجرد عن أنفتنا وكرامتنا. وذلك لا يجوز بلعه فهضمه بفعل اعتذار من نظير وزيرنا الفرنسي، كأنما القواعد والأعراف الدبلوماسية غير مسطرة ومعمول بها عالمياً، والحال أنها قائمة ومرعية وتقضي بتقدير مقام وزير زائر أو عابر واستضافته معزراً مكرماً. ولو حصل لأحد الوزراء الفرنسيين مثل تلك المعاملة المهينة في المغرب (وهذا من رابع المستحيلات) أو في أي قطر آخر لأقامت فرنسا الدنيا ولم تقعد... لا، لا يجوز البلع والهضم، سيما وأن الإهانة أعقت أفعالاً وأقوالاً فرنسية مشينة في حق المغرب، أوجز التذكير بعناوينها: محاولة إلقاء القبض على السيد عبد اللطيف الحموشي، أحد أركان الأمن المغربي، وذلك من طرف فرقة بوليس مسلحين على أعتاب سفارة بلده بباريس؛ أضف إلى ذلك تصريح سفير فرنسا في هيئة الأمم المتحدة بنيويورك مشبهاً المغرب بعشيقه يلزم إرضائها ولو على مضض.. إلخ. هذا وإن الأوساط الفرنكوفونية عندنا في مجالات المال والأعمال والإعلام والثقافة لم تحتج بل لم تحرك ساكناً، إما معتبرة أن تلك أمور غير ذات شأن، أو خوفاً من إثارة حفيظة حماتهم الراعين لمصالحهم مقابل خدماتهم ووفائهم. وحتى مثقفو تلك الأوساط، المفترض أنهم أحرار وأهل فكر وإدراك، لا أحد حفزته مواطنته (إن كانت له حقاً) إلى التعبير عن مواقف تنم عن غيرة على حرمة بلده وحقوقه، فيشجب إهانات فرنسا الغطرسية والاستكبار.

- وهل من أسباب وأهداف وراء ذلك؟

- يعتقد موجهو تلك الإهانات أن إنزالها ضروري للتذكير والتأكيد أن المغرب يلزم أن يظل داخل منطقة النفوذ الفرنسي، يدين بالاصطفاف والولاء، وإلا فقضية صحرائه ستصير في كف عفريت، وإلا فالميل كل الميل سيكون

لخصيمه الجزائر، الغنية بالنفط والغاز الطبيعي... إن الدوائر الفرنسية المسؤولة والمنتفذة لم تكن لترتاح إلى الزيارات المكثفة التي قام بها الملك محمد السادس خلال السنتين المذكورتين لبلدان إفريقيا الغربية، وأرادها زيارات عمل وعقد اتفاقيات ثنائية حول مشاريع تنمية مشتركة، يشترعها، كما ورد في خطابه، كون البلدان الإفريقية مستقلة وراشدة، وأن القارة السمراء غنية بخيراتها ومواردها الطبيعية والبشرية، وبالتالي فإن شعوبها هم الأوج والأولى باستغلالها والانتفاع بها لما فيه نموؤها وتقدمها. إنه خطاب جديد وقوي، ما كانت للدولة الفرنسية أن تستسيغه أو تغض عنه الطرف، أولاً لأنه دوى في منطقة تعتبرها منطقة نفوذها اقتصادياً وتجارياً ولغوياً، وثانياً لأن رتبة فرنسا الأولى في المبادلات التجارية والخدمات مع المغرب احتلتها إسبانيا، فصارت هي الثانية...

- سؤالي الأخير في هذه الجلسة، أستاذي، هو حول قضية توليها هي أيضاً مكان الصدارة: أخذنا منذ بضع سنوات نشاهد بأعيننا المجردة الانتشار الممنهج في غالبية الفضاءات المدنية للحرف اللاتيني الفرنسي واستفراده دون الحرف العربي بأسماء المحلات التجارية من مقاهٍ ومطاعم ومخازن وصالونات وغيرها. وقد تفتشت هذه الظاهرة الغربية المقلقة في مجمل المدن الكبرى كما في المتوسط والصغرى، وليس في الشوارع والرحاب العصرية وحدها بل تعدتها إلى الأحياء الشعبية القديمة أيضاً. فما بال السلطات تسمح بها والمثقفين يسكتون عنها؟

- هذا الوضع المزري هو كما أوجزت وصفه، سبق أن كتبت الكثير فيه. قد تستفسر بعض أصحاب تلك المحلات عن سبب ذلك، فمن قائل إن المغاربة يقرأون الفرنسية، ومن متذرع بكون الديزايين بالفرنسية لا يترك مكاناً للحرف العربي، ومن معلن فعله بتقليد أصحابه في المهنة. أما إذا ساءلت في الشأن ذاته مسؤولين جماعيين وبرلمانيين وحتى حكوميين عن مشروعية الترخيص الإداري بذلك، فلا تلقى منهم إلا أجوبة خاملة مستنيمة، أو كلمات مستنكرة عابرة، أشبه ما تكون بكلمات المهوئين بل المغلوبين على أمرهم. وهذا الوضع الشاذ لا نظن أن له قريباً في أغلب بلدان العالم. أما زمر المثقفين وجمعياتهم فإن سوادهم أمام هذا الأمر وسواه من الشؤون الحساسة الخطرة، يظلون متمسكين بسكوت عنه مطبق ضاحٍ، أضف إليه الفساد الثقافي واللغوي الذي يبقى عندهم غير منظور ولا مفكر فيه. ولسنا ندري حثام يسترسل سباتهم المديد، وما السبيل إلى تحريك سواكنهم وضمائرهم، كيما يكفوا عن صراعاتهم الصغيرة ويلتزموا بإعادة ترسيخ ثقافة القيم والأساسيات وشيوعها... أظن أن تسجيلك لا يتسع لأكثر مما قلت، ولربما يكون للحديث صلة.

جمع الإعلاميان حوائجهما. طلبا من حليلة أن تأخذ لهما صورًا معي، فيما خولة تقول فرحةً نشوى أنها فهمت كل كلامي رغم أنها متوسطة الثقافة، واستأذنتني في قطف ورد فساعدها على لمّ باقة لها وأخرى لخطيبها، وقبل الفراق أهدتني وردة ثم تبادلنا كلمات الوداع.

عدت إلى ما ألزمت به نفسي منذ أن أوصاني طبيبي بوجود تشغيل ذاكرتي ودماعي، أي بالقراءة والتعاطي لتأملات مديدة وحتى للكتابة، وإن ليس بالضرورة للنشر، وإنما لتحرير صفحات تلو أخرى ماثواها في آخر المطاف مدفأتي أو سلة المرميات. وفي تمزيقها لم يكن يأخذني تلكؤ ولا رافة، ولو بدت لي أحيانًا في بعضها جمل جيدة أو لمع جاذبة جديدة بأن تكون نوى لنصوص ممكنة.

وذات يوم، وأنا في غمرة رياضتي، رنَّ هاتفي فإذا بالشابة خولة على الخط تحيني وتعتذر عن الإزعاج وتستأمن عن حالي. سألتها كيف حصلت على رقمي، قالت سرقة من موبايل خالد، وعن سبب المكالمة أجابت عفويًا أنها ترغب في أن تسلمني تسجيلي بالفيديو وفي محادثتي والاستفادة من توجيهاتي ونصائحي. ارتأيت للتو أن أستملها ريثما أعود من سفرة وأفكر في الأمر. شكرتني قبل توديعي وعبرت عن أملها الكبير في لقائي.

للحؤول دون إطالة التفكير في مبادرة الفتاة وطلبها، خرجت إلى المدينة مرددًا في نفسي: عليّ بالناس ووجوههم. عليّ بالغوص في أمواجهم وأسواقهم، أرنو من طرف خفيّ إلى هيئات بعضهم وحركاتهم. وفي المحصلة، إنهم كما عهدتهم: فرادى أو جماعات يدبون في الأرض، ومساعيهم شتى، أعلاها طلب الرزق وأسباب العيش وحفظ صحة الأذهان والأبدان... حشوت سيارتي، كما اعتدت، بمقتنيات عدة تتقدمها صحف ومجلات، زرت قبور أحبة: زوجتي وعمور والجعفري، ثم قفلت عائداً إلى مثواي. هنا وجدت في انتظاري رسالة بريدية من خولة. بعد استرداد أنفاسي واختلائي في مكنتي، اطلعت عليها، تقول بعد التحية والاعتذار عن الإزعاج:

كم سعدت، سيدي، بالساعات التي أمضيتها في ضيعتك! سعدت مثلما لم أسعد من قبل. بفضائك الساحر وكلامك النيّر ولطفك الغامر سعدت... خالد هاجر إلى دبي، وفراقنا كان لا بد منه. الخلاف بيننا في كل شيء بلغ أشده وحدا لا يطاق... أبي منذ سنتين دهسته سيارة وقتلته، ولم يعثر لسائقها على أثر. مات الوالد تاركًا ما يسترني أنا وأمي الأرملة. رغبتني الغالية أن أتشرف بتعريفك بهذه الأم حتى ترى بنفسك كم هي رائعة خلقة وخلقا... سامحني إن أنا تجاوزت حدّ العفة والحياء، ورجائي أن تشملني بعفوك وكرمك...

المخلصة خولة.

خرجت إلى العريشة أتشم أريجها ممزوجًا بكلمات الرسالة التي فاجأتني بقدر ما استخفني فرحي بها واستبشاري... امرأة رائعة، كما تشهد بنتها، لم لا أحسبها هبةً سماويةً تنزل عليّ في منعرج من حياتي ما أحوجني معه إليها. الرهان في سني وإن خسرت له لن يضر بوضعي ولن يغير منه شيئًا، أما إن ربحت فإني أفتح عمري المتبقي على إمكانات رائعة وربما سعيدة.

اللقاء مع الأم وبنتها كان لي تحت ظلال العريشة ذاتها. وقد صدقت خولة في وصف والدتها، إنها حقًا لآية في الروعة خلقة ولا شك خلقًا. أكبرها سنًا وتعذلني قامة، إذا تكلمت تصوع منها مسك الحكمة والبهاء. هذا وإنه لقد عجب تأدي بي من تأبين الراحل عليّ عمور إلى التعرف على الشابين خالد وخولة، ومن هاته إلى أمها الماثلة أمامي الآن بجماع محاسنها وشمائلها. قالت:

- خولة، يا سيدي، كثيرة الجرأة، قليلة الحشمة، فاعذر خفتها وصغر سنها.

- بل، سيدتي، أحمد لها خصلتها، فلولاها لما جمعتني بك هذه الفرصة الثمينة، ولما حظيت بسعادة التعرف إليك...

شعرت أن لساني أخذ يندلق وينزلق، كأني به يروم المكاشفة السريعة وطبي المراحل، فألزمته بالتؤدة والرزانة، فيما جليستي حول طاولة مشروبات تحدثني عن زوجها المتوفى وعملها في إدارة مدرسة ثانوية، وعن سهرها على تربية وحيدتها وتعليمها، كما تحدثت في بعض الأمور الحياتية العادية، فاستخلصت أنها ما زالت دون سن التقاعد، وأنها هادئة الطبع، متحكمة في انفعالاتها، مؤمنة بالقدر خيره وشره، تهوى الموشحات والموسيقى العربية، تمارس بعض الرياضات خصوصًا منها السباحة... في المقابل وافيتها بما قل من معلومات عني، تاركًا الاستزادة فيها إلى مستقبل الأيام.

أما البنت فكانت ببذلتها الرياضية تارة تعدو في الحقل، وتارة - بعد استئذاني - تزور فضاءات الضيعة أو تعوم في المسبح، وتارة تعود إلينا جذلي لشرب مرطب ثم تمضي، كأنما آلت على نفسها تمديد اختلائي بأمرها وعدم التشويش علينا بحضورها. لكن في آخر مرة، والشمس تدنو من مغيبها، أقبلت الفتاة لاهثة فطافت حول تماثيل العريشة جاهرة بأسمائها: امرؤ القيس، المتنبّي، التوحيدي، المعري، عبد الكريم الخطابي، أم كلثوم... وبعدها دنت منّي وقالت مغنيةً: عصفورتان تتناحيان بأعذب الألحان، صدقت يا عبد الوهاب... والله لا يخصكما إلا عقد الزواج... فقامت والدتها نائرة

وصاحت بها: اسكتي يا عديمة الحياء، لكن البنت أجابت ببرودة أعصاب: والله يا أمي لو كنت في وضعك وسنك لطلبت يد سيد الرجال هذا... فما كان من المخاطبة إلا أن نهرتها: اسكتي يا لعينة، ثم استدارت نحوي قائلة: يا أستاذ عبد الحي، أخذنا من وقتك وكرمك أكثر مما نستحق. أستودعك الله. وأنت يا بنت سيرى قدامي... رددت التحية ورافقتهما إلى المرأب مبدئاً علامات البسط والابتهاج. هنا سلمتني خولة ديفيدي التسجيل، وهي تقول مؤيدة من أمها: أحاديثك قمة في الروعة، بثتها مواقع وشبكات تواصل كثيرة. تهانينا يا أستاذ...

لو تركت مشاعري الجياشة تنطق بلسان حالي وأنا أجالس أم خولة، السيدة عفاف، لقلت لها: حسبت الغضب ليس من شيمك، ثم البنت قالت الحق، ما يخصنا إلا عقد الزواج. وعاودني ذلك الصوت الذي اعتدت سماع همساته ووسوساته في بعض لحظاتي المفصلية، قال: حذار يا هذا حذار... ما أدراك أن تكون سقطت في أحابيل كيد النساء! لعل المشهد الأخير حول عقد القران قد حبكته الأم وبنتها بإحكام حتى تذعن لهما وأنت عن وعيك غافل... بدا لي أن أصد الصوت الإبليسي حتى يرجع على عقبيه خاسئاً، وذلك باعتبار الوقت يُحسب عليّ وليس لي، وبالقول: اليوم ما بقي منه فكر وغداً أمر.

في الغد أمهلت نفسي يومين إضافيين كيما أعمق النظر أكثر وأقلب الشان من كل وجوهه. وبعد ذلك استقر رأيي على دعوة الست عفاف إليّ مطعم حميمي. قبلت على الفور الدعوة شاكرة، ثم اعتذرت عنها وفضلت أن يكون العشاء في بيت أمها.

وكذلك كان...

حول طاولة غنية بالمأكل والمشرب جلسْتُ متوسطاً داعيتي، اللطيفة الملامح، الأنيقة المظهر والملبس، وأمها الصماء البكماء الموعلة في السن. حدثتني الست بما قلَّ عن والدتها المعوقة وعللت غياب خولة بذهابها مع فريق إعلامي لإجراء ريبورتاج عن الأطفال الضائعين. وكانت الجدة تلمس أحياناً رأسي فاحصة وتقول بلغتها الخاصة ما ترجمته لي ابنتها: فراسة المؤمن لا تخطئ. عليك كل سمات الصدق والوفاء يا سيدي. ويقيني أنك أبداً لن تخيب ظني فيك... وبعد ذاك قامت للنوم فقمتم وقبلت رأسها رامراً إلى أبي لن أخيب ظنها أبداً... ولما أنهت عفاف عنايتها بأمها دعنتني إلى الصالون، فجالستها وأنا أكرر بالكلام وعدي، وإذ نبهتني أن المعنية به تراود الآن نعاسها أجبتها فوراً أنه موجّه أيضاً لها. واغتنمت دهشتها فأفصحت قائلاً وأنا أشد على يديها:

- أريدك يا ست الستات زوجة وربة بيتي وشؤوني... تزوجت من قبل امرأة خيرة، لكنها رحلت مبكرًا ولم تخلف لي... خولة، إن قبلت عرضي، تكون بمثابة كريمتي، نرعاها معًا ونربّيها.

فهمتُ من سكوتها ونظرتها الحنون إليّ أنها ملبيةٌ موافقة، ثم نطقت وقد علا وجهها نورًا لامعًا:

- طلبك يا سيد الرجال يشرفني ويعليني... أنا مثلك جربت الزواج من رجل طيب ودود. لذا يحسن أن نحتفل بقراننا بمنتهى البساطة والخفة، أي بلا بذخ ولا حفل كبير.

كل شيء مرّ سلسًا ناعمًا. بعض الحضور كانوا من أهلي الأباعد، وغالبيتهم من أهلها وأصدقاء خولة التي كانت في أوج الفرح والابتهاج بالحدث السعيد. وبُعِيد العرس انتقلتُ مع زوجتي الجديدة إلى بيتي بالرباط، واتفقنا على قضاء عطل آخر الأسبوع في ضيعتي مع بنتنا متى سمح لها شغلها.

أشهد - والحق أقول - أن تأقلمي مع وضعي في عشرتي الزوجية هته تمّ لي على أحسن وجه. كل مخاوفي البدئية من إكراهات التحول وصعوباته سرعان ما تبددت وزالت، والفضل فيه يعود إلى التي باتت جديرة بحبي واهتمامي: عفاف ذات الهمة العالية والخفة الفائقة. امرأة على قدّ ما أبتغي وأشتهي، وبحلو لي - كم يحلو لي! - أن أكون في ذاك على قدها أنا بدوري. خلوي إليها أضحى شيئًا فشيئًا صنو خلوي إلى نفسي. وفي هذا علامة بشري فارقة ودليل تواطؤٍ بهيٍّ وتكاملٍ فتّان. طيفها يصحّني حتى حين أدلفُ إلى الخارج ساعيًا مع بعض بني الدنيا وبين التكتلات العمرانية والكثافة السكانية. وفي المنزل، وحده نسيّمها المسكي يهديني إليها، غاديةً أو رائحة، قاعدةً هنا أو قائمة هناك.

المرأة انثُست من ضلع الرجل، يُقال. أعترض مدعيًا: لِمَ لا يكون العكس هو الصحيح، أو قل لِمَ لا التناسل هو الأصح، إن رمنا به العدل والتكافؤ. والحجة الدامغة: حياتي من دون حرمي هاته خطأ تكون؛ وفي حضرتها أقرُّ أن لوجودي فضلًا ودلالة، وأعدُّ زماني المتبقي بزخم اللحظات وحسنها، فيخفُّ عبء الديمومة عندي بل يتلاشى ويزول، فاسحًا لعيش الجسم والذهن سبل الانتعاش واليسر.

درعًا للمعاكسات والحائلات، وطدت عزمي على مغالبتها فدحرها. الحب خيارٌ حرٌّ وتوقُّ إلى الأبدع والأجمل، بعيدًا عن القمار وضربات النرد. فلا استقبال لمن يزعم أننا نتعلم الحياة حين تنقضي الحياة، أي إننا قياسيًا نسعد

بالحب لما من ختمها تدنو الحياة. فلن أقول مع سارتر الإنسان شوق لا مجدي؛ ولا مع كونديرا ما مفاده أن الحياة تُكتب مرة واحدة، أي في بروفة لا ثانية لها، بل الأصح والأنفع عندي أن الوجود مَشُوقٌ إذا اقترنت جدواه بـجودته، وكان انتقاله من نصِّ تجربتيّ تتحكم فيه الحتمية الصلبة إلى آخر أحسن وأرقى تُختطُّ سطورَه بأشعة الحرية الجارية أو المستعادة. لكن، ما أذهب إليه، بعيدًا عن أيِّ غفول وبلادة، لا يستقيم إلا بإحضار تفاؤل الإرادة التي تذلل العقبات والعواقب، والمشاكل والمشاغب، وذلك بذاكرة الأجل والأجدر، وبالفكر عميق الغور والتصور، شديد الوعي والتمكن. لذا يلزم تمرين الملكات على معالجة القضايا الرئيسة والجوهرية، وليس التلفيقية اللامبعدة أو المستحيلة على الفعل الفكري والشفافية القولية.

عودًا إلى فاتنتي، وحيدتي، لا أدري لمَ كلما تأملتُ سيرتها السنوية، وتفردت في وجهها الوضاء إلا وحضرتني ما رواه لي ذات يوم الراحل علي عمور عن فئة رجال صاروا كثيري الإيمان بالغيب، وذلك بفضل محفز واحد هو رؤيتهم لنساء أخذات، هنا وهناك، يهتفن فرادى أو زرافات بصوت مرتفع أو خفيض: يا الله!

الحب - هذا ما علمتني إياه تجربتي وتجارب آخرين - ليس حبَّ البداية طيِّعنفوانها وشطحها، وليس مجرد لبوس للرغبة والشهوة، بل إنه تنشئة وبناء إذا أريد له أن ينال رهان الحياة المبتغاة وطاقاتها المتجددة، وأن يغالب أفاعيل الزمان في الخلائق بحماية الوجود المثنى من أسباب الآفات والكبوات، بدينية كانت أم نفسية. إنه الاقتدار على تحويل لقيّة عرضية إلى أسٍّ يقوم عليه جنوح ذاتين إلى ردم هوة الانفصال، وإبدالها بوصل رتقيّ وتواصلٍ يقظٍ ثري.

الحب بكل تمايزاته وتنويعاته وضع له السلف، كما نعلم، أدبيات ومرادفاتٍ ولوازمٍ كثيرة عدتُ إليها في ظرفي هذا، وكلها كفاني مهمة وصفها وتعليلها أبو بكر الإصفهاني في كتاب الزهرة، وابن قيم الجوزية في روضة المحبين، وسواهما. وفي هذا الحب ينضوي المحبون والعشاق في ربوع العالم كله، لا فرق بين أبيض وأسود ولا بين أمة وأخرى.

وفي ذلك سوف أحدث حبيبتي متى سنح الوقت، وبعد أن أجدد عودتي إلى تلك الدرر الغالية؛ وسأخبرها مطولًا عن العالم الفحل، الإمام ابن حزم القرطبي، مؤلف التحفة الشيقة طوق الحمامة في الألفة والألاف، وهو الذي ربي، حسب اعترافه، في أحضان النساء، واستقصى ثقافتهن في شؤون الحب والشوق، كما أنه يحدثنا في الحب عن نفسه بعبارته: وعني أخبرك،

كأن ييوح لنا برقة عاطفته الغرامية، ولو أنه عصي الدمع، أو بكونه كأبيه
يعشق الشقراوات ويفضلهن. وعلاوة على ذلك ينبئنا العالم النحرير والفقير
الظاهر الصارم عن عشق الجواري والغلمان، ولا يجد غضاضة ولا حرجًا
في القول عن نفسه:

إِنَّ التِي قَلْبِي بِهَا عَلِقْتُ قَبَّلْتُهَا قَبْلَةَ يَوْمًا عَلَى خَطْرِ

فَمَا أَعَدُّ لَوْ طَالَتْ سَنِي سَوَى تِلْكَ السَّوِيعةِ بِالتَّحْقِيقِ مِنْ عُمْرِي

وبناءً عليه، سحقا لمن في الموضوع قال، وقد أكون أنا القائل في يوم مضى
كان عندي عبوسًا قمطيرًا:

صعدَ الوقتُ إلينا،

فضعي صدركِ والتَّقلَّ كلُّهُ

حيثُ الحبُّ عندنا كرداءٍ عتيقٍ يضيِّقُ ويبلَى،

حيثُ الحزنُ بيننا يسعى كالأفعى

وينفثُ سمًّا في حمانا...

شعشعَ الوقتُ الرتيبُ وأضحى،

بالشيبِ والفتورِ يرشقنا،

لا نشيدَ ولا سلاحَ لنا،

لاقتلاعِ الجدبِ من ربعا.

عفاف، في زمني هذا، حَدَّثني الأبرُّ الأروغُ وفرحةً روجي، ولا ريب أني عندها
لكذلك. ونفسي في حياها بما كسبت مسؤولية، وإنها هي أيضًا لكذلك. لذا
صرنا نتنافس في تدبير اليومي وتلقيحه ضد الخلافات اللامجدية والملاة.
وكان بهذا الصدد أن توافقنا على تمتيع أمها بأفضل نمط عيش، وعلى حسن
معاشرة الأهل، والسماح لبنتها - التي أضحيت بنتي - بقضاء سنة في لندن

لاستكمال دراستها وتقوية إنجليزيتها، نزولاً عند رغبتها الأكيدة؛ وتوافقنا كذلك على أمر تخليها عن وظيفتها للتفرغ للشؤون البيت والعمل الخيري، وغير ذلك من الشؤون العملية التي لا مناص من تسويتها بالحسنى وزيادة.

الصوت، ذلك الذي اعتاد الصياح بي والوسوسة لي في بعض أوقات خلوتي ومسراتي، قال: أراك تغرق في مديح الحب وتغالي، وتسكن أرضك شعرياً وبالمخاطر لا تبالي... والموت، هزيمة بني آدم النكراء، هل نسيت أمره يا مغرور أم طمرت ذكره قبل أن يُفني ذكرك في ظلمات التلّف والنسيان؟ هل عزفت عن انتظاره في ظل هدنة لن تدوم، وغاية لن تروم؟! فما هو إلا زمن لن يطول حتى تتلبّد سماءك مجدداً بالغيوم، وتنظر ملياً في هيكلك البالي؛ هذا ولا يفيدك في شيء أن تموت محبباً...

أجبت بصريح النفخ والعبارة: قد يأتي الموت بغتة وقهراً، لكنني نذرت لنفسي أن لا أنتظره ولا حتى أن أشغل به بالي. وإن كنت تستكثر عليّ سعدي وتريد زواله فتباً لك وسحقاً...

قلت ما قلت ثم هرولت نحو حبيتي طالباً وجهها المكرم الخصب، وناشداً حمايتها الواقية، ولو لأجل ما... ولو لأجل مسمى...

حبيتي، درعي الواقي ضد تراكم أكوام السخف واللامعنى، ضد الموت الرديء والانقهار، أشهد أنها علمتني تنسّم أرياح الأشجار والأزهار، والإنصات إلى خشخشات العشب والأصداف، وإلى حفيف أجنحة الطيور ونواطقها الغناء؛ وعلمتني تذوق موسيقى الشرقيين الأوسط والأدنى، التي لها بها معرفة معتبرة. وكل هذا وسواه كان يزيد في تحريري الذاتي وتلقي عناصر الطبيعة في نطاق الجواني بالشوق والترحاب. فكيف، وحالتي تلك، لا أنحاز لمن يزعم أن الجمال من شأنه أن ينقذ العالم، هاتفاً ملء حنجرتي: أمين ثم أمين! وكيف لا أردد في نفسي آية كريمة تقول عن الأنعام: (ولكم فيها جمال حينُ يُريحون وحينُ تسرحون)؟!!

لكن يلزمني الاعتراف أن الهواجس والوساوس لم أتطهر منها تماماً، بل ما زالت رواسبها تثوي في باطني، مستعدةً للتنافس في افتراس مزاجي وتعكير صفوي، لكن ما إن تواجهني مصوبةً إليّ سهامها السامة حتى أهرع، كما دأبت، إلى التي غدت قبلي وترياقِي، فأخفُّ بل في ظلها الوارفِ الدفيء أشفى من نكوصي واكتئابي؛ إذ إنها بحركاتها الرشيقة، وكلماتها المحلاة بابتسامتها الخلاية، تنزلُ عليّ شأيب حبٍّ وحنان. وهكذا بين وجهها الناعم الصبوح ودفتي كتاب أستعيد هناءتي واتزاني الحيوي، فنكلك معاً

جموحنا العشقي بتطرح الهوى ورشف الزلال من السحر الحلال، أو
بغطساتٍ في المسبح، تتلاعب بالماء تارة، وتترك الماء بنا يتلاعب تارة.

هبةً من السماء هذي المرأة، أستمري بها الأوقات وأستحليها، أشكر القدر
الخير الذي قادها إليّ حبيبةً تجبُر صدوعي، وتقوم لي حصناً حامياً من رِقِّ
العلائق الغيرية والاحتباس السياسي المتلف الخانق. معها وفي عشرتها كيف
لا أصدق لحسابي الخاص هتاف أراغون المرأة مستقبل الرجل، أو حُكم
غوتة في فاوست الذهاب إلى أن السرمد الأنثوي يذهب بنا إلى الأعلى!

فيا طائري في عنقي غرِّد بالبُشرياتِ والمفرحات ما وسعك التغريد، لكن لا
تنسَ تلحين إيمان حبيبتِي بالقدر خيرِه واتقاء شره ما وسعنا الاتقاء؛ غرِّد
بقولها إن الملالة في ملة الحبِّ والحياة مسحٌ وللعدم علامة؛ وغرِّد بتحيزي
لها والتجوهر بنورها والتخلق بجماع محاسنها؛ وغرِّد بما تلحظه في عشرتنا
وُسْرُ به ولا أراه...

حبيبتِي مؤنستي أغمرها بحبي، وأرمز إليه بهداياي، ولو أنها عادةً لا تطلب
مني شيئاً، إلا من مرة تراجتني أن أضيف إلى تماثلي المنصوبة تمثالاً لسعاد
حسني التي ماتت مريضةً بئيسة، وآخر للراحلة وردة الجزائرية التي بدل أن
يُحمل نعشها على الأكتاف، كما تقضي به الأعراف الإنسانية، تمَّ وضعه في
طائرة بواسطة رافعة ميكانيكية، وذلك لنقلها من القاهرة إلى بلادها. ولم
يمض أسبوعان حتى كان لعفاف ما أرادت وتمت.

حرمي، الملقى بالمواهب والموارد، أستخبرها الحال، فتطمئنني عليه مؤكدةً
على التحلي بأسباب اليقظة والوقاية؛ وأحياناً تزف إليّ أنباءً سعيدة، من
آخرها أن خولة، التي كنا على تواصل مستمر بها، تتوفق في دراستها، وأنها
وجدت فارس أحلامها تحبه ويحبها؛ كما أنها تعرض عليّ بيانات جيدة عن
وضعنا المادي والإسهام في أعمال خيرية، وتقترح بعض الرحلات في أرض
الله الواسعة، تنصدرها واحدة إلى لندن للاطمئنان على خولة، والتعرف على
حبيبها وصحة حبه لها.

عجباً لذلك الصوت الجواني كيف أنه تنحّي تمامًا عن فصل حياتي الجديد،
وطال غيابه واستدام! فلم يتظاهر ولو قليلاً لكي يطعن في سعدي وابتهاجي
بلفت نظري إلى مخبوءات صوادم الأيام وحوالكها، كأن أرزء في أعز من
أحب، أو أن يحدث لي الزمان شغلا في جسدي. انطفأ الصوت إذن
وانطمس، فلا رجع من ظلمائه وانعدامه، ولا رجعت أقواله المتطيرة

المشؤومة. إنما بيني وبين نفسي لا بأس من حينٍ لآخر من تذكر شعاري:
ولو لأجلٍ ما... ولو لأجلٍ مسمّى...

وإلى أن يهجم الأجل المحتوم، عليّ بالحلول جماليًّا في حوزة ملاكي ومالكة مهجتي. وليس الحزن عندي في سرور، بل يبده سروري الذي هو نورٌ على نور. وإن طائري في عنقي، بتغريداته الصادحة أو الحميمة، على ذلك لشهيد.

إنما ريثما يحل ما لا مردَّ له، لا سلطان لي على ذاكرتي التي ما إن أخلو لنفسي أو تغيب الأنيسة في الخارج لقضاء حاجات، حتى تعاودني تظاهرات الأسوأ مزاحمةً حالة الأحسن والأجمل، فلا تقوى هاته على تلك، لغلبة طفو أكدار ومنغصات ماضية. وفي فيض الذكريات أو ورودها دفعةً دفعة، تتبدى لي أقساها وألسعها ماثلة في كلمات زوجتي الأولى على فراش احتضارها، ومنها حين تسأل القدر: أيّ نفع تجنيه إذ تستमित في تعنيفي وإيلامي؟ ثم تترجى الله أن يمنَّ عليها بموت سلس رحيم، كما أنها كانت تتوجه إليّ متضرعة: الوفاة عندي كلا شيء، لكن فرأقك هو ما يكسرني ويدمني...

حاضري - والحقّ أقول - أرقى من سالف حياتي وأسلم، وأيامه بل لحظاته درر رائعةً بهيجة، والفضل فيه يعود إلى سيدة هي والخير المحض سيان. أراها منذ فترة تُبید تشاؤمي المكتسب بخطوات وإجراءاتٍ عملية، آخرها تحويل الضيعة - نصينا من هذي الأرض - إلى جنة فيحاء، فيها الغروس والخضر والفواكه وما يعجب النفس ويسرها. أما ميلي العنيد إلى جعل تلك النعم وغيرها في مرآة تقلبات الزمان وما تحبل به من فجاءاتٍ وفواجع، فإنني صرت أصدده باعتناق إيمانٍ كإيمان حبيبتني بالمقادير مازجًا إياه بحكم أبيقور والخيام، أو برؤى الرواقين وأهل الأحوال والمقامات.

لم يخرجني من تمحوري الذاتي وتأملاتي إلا نداء عفاف أن أحضر إلى العريشة لمشاورتي في أمر. هرعت إليها، وجدتها مع أمها وبعض أهلها، سلمت ورحبت ثم سألتها:

- خير إن شاء الله يا عفاف؟

- كل الخير، قالت، أستشيرك في بناء بركة بنافورة يتوسطها تمثال من اختيارك، وهذا رسمها... وأستشيرك في أمر آخر: تخصيص هكتار من الضيعة لتربية بعض الماشية والدواجن...

لم أطلب التفاصيل، فقلت لها اختصارًا بوجهٍ منبسّطٍ بسام:

- الرأي رأيك يا مولائي، وزوج حليمة يكون في عونك وخدم آخرون إن شئت. وعلى ما أقول أشهد حماتي وأهلك هؤلاء.

ندت عنها ابتسامة رقيقة وشكرتني، ثم حاورت الزوار قليلاً قبل أن يقوموا للانصراف، والمساء يدنو من حلوله.

لم يمض شهران حتى كان لعفاف ما أرادت وخططت له. فأمست الضيعة أكثر بهاءً وأنسًا، كأنها من إحدى جنات الأرض، وصرنا نحن نكثر التردد عليها ونرتاح حقًا إلى أرجائها ومكوناتها الجديدة، فرأيتني نزاعًا إلى تخصيص النبات والحيوان والأحجار بانتباهي الشديد وإعجابي الفائق، وكذلك كواكب السماء وتوالي الليل والنهار. فيها وبمعية راعيتها تمرست على توشيح روابطي بالعيش المنعش الدقيق. فكيف لا أشمل رفيقة عمري ما بقي منه بغنائتي الصادقة وحبِّي الخالص. فإن نقع نفسي حزنٌ فهي هنا لتفرجه، أو إن مسني قرحٌ فهي هنا لثبرته... أما الكتابة فقد هجرتها أو هجرتني، وتعبتُ منها أو تعبت مني، ولعلها تعود... لعلها تعود؛ أما القراءة فما زالت تلازمني خيطًا رقيقًا يصلني بعالمَي الغيب والحضور...

وإن لأجلٍ ما...

وإن لأجلٍ مسمى...

السيرة الثقافية

بنسالم حمّيش.. مفكر وأديب، وزير الثقافة الأسبق بالمملكة المغربية. دكتوراه الدولة من جامعة باريس في الفلسفة. يكتب بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. تُرجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. اختار اتحاد الكتاب في مصر روايته مجنون الحكم ضمن أحسن الروايات المئة للقرن العشرين. محاضر في عدة ملتقيات عربية وأوروبية وأمريكية. عضو في عدة جمعيات ومؤسسات عربية وأوروبية. رئيس سابق لصندوق دعم الإنتاج السينمائي المغربي. عضو سابق في المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان. فاز بعدد من الجوائز، منها: جائزة الناقد للرواية (1990) - جائزة الأطلس الكبير (2000) - جائزة نجيب محفوظ (2002) - جائزة الشارقة لليونسكو (2003) - جائزة نجيب محفوظ لاتحاد كتاب مصر (2009) - ميدالية تنويه من جمعية الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب والعلوم (باريس، 2009) - الجائزة الكبرى لأكاديمية تولوز الفرنسية (2011) - وصلت روايته «معدبتي» إلى القائمة القصيرة لجائزة «البوكر» العربية العالمية.

للكتاب:

بالعربية:

في الدراسات الفكرية والتاريخية:

- في نقد الحاجة إلى ماركس، 1983.

- معهم حيث هم (حوارات فكرية)، 1987.

- كتاب الجرح والحكمة، 1988.

- التشكلات الإيديولوجية في الإسلام 1990.

- في الغمة المغربية، 1997.

- الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، 1998.

- في معرفة الآخر، 1999.

- التراكم السلبي والعلم النافع، 2001.

- نقد ثقافة الحجر وبدأوة الفكر، 2004.
- * العرب والإسلام في مرايا الاستشراق، 2011.
- في الإسلام الثقافي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2016.
- الأعمال الأدبية:
- مجنون الحكم، 1990.
- محن الفتى زين شامة، 1993.
- سماسرة السراب، 1995.
- العلامه، 1997.
- فتنه الرؤوس والنسوة، 2000.
- زهرة الجاهلية، 2003.
- أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى، 2004.
- هذا الأندلسي!، 2007.
- * امرأة أعمال، 2013.
- * من ذكر وأنثى، 2015.
- أبيات سكنتها وأخرى (شعر)، 1997.
- ديوان الانتفاض، 2000.
- * افتراعات، 2010.
- * الحبّ ذو الحرث والريحان، 2013.
- سيناريوات لأفلام تلفزيونية مع القناة الثانية المغربية: أمواج البر، 2002 /
علال القلدة، 2003 / علاش لا، 2005 / ابن خلدون (في انتظار الإخراج).

بالفرنسية:

- * De la formation idéologique en Islam, Anthropos, Paris, 1983; rééd., Rabat, 2006.
- * Au pays de nos crises. Essai sur le mal marocain, Casablanca, 1977.
- * Le Calife de l'épouvante, Le serpent à plumes, Paris, 1999.
- * Ijtihâd, la face voilée de l'Islam, Paris 1987, rééd., Rabat, 2006.
- * Ibn Khaldûn, un philosophe de l'histoire, Paris 1990, rééd., Rabat, 2006.
- * Etre en vie et autres fragments, Eddif-Non lieu, Casablanca-Paris, 2007.
- * Le livre des élans, Rabat, 2013.
- * Le roman d'Ibn Khaldun, Casablanca, 2016.
- * Ma tortionnaire (sous presse).